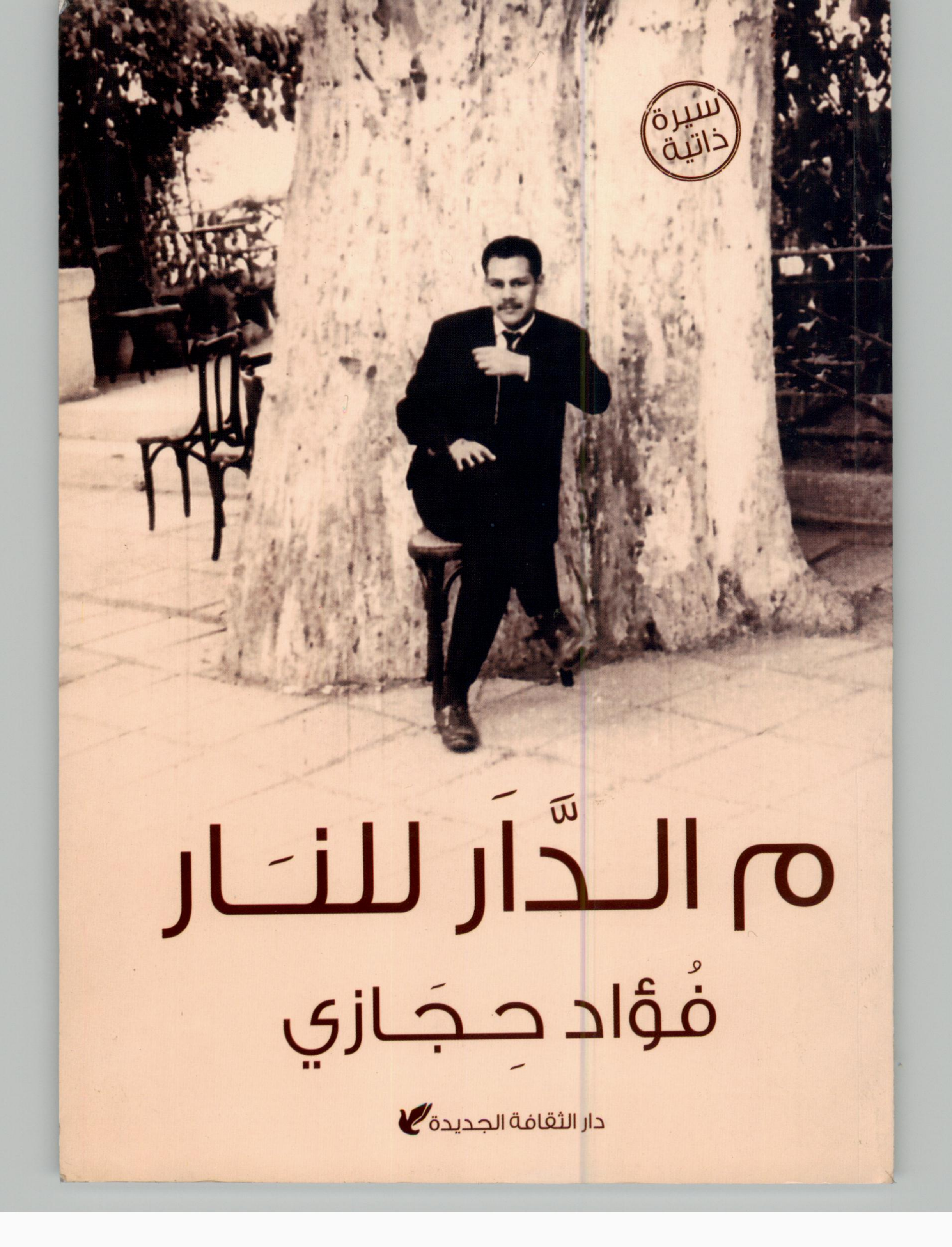
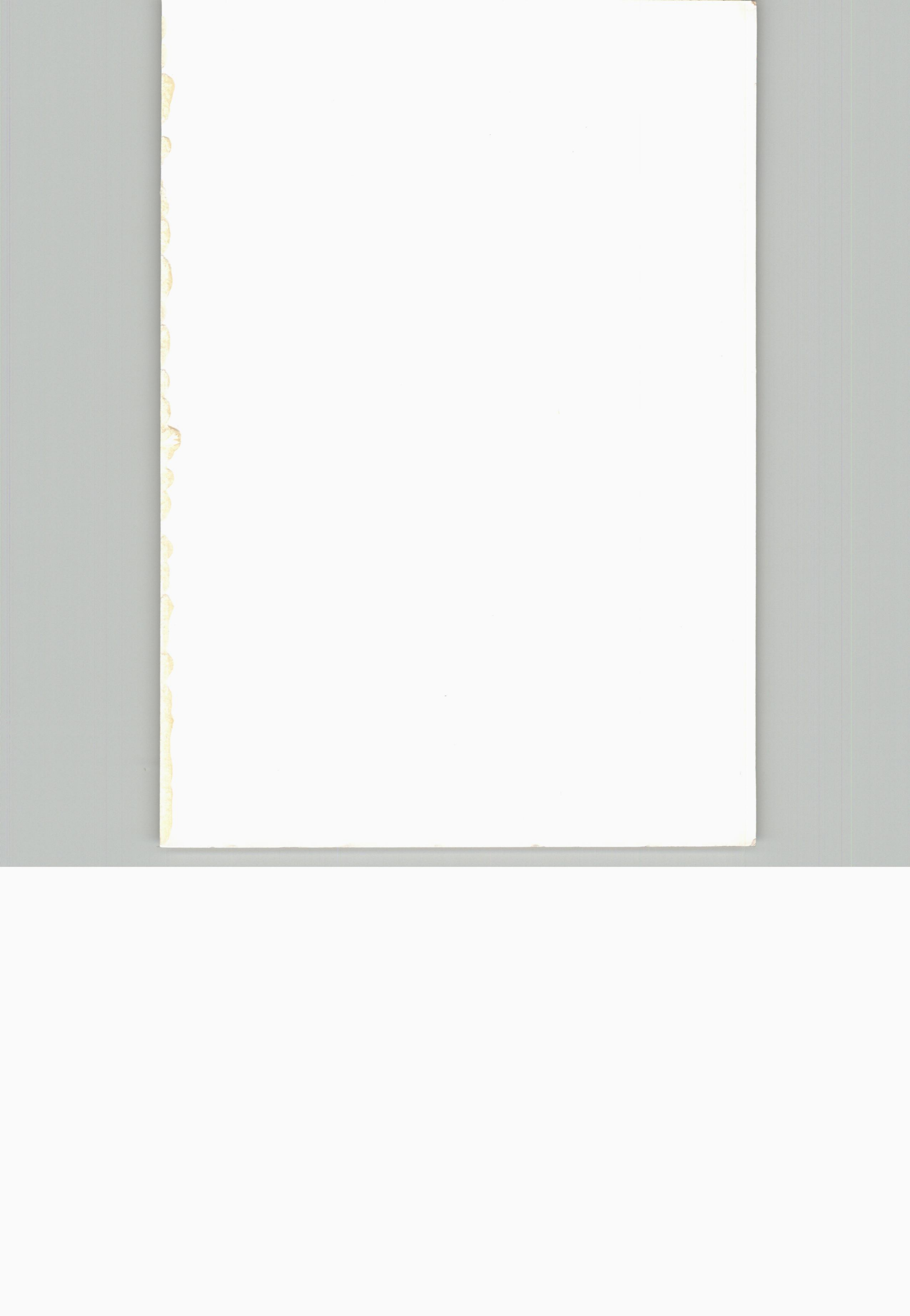
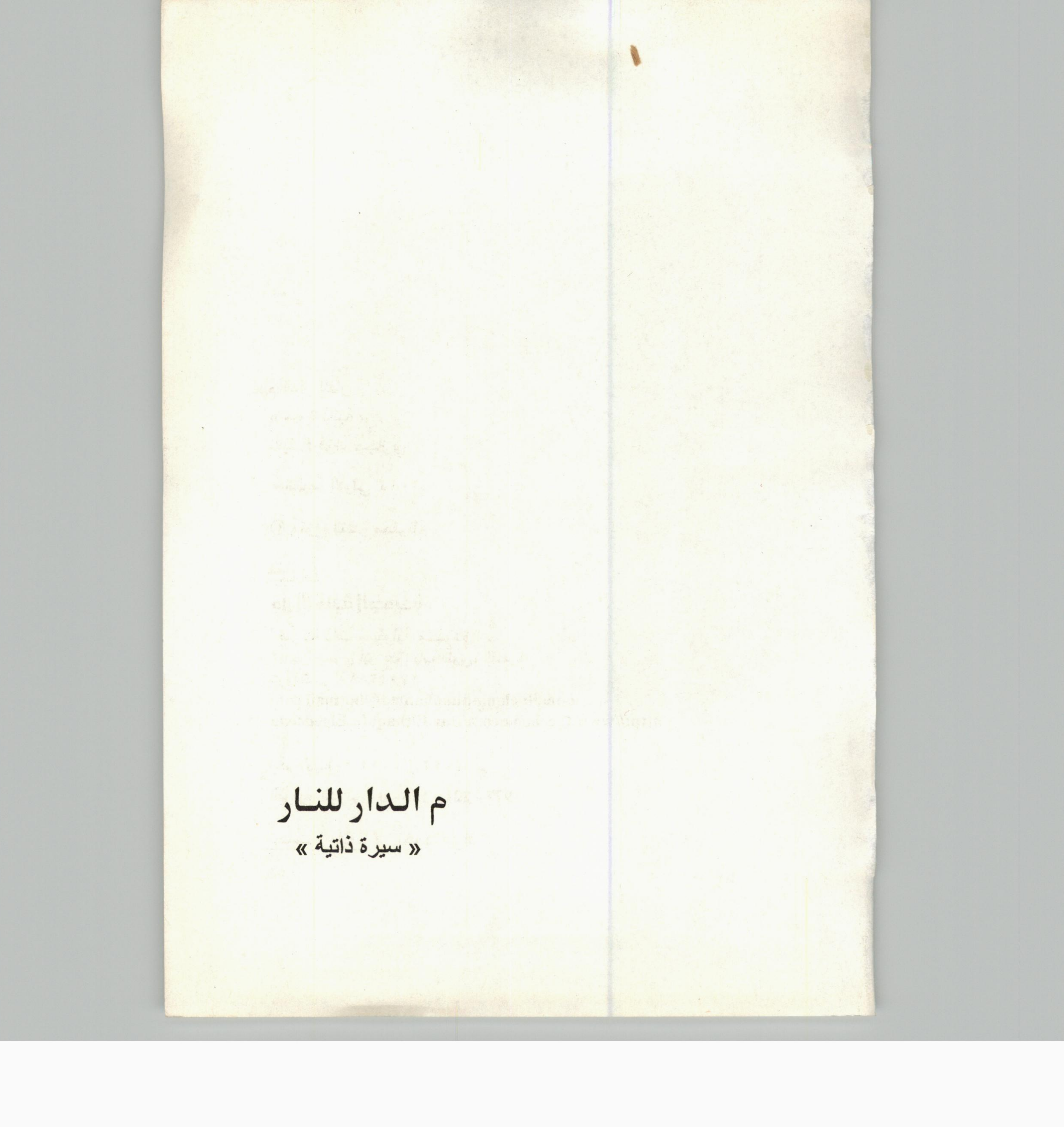


م الدَّار للنَار

فُؤاد حِجَازي

دار الثقافة الجديدة





م الدار للنار

« سيرة ذاتية »

م الدار للنار
« سيرة ذاتية »
تأليف: فؤاد حجازي

* الطبعة الأولى ٢٠١٢.

الناشر/
دار الثقافة الجديدة
" شركة ذات مسئولية محدودة "
٣٢ ش صبري أبو علم، باب اللوق، القاهرة
ت وفاكس: ٢٣٩٢٢٨٨٠
e-mail: elguindimohamed@hotmail.com
http://www.facebook.com/Dar.Elthaqafa.Elgedeeda

رقم الإيداع: ٤٠١٤ / ٢٠١٢
الترقيم الدولي: 0 - 158 - 221 - 977

تصميم الغلاف / أحمد مراد

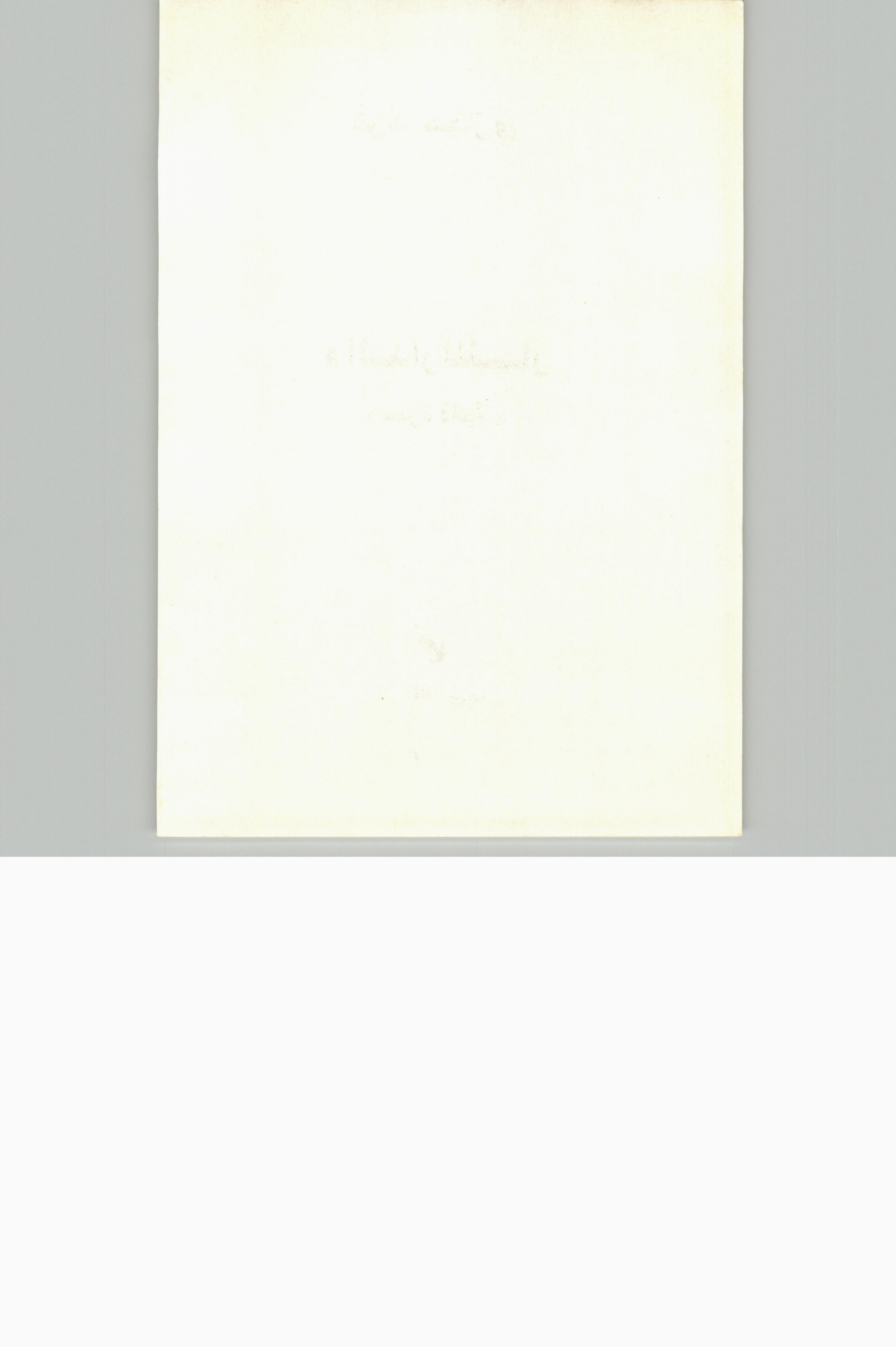
فُؤاد حِجَازي

م الدار للنار

« سيرة ذاتية »



دار الثقافة الجديدة



جيلُنـــا

نحن الجيل الذي وُلِـدَ في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضــي، أولاد الفقراء، أصحاب المهن الدنيا: فرّاش في مدرسة، عامل في محـل تجاري، أو في مطعم، أو في محل نجارة أو حدادة، بائع سرِّيح، نقّـاش، فلاح أجير، أو يمتلك عدة قراريط، بائع في سوق الخضـر والفاكهـة، موظف بالشهادة الابتدائية، مدرس في المرحلة الإلزامية. لا يكاد الابـنُ منّـا يتخطى مرحلة الصبا، وسواء كان عاملاً حرفياً، أو في مؤسسـة، أو تعلم وامتهن مهنة، أو توظف، إلاَّ وتحتم عليه مساعدة والديـه فـي تحمل نفقات المعيشة. وحين كوَّنَ كلٌ منّـا أسرته، لم ينتظر مساعدة من والديه، لم يكونا قادرين عليها.

وكان فرضاً علينا مساعدة أبنائنا وبناتنا، وقد ضربتهم الأزمة الإقتصادية.

فعلى سبيل المثال، الشقق أيام شبابنا كانت متوفرة، وإيجار شقة في عمارة حديثة لا يزيد عن أربعة جنيهات، ثلث راتب خريج الجامعة وقتها. وكانت عائلتي تسكن في شقة من ثلاث حجرات وفسحة، إيجارها ستون قرشاً شهرياً. أين هذا من أزمة في المساكن. وإن وُجدتْ شقة بنفس المواصفات السابقة، فإيجارها لن يقل عن خمسمائة جنيه، ثلاثة أضعاف راتب خريج الجامعة اليوم، فضلاً عن المقدّم والتأمين، وزيادة سنوية، لو جددت إيجارها المؤقت، الذي لا يزيد عن ثلاث سنوات. وبنص القانون، لا يوجد إيجار دائم؛ أي أن الساكن مهدد كل ثلاث سنوات أن يجد نفسه وعفشه وزوجته وأطفاله في الشارع.

وماذا عن البطالة المنتشرة، خاصة بين المتعلمين ؟ !

وماذا عن الجنيه المصري، الذي كان يشــترى جنيهــاً اســترلينياً ذهبياً، ويفيض منه قرشان؛ وقد أصبح معدنياً، لكي تتقبل نفســياً تــدني

مستواه لأقل من القرش، عندما يشخشخ في جيبك مثلـه، ولا يستطيع شراء جريدة، كما كان يفعل.

جيلٌ عاصر استلاب الجزء الأكبر من فلسطين، وعانى ليرسخ الديمقراطية وتداول السلطة أيام الملك فاروق. جيل حلم بالاشتراكية أيام جمال عبد الناصر، التي تمخضت عن سراب، وعن استحالة تداول السلطة؛ وطغى حكم الفرد الواحد، وما تبعه من اعتقال وتعذيب وموت وكبت حرية الرأي. وكانت الهزيمة المروعة في عام ١٩٦٧، ومن قبلها هزيمة عسكرية، حجبها نصرٌ سياسي في عام ١٩٥٦، والذي بالرغم منه تحول خليج العقبة من بحيرة عربية إلى بحيرة إسرائيلية، وانتعش جنوب إسرائيل اقتصادياً، وترسخ نمو إيلات المغتصبة من مصر، أيام كانت قرية باسم (أم الرشراش).

جيلٌ عاصرَ انقلاب المؤشر السياسي ١٨٠ درجة؛ من التحالف مع دول المعسكر الإشتراكي، ومناصرة حركات التحرر، إلى الخضوع لأمريكا راعية إسرائيل، أعدى أعداء الأمة العربية، إلى التصالح مع إسرائيل.

جيل انتقل من وجود الخبز وانعدام الحرية في عصر ناصر، إلى انعدام الخبز والتمتع ببصيص من الحرية في عهد السادات، إلى انعدام الخبز والحرية معاً، والتبعية المطلقة للغرب في عصر مبارك.

جيل يودع الحياة، وتكاد الصهيونية تسيطر على فلسطين كلها.

ومع إيماني الذي لا يتزعزع أن إسرائيل حقبة وستزول، كما زالت دويلات الصليبيين الاستيطانية على الأرض نفسها، بعد مئتى وثمانين عاماً من إنشائها، فإنى أشعر بالمرارة؛ فبالرغم من أن هذه الحقبة القاسية لا تعدو أن تكون ثانية في عمر الوطن فهي، ويا للأسف، عمر جيلنا كله.

سليلُ "حاحه"

طالعت عيناي، في جريدة يوميةٍ، اسم (محمد حاحه)، مؤلف أغانٍ فى عصر محمد المويلحي. وتساءلت: هل أنا سليل هذا الرجل، وورثتُ عنه موهبته الأدبية، عبر الأجيال.

فاسمي (فؤاد إبراهيم حجازي عبد الله عبد الله حاحه)؛ وطالعت مؤخراً اسم الشاعر البورسعيدي الراحل (حسن حاحا)، مكتوباً بألف مد؛ فهل ننحدرُ من جدٍ واحد، أم أن الاسم كان مشاعاً في هذا العصر، ومأخوذاً من الحكاية الشعبية التي تذكر فيها (بقرة حاحة)، بالتاء المربوطة، ولا صلة لنا بمؤلف الأغاني ؟!. وما هي الكتابة الصحيحة للاسم، بالألف أم بالتاء المربوطة أم بالهاء ؟.

على أي حال، أخبرتني أمي أنه في يوم مولدي (٨ ديسمبر ١٩٣٨)، أمطرت السماء بغزارة، وأن شوارع المنصورة كانت بحوراً، ولم يستطع أحد أن يذهب لقيدي في سجل المواليد، إلاّ في العاشر من ديسمبر.

وتقول نبوءةٌ إن من يولد والسماء تمطرُ سيموتُ في يوم مطير.

دعنا من هذه النبوءة، ولنكمل هذه الأوراق، التي بدأت في كتابتها في الثامن من ديسمبر عام ٢٠٠٨، وقد بلغتُ سبعين عاماً، وتصادفَ أنه اليوم الأول من عيد الأضحى المبارك. وسبق أن كتبتُ أوراقاً في هذا الصدد، نشرتها فى كتاب طبعته فى سلسلة أدب الجماهير فى ديسمبر ١٩٨٠ تحت عنوان (أوراق أدبية) وأصدر طبعته الثانية فرع الثقافة بالدقهلية فى ديسمبر ١٩٩٨.

ولقد وُلِدتُ في بيت خلف فرن المصري، في شارع البياع، غرب حي الحسينية بالمنصورة؛ وبعد قليل، انتقلت الأسرة إلى شقة في بيت آخر، في الشارع نفسه، قضيت فيه فترة الصبا والشباب. وظللنا نحتفظ بهذه الشقة إلى عهد قريب. ويفضي هذا الشارع إلى ميدان جامع

القاضي، حيث مرتع الصبا. ويمر بالميدان الشارع المسمى باسم الشاعر على محمود طه، والذي يقع فيه بيته.

ابن الطبّـاخ

عندما كان الأولاد يغضبون مني، يعايرونني بقولهم:

- يا ابن الطباخ

لم أسمعهم يعايرون أحداً بذكر مهنة أبيـه .. مبـيض المحـارة؛ النحّاس؛ القهوجي؛ الحدّاد؛ النجار؛ بائع الخردة؛ بائع الجيلاتي؛ وغيرها من مهن آباء أبناء الجيران. هل هناك صورة مترسبة فـي اللاشـعور الجمعي عن الطباخ، أنه من يعمل عند العائلات الثرية، وهو بذلك أقرب إلى فئة الخدم، التي لا تحظى بالاحترام بين الفئات الشـعبية، وأن هـذه الصورة انسحبت على من يعمل منهم فـي مطعـم، أو لـدي مدرسـة حكومية، مثل أبي ..

وكنت أضيق عندما ينعتني الأولاد بذلك، وأضيق أكثـر، خاصـة عندما يريد ولد إغاظتي، فيقول، كأنما عرضاً:

- كبشة ..

وكنت إذا ما سألني أحدّ عن مهنة أبي، أقول: موظف فـي وزارة المعارف (التربية والتعليم فيما بعد). ولكني لم أكن أستطيع أن أقول ذلك في أول حصة لي في مدرسة المنصورة الابتدائية الأميرية، من كل عام، عندما يطلب منا المدرس أن نقف ويذكر كل منا اسمه ومهنة أبيه؛ فهـذا يقول: ضابط، وذاك: مدرس، وآخر: مزارع؛ والمدرس يستفسر: وهـل هو فلان الذي في كذا، إذا تصادف وعرف اسمه. إلى أن يـأتي دوري، فأقول ووجهي يحمرُّ خجلاً: طباخ. فيستعيد الرجلُ الاسم، ويستفسر: ابن عم إبراهيم ؟. أجيبه بصوت خافت: نعم؛ وعيناي تهربان مـن نظـرات التلاميذ، والعرق يبللني.

وقد أدهشني ما قرأته للدكتور جلال أمين في كتابه (رحيق العمر)، الصادر عن دار الشروق في بداية عام ٢٠١٠، أن اسم أبيه هو أحمد أمين إبراهيم حسن الطباخ، وأن أباه لم يذكر لهم أصل لقب الطباخ، وهل يدل على مهنة الجد الأكبر، أم أنه لقب التصق به، كما تلتصق ألقاب كثيرة ببعض الناس، لأسباب مختلفة. ويستطرد الدكتور جلال في القول، أن الدكتور أحمد زكي تسبب في حادثة مؤسفة، لأنه ذكر اسم أبيه كاملاً في مقال يرثي فيه أباه، وأنه طلب منه حذف اللقب قبل نشر المقال في كتاب يحوي مقالات عن رثاء والده لتخليد ذكراه، حيث كان أخوه حافظ يزمع الزواج، وهو – الدكتور جلال - لا يدري لماذا ظن بعضهم، أو كلهم، أن لقب الطباخ قد يسئ إلى حافظ بأية صورة من الصور، أو يسئ ظن أسرة خطيبته بهم. حدث هذا وهو في سن العشرين، عام ١٩٥٥، في زمن قريب من الزمن الذي أحكي عنه، وهو عام ١٩٤٦، عندما التحقت بالمدرسة الابتدائية. ويعلق الدكتور جلال قائلاً: كان الأمر صبيانياً وسخيفاً للغاية.

ولقد تغير الوضع الآن، وأصبح الطباخون يتمتعون بالاحترام، فكثير منهم تخرج فى كليات السياحة والفنادق، وفى معاهد متوسطة، وذهب في بعثات تعليمية إلى فرنسا وسويسرا، ويتقاضى من عمله أجراً يفوق أجر خريجي الكليات الأخرى بكثير.

وكان أبي ريس المطبخ، "شيف" بلغة اليوم، وتحت إمرته مساعدون يعدون الطعام لـ ١٢٠٠ تلميذ. لكني ما زلت أحس بالضيق حين أقرأ، أحياناً، تعريفاً بي وفيه مهنة أبي؛ بل أحياناً أجيب، عندما يسألني أحد عن مهنة أبي، فأقول: فلاح. كان يمتلك ثلثي فدان في قرية (ميت الصارم)، على حافة المنصورة الشرقية، وهجر الفلاحة، التي كان يصفها بتعب القلب، إلى هذه المهنة. ونفس التهرب يعتريني عندما يسألني أحد عن مؤهلي الدراسي الذي حصلت عليه. أتلعثم، ولا أدري كيف أجيبه.

ذهبت مرة لأصرف مكافأة عن قصة لي نُشرت في مجلة (المحيط)، وأعطوني استمارة لأسدد بياناتها، تعطى لمن يصرف لأول مرة. وقفت أمام: آخر مؤهل حصلت عليه، وحرت: ماذا أكتب، والموظفة تتطلع إليّ تستعجلني. تخلصتُ من حيرتي وكتبت: حقوق. وبعد أن غادرتها، كدت أنفجر ضاحكاً: كيف سيفهمها من يقرأها ؟!.

والحيرة نفسها كانت تعتريني أيام الوظيفة، خاصة عندما أصطدم بمن هو أعلى مني وظيفياً. فجأة، يسألني عن مؤهلي؛ أجيبه خجلاً، وقد تفصد العرق من جبهتي، وكأني أخطأت لأني توظفت بالثانوية العامة؛ وكنت بعد أن حصلت عليها في عام ١٩٥٦/٥٥ قد التحقتُ بكلية الحقوق، جامعة القاهرة وتعطلت الدراسة في العام الدراسي ٥٦ / ٥٧ بسبب العدوانِ الثلاثي (الرباعي) على مصر واحتلال بورسعيد وكنت وقتها متطوعاً مع المقاومة فى مدينة القنطرة غرب. وفي أبريل عام ١٩٥٩ سُجنتُ؛ وعندما خرجتُ، كانت الظروف قد تغيرت. مات أبي وأنا في السجن، وشقيقتي الكبيرة (زينب) عملت مدرسة وتولت الإنفاق على البيت؛ وكان شقيقي (عادل) الذي يكبرني ويكبرها يعمل بمزارع القصب التابعة لشركة كوم أمبو بالصعيد، ولا تمكنه غربته من إرسال الكثير؛ وأنا عاطل، وأشعر بالحرج؛ وشقيقتي تتكفل بمصروفات أمي وشقيق وثلاث شقيقات أصغر مني.

وعندما فزتُ بجائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٩٢، عن أدب الطفل، أرسلوا لي استمارة لملء بياناتها، ينشرونها في كتاب عن الحاصلين على جوائز الدولة. نفس الحيرة أمام المؤهل. وأخيراً كتبت: ثانوية عامة عام ١٩٥٦. وبعد أن أرسلت الاستمارة، أخذت ألومُ نفسي، لأني لم أترك بيان المؤهل خالياً.

* *

وسبق أن كتبت قصة باسم (ابن الطباخ)، متأثراً بما عانيته من وضعي الطبقي، وقد نُشرت في مجلة (الثقافة الجديدة) في يولية ١٩٨٩،

بالقاهرة، وفوجئت بها منشورة في جريدة (مايو) الناطقة بلسان الحـزب الوطني الحاكم. ولقد ضايقني ذلك، وسبب لي حرجاً أن أنشر في جريدة كهذه؛ والأعجب، كيف وصلت القصة إلى هناك. كنـت قـد أرسـلتها لجريدة الأهرام، ورجحت أن يكون (محمد زايد)، الذي كان يشرف على الملحق الأدبي به، عندما عمل في جريدة مايو قد أخذها معه. وتتكـون القصة من عدة مقاطع: الفانلة – الشطائر – تحت الكـوبري السـفلي – السترة – مقالب – الظهير. وكتبت في البدايـة مقطعـا واحـداً، هـو (الفانلة)، ونشرتها كقصة مستقلة في مجلة (الكلمة)، بالإسـكندرية، فـي مارس ١٩٧٨، وهي مجلة (ماستر) كان يشرف عليها الدكتور السـعيد الورقي، الأستاذ بآداب الإسكندرية. وهي تدور حول استدعائي سراً فـي المدرسة الابتدائية إلى حجرة المشرف الاجتمـاعي، وإعطـائي فانلـة صوفية. وفي اليوم التالي ارتديتها فرحاً؛ وإذا بى أكتشف في الفصل عدة فانلات متشابهة؛ وكذا في طابور الخروج من المدرسة .. عدة ألوان .. أزرق وبني ورصاصي، وطرازها واحد .. فتحة الرقبة مثـل رقـم ٧، وحـز أبيض يحيط الفتحة، وكذا حول سواري المعصمين. ما إن انتهى الطابور حتى انطلقت إلى البيت، وخلعت الفانلة معلناً عدم رغبتـي فـي ارتدائها ثانية، وحاولت معي أمي مراراً، دون فائدة.

ولقد تحدثت عن الشطائر في الفصل المعنون (١٨٣٥)، وعن تحت الكوبري السفلي في فصل (موقفان لا أنساهما). ومن يود المزيد فليرجع إلى القصة، وهي منشورة في مجموعتي القصصية (كحكـة للصـبي)، الصادرة عن دار "النديم " بالقاهرة، عام ١٩٩٠.

القط النمر

كنا في الإجازة الصيفية لعام ١٩٤٧ عندما ذهبت للعب في الجنينة بمدرسة أبي ومدرستي. استهوتني الصوبة بجدرانها الزجاجية، تجمعـت عليها نقط الماء .. بعضها ينسال في خطوط رفيعة.

دفعت الباب ..

مليئة بأصص الورد، ونباتات مختلفة الأشكال والأحجام والألوان؛ والرطوبة أحسها في التنفس.

لمحتُ قطاً. لم أكد ألوح له بيدي، حتى قفز وأنشب أسنانه في فخذي. حاولتُ دفعه، دون جدوى. صرخت، فجاء الجنايني على عجل، وأخذ يضربه على رأسه بجاروف. وحضر أحد الفراشين، وحاول معه. أسرع الجنايني إلى خرطوم مياه، وفتح الحنفية على آخرها، وسلط الباشبوري على رأسه. وبعد وقت لا أدري مداه، نزل عن فخذي، وقد انتزع قطعة من لحمه، مع قماش البنطلون.

حضر أبي مسرعاً، وذهب بي إلى نقطة طبية تابعة للسكة الحديدية، تقع على بعد خطوات من المدرسة، خلف محطة قطار المنصورة، يفصل بينهما القضبان، ثم الشارع الذي تطل عليه المدرسة.

طهر الممرض النوبتجي الجرح، وطلب رأس القط لتحليله، فلا ينزع اللحم بهذه الطريقة إلا قط مسعور. تمكن الجنايني من الإمساك بالقط، بعد ما ناله من ضرب بالجاروف وبخرطوم المياه؛ وقطع رأسه، وأحضرها. حجزتني النقطة، وأرسلت الرأس للتحليل. وعندما جاءت النتيجة إيجابية لداء (الكلب)، أبلغ الممرض قسم الشرطة، فأرسلوا عسكريين للحراسة، واستمارة للسفر بالقطار، وتعليمات بالسفر في اليوم نفسه إلى مستشفى قصر العيني في القاهرة، حيث يوجد قسم لمعالجة هذا المرض. ولم تكن المستشفيات في الأقاليم في هذا الوقت مؤهلة لذلك.

في الرابعة عصراً، استقللنا القطار، ورافقنا أبي. ومن ميدان باب الحديد، استقللنا عربة حنطور، من موقف على يمين النازل من المحطة، أمام عمارة مقهي عزوز، بعد محطة المترو حالياً.

وصلنا إلى المستشفى في المساء. حاول أبي إفهامي الوضع، وأنه لا يستطيع المبيت معي، وأنا أتشبث به. أحضر زجاجة كوكاكولا من كشك أمام المستشفى، فدلقتها على الأرض. حاول تهدئتي؛ ولم يكن بدٌّ من الانصراف.

أخذني الممرض إلى فسحة جانبية، ووضع لي مرتبة على البلاط، لأقضي ليلتي، على أن يتم تسكيني في الصباح، وقيدي لتلقي العلاج. رقدت والدموع تنهمر من عيني؛ وشيئاً فشيئاً، بدأت أعي، وقد تسلل في الليل صوت نسوة على مراتب بالقرب مني، يحكين عن حياتهن، وما يفعله مع أزواجهن. توقفت الدموع، وأخذتني الحكايات.

في الصباح، سكنت في عنبر للأطفال في سن متقاربة من سني التي لم تتعد الثامنة، وذهبت للعيادة لآخذ الحقنة الأولى. أبلغني الممرض أنني سأتلقى ١٦ حقنة، وكلها في جلد البطن، من أسفل. كنت مرعوباً، وازداد رعبي بعدها عندما أخبرني الأولاد أن الإبرة أحيانا تخترق الجلد وتصل إلى المعيّ.

وأنا راجع من العيادة، لمحت طابوراً من الكبار في انتظار دورهم. ناداني شابٌ من الطابور. فرحت جداً عندما وجدته من شارعنا. كان يعمل سائقا لسيارة خاصة لدي إحدى الأسر. طلب مني أن أنتظره. وبعد الحقن أخذني إلى عنبره. كانوا يسلون أنفسهم بلعب الورق والسمر. وأحياناً كان يصطحبني إلى المقصف لشرب الشاي، واعتدت ألا أذهب إلى عنبر الأطفال إلا بعد أن يتقدم الليل، لأنام. وقد سرّى ذلك عني كثيراً، خاصة وأنا أستمع إلى حكاياتهم عن أرباب أعمالهم، وتحايلهم للحصول على رزقهم.

وأخبرني جاري أنه أحياناً لا يأتي المصاب بعضة كلب أو قط بسرعة لتلقي العلاج، فيتمكن منه داء الكلب، فتعزله المستشفى في حجرة خاصة، أشار إليها يوماً ونحن عائدان من العيادة. وأخبرني أنهم يسمعون عواء المرضى ليلاً، وأنهم يريلون مثل الكلب المسعور؛ وأن من يصل إلى هذه الحالة، يموت بعد عدة أيام.

وكنت في طريقي إلى عنبري أمر بهذه الحجرة، ولم يتصادف أن سمعت عواءً، لكن الخوف كان يعصف بي، فأهرول. وقبل أن أخلد إلى النوم، يملأني الرعب، خشية من السعار، ولا ينقذني إلا السقوط في رحمة بئر النوم العميقة.

وفي اليوم الأخير، حقنوني بحقنة كبيرة، خفت جداً عندما رأيتها في يد الممرض، واستعدت ما سمعته، أنها أحيانا تنغرز في الأحشاء.

مر الأمر بسلام، وتنفست بارتياح.

ذهبت لتوديع جاري وسؤاله عن موعد خروجه لإبلاغ أهله.

وظللت لا يغمض لي جفن تقريباً، حتى ضحى اليوم التالي.

وعندما رأيت أبي، كنت في قمة الفرح. ارتميت في حضنه ولففت يديَّ حول رقبته. وسار بي عبر البوابة إلى الشارع ...

الخوف

وأنا في الصف الثاني الابتدائي، حدث أن تكلمت مع جاري في المقعد. لمحني المدرس. أخرجني إلى مقدمة الفصل ودون إحم أو دستور إنهال عليَّ صفعاً وركلاً. أحسست بمهانة وأنا أتقي الضربات بيدىَّ وعاجز من المفاجأة ومن توالي الصفعات عن التفوه بكلمة. بعدها، انزويت، لا أرغب في الحديث مع أقراني من التلاميذ. وكلما دخلت الفصل، هربت نظراتي بعيداً عن الوجوه.

وفي الفصل الدراسي نفسه، كان يدرس لنا مادة الحساب أستاذ ضخم الجسد، رخوه، عريض الكتفين. وكنت شاطراً في الجمع والطرح والقسمة، وفي الثانوي، لم أستوعب الجبر، بالرغم من محاولاتي، وكنت أعجز دائماً في حل المسائل الهندسية.

وعندما كان مدرس الحساب يطلب من تلميذ أن يقف ليجيب على سؤال، كان يشيعه بنظرات مؤنبة، وإذا ما تردد أحدنا وتلعثم في الإجابة، يشمئنط وجهه، وتسخر نظراته. وكثيرا ما كانت الإجابة حاضرة، ألوكها في ذهني، وأخشى أن أرفع إصبعي لأجيب، خوفاً من هذه النظرات.

وكنا في الصباح، قبل الانصراف من الحوش إلى الفصول، نصطف في صفوف طويلة لتحية العلم، وللتفتيش على النظافة. وكان

يدير الطابور (عنتر أفندي) مدرس الألعاب. فارع الطول، بشرته سمراء غطيس، ذو صوت جهوري، يطلقه في الحوش باتساع ملعب كرة قــدم، فيسمع الجميع نداءه: صفـــــا ... انتبـــــــاه ..

وكان عابس الوجه دائماً. أكاد أرتعد عندما يمر أمامنا وقد مــددنا أيدينا، ليفتش على أظافرنا، وعلى أحذيتنا. ومع أنه لم يخرجنـــي يومـــاً لتلميع حذائي عند رجل يجلس عند بوابة المدرسة الحديدية، ربما بســبب معرفته بأبي، وربما لأن أمي كانت تهــتم بهنــدامي، وتــدفعني لألمــع حذائي، إلا أن هذا لم يخفف من فزعي، كلما اقترب منى.

وكانت ثمة همسات، أن الرجل يتلكك كل يوم لبعض التلاميذ، كي ينفع ماسح الأحذية. وفي مرحلة الصبــــا، اكتشفت أن الرجــل يســكن غير بعيد من شارع البياع الذي نسكن فيه. تعرفت على أولاده، ولعبــت معهم، وعرفت أنهم أسرة رقيقة الحال. وتساءلت: هل هذا ســبب عــدم تغييره البنطلون الرصاصي والجاكتة الزرقاء، طوال وعيي به. وتــردد في خاطري: لماذا كان الرجل يخيفنا ؟!.

وفي الصف الثاني الثانوي، يوازي الصف الثالث الإعــدادي الآن، حيث كانت المرحلة الثانوية خمس سنوات، بعد الابتدائية مباشرة، حدث أن سألني زميل في حصة التاريخ عن درس الأســبوع الفائــت، فقلــت (سيبك منه)، أقصد الآن حتى لا أفقد تركيــزي فـــي شـــرح المـــدرس. وسمعني المدرس، ويبدو أنه ظن أنني أقصده بــ (سيبك منه)، فأشـــار لأتقدم عند السبورة، وهات يا صفع وبالشلوت، دون سؤال أو كلام.

وكنت في مقتبل مرحلة المراهقة، وحــزّ الأمر في نفسي، وخاصة أننا كنا نحب الرجل جداً لدماثته ولطفه، وأنا كنت أحب مادته، حيث كان يقص علينا أحداث التاريخ بطريقة شيقة، ويتبسط في الحديث معنـــا. ولا تسل عن مدى خجلي من الطلبة، وخجلي من المدرس، طـــوال الفصــل الدراسي. وتصادف أن قابلت هذا المدرس عندما عملت في مجلس مدينة طلخا. كنت أشرف على اجتماعات لجـــان المجلــس المحلـــي: التعلـــيم

والصحة والتموين والشباب، وغيرها. وعندما قرأت اسم الرجل كعضو في لجنة التعليم، فكرت في أهانته بشكل ما، وألا أوليه أي احترام. وجاء الرجل ليحضر أول اجتماع. لحظت تمهلاً في مشيته، وقد ضرب المشيب شعره، وغارت عيناه الضيقتان خلف زجاج نظارته السميك. ووجدتني ألقاه باحترام شديد، وأرشده إلى مكان الاجتماع، وأشرح له عمل اللجنة. ولحظت أن الرجل لا يتذكرني، ولم أجد داعياً لأن أُذكره.

وإذا ما تركت الرجل، وعدت إلى اللجان التي ذكرتها، فقد كانت تجتمع وتنفض، وأكتب محاضر اجتماعاتها، وأطلع رئيس المجلس عليها. يشطب منها الكلمات التي لا تعجبه، ويُقَول بعضهم ما يريده، ويعدل في بعض التوصيات. وكم أفرغت من توصياتها وأرسلتها للجهات المعنية، ولم يحدث – مرة واحدة، ولو على سبيل الخطأ – أن نفُذت توصيةٌ واحدة.

ولم أتعرض للخوف في المدرسة فقط.

في البيت، كنت أبولُ على نفسي في هذه السن المبكرة، في سن السابعة، عندما التحقت بالمدرسة الابتدائية عام ١٩٤٦. كنت أستيقظ قبيل الفجر. أظلُّ في فراشي كامناً، أعاني البلل. وفي الصباح، أغطي مكاني باللحاف، ربما عدى الأمر عن أمي، وخجلا من أن يرى أخوتي هذا (البرش). وتكتشف أمي الأمر. تغضب، وتبرطم، وتهددني لو فعلتها ثانية ستلسعني بالنار؛ وتضع المرتبة في الشمس. ولم يحدث أن لسعتني، ولكنها أحياناً كانت تعايرني، مشيرة إلى البقع الصفراء على الفراش، أنها من فعلي.

ولقد دفعت ثمناً فادحاً فيما بعد وإن كنت لا أدري .. هل بسبب ذلك .. أم بسبب حساسية جسمي للبرد. طوال فصل الشتاء، يعشش البردُ في مثانتي، وتكثر مرات تبولي. وأحمل الهمَّ عند السفر؛ وأغلب سفري إلى القاهرة، حيث أقضي في الباص أو التاكسي ما يزيد عن ساعتين؛ أظل أتحامل على نفسي، وأخجل من سؤال السائق ليتوقف، وحتى لا أعطل

باقي الركاب. وفي موقف أحمد حلمي بشبرا، ومثانتي تكاد تنفجر، أسرع إلى أقرب مقهى، لأريح نفسي في مبولته. مع العلم أنني لست مريضاً بالسكر أو البروستاتا. وفي بعض أيام الصيف، خاصة في شهري يوليو وأغسطس، حيث تزداد نسبة الرطوبة في المنصورة إلى ما يقرب من خمس وتسعين في المائة، وأنا لا أطيق الغطاء أو النوم في ملابس ثقيلة، وتلطشني رطوبة ماقبل الفجر، حيث تزداد أكثر، وأظل أعاني أياماً من تعدد مرات التبول. ثم يتحول الأمر إلى الإحساس بالرغبة دائماً في التبول، وإذا طاوعت رغبتي، لا يتعدى الأمر عدة نقاط.

وهذه الرغبة تسبب لي مواقف لا أحسدُ عليها. فعند وصولي إلى مقر أية ندوة، أول شئ أفعله، أن أستطلع ببصري مكان دورة المياه؛ وإذا لم أهتد إليه، سألت عنه، وكلي خجل؛ وأتوجه إليه خوفاً من الزنقة وسط الندوة، وخشية تشتيت تركيزي.

ذات مرة، دعاني الصديق عبد التواب يوسف إلى منتدى في مركز للثقافة بالمنيل في القاهرة، حضره أساتذة علم نفس وكتّاب أدب أطفال وناشرون، لتبادل الرأي والخبرة بخصوص الكتابة والنشر للطفل. ولما كنت على وشك التكلم، نهضت أبحث عن دورة مياه؛ وحرت: أي الأبواب في الفسحة التي كنا نجلس فيها يفضي إليها ؟. وأخيراً، سألت رجلاً يقف على رأس الندوة. نظر إليَّ بدهشة شديدة، فملأني الخجل والحيرة؛ فربما كان الرجل ذا حيثية، ولا يليق أن أسأله عن أمر كهذا. وبعد أن تمنيت أن تغور بي الأرض، أشار الرجل إلى أحد الأبواب. وكان من أسباب دعوتي أن أعمل دراسة، ضمن دراسات يكلف بها المركز بعض النقاد، عن أدب الأطفال، نظير مكافأة، ويقوم بطباعتها وإتاحتها للمهتمين بهذا الأدب. وبعد الندوة، أعطتني مسئولة في المركز كماً هائلا من كتب الأطفال لكاتب ليبي. حاولت الاعتذار، فليس لديّ وقت لقراءة هذا العدد. وبعد كلمة مني وكلمة منها، وأخرى من عبد

التواب يوسف، وافقت. فطلبت مني أن أعيد الكتب للمركز بعد عمل الدراسة. اعترضتُ. أتكبَّدُ العذابَ في وسائلِ المواصلات إلى المنصورة، وتريدني أن أعيد الكرّة. أصرَّت، فخلعتُ.

أما الموقف الذي لا أنساه، يوم كنّا في مؤتمرِ الأدباء الشبان بالزقازيق، عام ١٩٦٩. قبل الجلسة الافتتاحية، ذهبتُ إلى دورة المياه، تحسباً لأية رغبة مقبلة. وأمام المِبولة، عادة، لاينظر أحد إلى جاره، أو يحدثه، حياءً. لكني فوجئتُ بجاري، دون أن ينظر إليّ، يحييني، فالتفتُ إليه في لمحة خاطفة، فإذا هو الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي. والتقيته بعدها في مبنى مجلة روزِ اليوسف. كنت أحملُ قصة لصلاح حافظ، فأحالني إلى حجازي. دهشتُ، فسبق أن أعطيته (صلاح حافظ) قصصاً، ونشرها، فلماذا يحيلني إلى غيره، خاصةً وهو رئيس التحرير. والتقيت حجازي، فإذا به يعرفني؛ وانصرفتُ دون أن أعطيه شيئاً؛ ولم ألقه بعدها، إلاّ أن معرفته لي أثارت عجبي لحدة ذاكرته.

أما أطرفُ موقف فكان عندما أُلقيّ القبضُ عليَّ، بعد الانتفاضة الشعبية في ١٨ و ١٩ يناير عام ١٩٧٧ (انتفاضة الحرامية، كما نعتها الرئيس السادات)، التي اندلعت بعد رفع أسعار الخبز وبعض السلع؛ وتحددت جلسة بمحكمة الاستئناف بباب الخلق للنظر في التظلم من أمر الحبس. ونحن متجهون إلى القاعة، لمحت مساعداً (صول) يقف في جنب من الطرقة؛ وخشية أن تطول الجلسة، طلبت من المساعد الذهاب إلى دورة المياه. نظر إليّ الرجل باستغراب شديد. وكان زميلي في القيد الصيدلي "على الشخيبي"، صاحب صيدلية ومعمل تحليل في باكوس بالإسكندرية. تطلع إلى وجهي وانفجر ضاحكاً. وبعد قليل، همس في أذني: هذا أخي، يعمل في البحرية.

* * *

وقد لا تكون الرغبة في التبول بسبب تعرضي للبلل طفلاً؛ ولكن بسبب حساسيتي للبرد. أحياناً، أحس سخونة تشع من وجهي. كنت أعزو

ذلك أثناء المرحلة الثانوية لعدم استخدامي مرحاض المدرسة لقذارته، وأظل متحاملاً على نفسي طوال اليوم الدراسي، وكان كاملاً، حتى الرابعة عصراً، إلى أن أعود إلى البيت. لكني لحظت بعدها، خاصة عند تعرضي لأي برد أثناء النوم، سخونة تشع من فخذيّ وأحياناً من ساقيّ أو من أعلى الجذع، في بعض المرات يكون ذلك مصحوبا بثقل خفيف في جبهتي، وعدم القدرة على التركيز. فحصت عند طبيب جيوبي الأنفية، فوجدتها سليمة. وحللت دمي، فكان سالباً لأي نوع من فيروسات الانفلونزا، أو غيرها. وهذه الأعراض لاترفع درجة حرارة الجسم، ولكني أصبح كمن استلبت قدرته (مُدَروخ)؛ ولحظي، فقرص أسبرين واحد يقضي عليها. ولقد واظبتُ على ذلك منذ أربعين عاما على الأقل؛ وفي حال زيادة المرض، أتناول قرصين أو ثلاثة في اليوم. ولحظتُ أن مرضي غير معد، فلم يحدث لزوجتي وابنيَّ والمختلطين بي أن شكا أحدهم مما يلم بي.

وكثيراً ما أصحو وقد حطَّ البردُ فوق إحدى كليتيّ، ينتقل منها إلى إحدى ساقيّ، أو إلى بطني، فيصيبني إسهال، أو تزداد مرات تبولي، أو يصيبني خذلان في ساقي أو ذراعي. أحتاط عدة أيام، وأستدفئ وأغلق على مضض باب الشرفة الزجاجي ليلاً. أتماثل للشفاء، وعند أية لطشة برد، تعاودني هذه الأعراض ثانية، أو بعضها. وسواء بردت أم لا، فثمة نزوع إلى شرب الماء، وإذا لم أسرع أصابتني زغطة لعينة.

أما حساسيتي للإصابة بالإنفلونزا فهي شديدة. إذا قرأت في الصباح أن الفيروس انتشر في الصين، أكون عند الظهر مصاباً بها. وبالإضافة إلى الرشح وانسداد الأنف، ترتفع درجة حرارتي، وتجعل تفكيري مضطرباً وجسدي هامداً؛ وتزداد رغبتي في تناول السكريات. وقرأت مؤخراً أن هذه سمة من يصابون بالبرد. لذلك لم أعد أخاف من السمنة لتناولي سكريات، حيث أعتقد أن الجسم إذا كان في حاجة إلى شئ وله عاقبة، فإنها لا تصيبه؛ وهذا ما حدث معي فعلاً، فما زال عودي أقرب

إلى النحافة، ولم أصب بمرض السكر. ولكن مواظبتي على الأسبرين جعلت هذه الأعراض تخف مع الزمن. كما اكتشفت فائدة أخرى للأسبرين، فبعد أن كانت بطني سائبة بسبب تعب في القولون، سببته دوسنتاريا أميبية أهمل علاجها وأنا صبي، أصبحت الآن متماسكة؛ ومع الوقت، لم أعد أدخل دورة المياه إلا مرة واحدة صباحاً. وثمة فائدة أخرى للأسبرين لاحت لي، وهي التحكم في الأمر ساعة الجماع، مما يطيل فترة الانتصاب. كما منحنى الأسبرين أيضاً هدوء أعصاب أحسد عليه. لكن ما أخشاه من مداومتي على تناول الأسبرين، الذي بدأ من أربعين عاماً، هو قرحة المعدة .. لذلك، أعطي لجسدي كل عام شهراً إجازة، وأحس خلاله بألم .. مرة في ساقي، ومرة في جنبي؛ فيبدو أن الأسبرين عشش في كل بوصة من جسدي، وأثناء استهلاك هذا المخزون في الإجازة، يشعرني الجسد بالألم لكي أعود إلى ما اعتدته؛ وقد يكون الأمر راجعاً إلى أن الأسبرين يُسَكن ألماً في هذه الأماكن، وما إن يستهلك، حتى يتصاعد الألم.

والفترة التي أستطيع فيها الاستغناء عن الأسبرين تكون عادة في مطلع الربيع، وفي الخريف، حيث تكون حرارة الجو معتدلة. وأحياناً تمر عدة سنوات لا أفلح فيها في ذلك فما أن أمتنع، حتى يعاودني ثقل في جبهتى، ويطيح دوار باتزاني. فماذا أفعل، وآلام المعدة تشتد، ولا تجدي معها مضادات الحموضة. وجاء وقت عافت فيه نفسي الأكل. كنت منغصاً من تصرفات لابني لم تعجبني، وزاد من تنغيصي الوضعُ العام، خاصة بعد معاهدة كامب ديفيد، أضف إلى ذلك ما يحس به المتقدم في السن من زهد في الأكل.

والعجيب أن الأسبرين، الذي تمنيت الامتناع عنه لأريح معدتي وكليتيَّ، هو الذي أنقذني، فلكي أتناوله، يلزم ألاَّ تكون معدتي خاوية، وإلا اشتدت الآلام، وربما أصبتُ بقرحة. فماذا أفعل وأنا الذي كنت أحسد نفسي لأن صحتي تتحسن كلما تقدمت في السن. اختفت

الدوسنتاريا الأميبية، وكذا التهاب القولون، وزالت آلام لنقرس من أصابع وكعب قدميّ، وشفيت من النغزة التي لازمتني شتاءً في مزنق كتفي، بسبب النوم على الأسفلت في السجون المختلفة. لكن شيئين خذلني جسمي فيهما مع التقدم في السن: أسناني، فقد خلعتها كلها تقريباً، ومع ذلك آكل كما كنت في السابق. أضع الطعام في فمي وألوكه كأن لي أسناناً؛ واللحم أفتته، وخضر السلاطة أقطعها بالسكين قطعاً صغيرة، ولم تكن الأسنان لتفعل أكثر من ذلك؛ فهل تنقرض الأسنان، وتستريح البشرية من آلام أمراضها. وأغلب الطعام يعد الآن بطريقة تمكن من ابتلاعه دون مضغ يذكر، والمواد الصلبة يتولى الخلاط طحنها أو عصرها. فلماذا كان فزعي في الماضي كلما خلعت سناً أو ضرساً، وخوفي ألا أستطيع تناول الطعام مستقبلاً.

وما زلت أذكر، عندما كنت في الواحات الخارجة، كان يحضر طبيبان كل بضعة أشهر إلى السجن؛ أحدهما باطني، لم نكن في حاجة إليه، فلدينا أطباؤنا من السجناء، والدواء يحضره الأهالي في الزيارات. كنا فقط نريده لتحويل من يحتاج جراحة عاجلة إلى مستشفى أسيوط؛ والآخر طبيب أسنان، يخلع فقط، فلا يملك ترف تحويلك إلى أسيوط لحشو أضراسك؛ ومستشفى الخارجة ليست مؤهلة، ولا تصرف أي دواء. وكنت أستسلم للخلع لأرحم نفسي من ألم لا يجدي معه وضع الأسبرين على الضرس المسوس، أو أية مسكنات أخرى.

واسترحت من وجع اللثة ونزفها من الكباري التي كثيرا ما ركبتها. وحالياً، يلح الأطباء في عمل طقم أسنان، فأرد أن اللثة التي لم تتحمل الكباري لن تتحمل طقماً.

أما الشئ الثاني، فهو جهاز المناعة. لم يعد يفرق بين بروتين السمك واللبن والبيض، وبين بروتين الأجسام الضارة، فيطلق مضاداته لمحاربتها، ويسبب لي آلاماً داخل الأذن وفي اللثة وصداعاً؛ وحرمني من تناول هذه الأطعمة، وكذا الأطعمة التي تحتوي على اللبن والبيض،

وما أكثرها. أضف إلى ذلك امتناعي عن كثير من الفواكه التي تسبب الحساسية، مثل الموز والخوخ والشمام والمانجو، وغيرها. أما البرتقال، وكذا الليمون، فيسببان لي التهاباً في الشرج، كأني تناولت شطة، وكذا لسعا في بطني وظهري وباطن سمانتي ساقيّ وأعلى الفخذين، يجعلني أهرش هذه المواضع باستمرار، دون جدوى، وأستحم، ولافائدة، وتلتهب من كثرة حكها. مع العلم أني لا أصاب بهذه الأعراض عند تناول أقراص فيتامين س، التى أداوم على النوع الفوار منها، حيث تخفف من أعراض البرد التي سبق أن تحدثت عنها، وتخفف أيضاً من الآثار الجانبية للأسبرين.

فإذا أضفت إلى كل ذلك امتناعي عن أي طعام فيه سمن أو مقلي بالزيت، لأنه يؤلم معدتي. ومؤخراً، ملعقتان من الأرز أو المكرونة كفيلتان بحدوث إمساك في اليوم التالي؛ وكذا إذا زدت عن نصف رغيف في العشاء. وهكذا، أضيفت النشويات إلى قائمة الممنوعات، ولا يجدي تناول أية خضروات معها في تجنب الإمساك.

فماذا تبقى لأتناوله ؟!

وكيف ما زلت عائشاً ؟!

وتصادف أن حلَّ شهر رمضان، فقررت أن أصومه، فأنا لا أريد أن آكل، أصلاً، لاعتلال مزاجي؛ ونفسي مصدودة عن القليل المتاح لي. ونظرت لي زوجتي وابناي في دهشة. وطوال النهار، لم أشعر بحاجة لتناول الأسبرين، وبعد الإفطار، دوار خفيف في الدماغ، يستدعي النوم أو الاستلقاء ما يقرب من الساعة. ويلي ذلك الخروج والسمر على المقهى مع الأصدقاء، وتدخين الشيشة، والسهر مع التليفزيون، أحياناً حتى السحور. ووجدت شهيتي تعود إليَّ عند مدفع الإفطار. ويبدو أن الجسم المستفز نهاراً، في مقاومة الجوع، أو ليلاً في إزالة لعبكة معدة خاوية فاجأها الطعام، والمحاولة اليائسة لاستعادة اتزان الدماغ المحروم من السكر نهاراً، قد غفل عن الوجع الذي يستدعي الأسبرين، إلى التحدي الذي أتى به النظام الغذائي الجديد.

وبعدها، قررت أن يكون رمضان هو إجازتي من الأسبرين. وطمعت أكثر، وعلى حسه، وقد اعتاد الجسم شيئاً جديداً، أن أمكث شهرين وأحياناً ثلاثة دون تناوله، إلى أن تفاجئني الرطوبة، أو إقبال الشتاء ويعاود الجسم سيرته الأولى، وقد أفاق من غفلته أن شهر الصوم ولى ولا تخال عليه خديعتي له بشرب كوب من الماء فى موعد تناول الأسبرين، فلا أجد مندوحة من العودة صاغراً. وقاومت مرة وحاولت العمل في نهار رمضان، ودفعت بروايتي (الرقص على طبول مصرية) إلى الكومبيوتر، وطبعتها، واكتشفت أخطاءً كثيرةً عدّت عنيّ في المراجعة، فأصدرتها في طبعة ثانية بعد أن صححتها. أما العمل بعد الإفطار، فمتعذر لدماغ نصف غائب.

ولما كنت كل عام أمنح نفسي إجازة أسبوعين أو ثلاثة، لا أقرأ فيها ولا أكتب، لأريح أعصاب العينين، وليستعيد مخي لياقته وقدرته على الاستيعاب؛ وبما أن رمضان ضائع ضائع، فلماذا لا يكون شهر راحتي ؟!.

* *

أما آخر ألاعيب البرد معي، فألم في عظمة الوجنة اليمنى، بين العين والأذن. انزعجت، ودهنتها بمرهم مخفف للألم، وآخر مضاد للروماتويد، دون فائدة. وصفت حالتي لصديقي القاص، الدكتور عبد المنعم الباز، فسألني:

- هل من تأثير على العين ؟
- لا

أشار بيده في استهانة، وأردف:

- شوية برد.

وذات يوم صحوت فإذا عيني اليسرى مغلوشة، وأرى أنصاف دوائر صغيرة، خاصة في الضوء.

قالت زوجتي:

- برد.
- في العين ؟!.
- نعم.

وامتنعت عن الذهاب إلى الطبيب حتى أمتحن قولها. وشفيت اليسرى، لكن العلة انتقلت لليمنى.

قالت زوجتى:

– أضع لك فيها قطرة.

لوُحت بيدي رافضاً، فلم أضعها منذ الطفولة.

- عليك بالدفء.

كيف، وأنا لا أستطيع دائماً إغلاق الباب الزجاجي لشرفة حجرة نومي ليلاً، في شقتي بالدور الخامس. فوقي السطح، والشمس تصب غليلها طوال النهار، والأسمنت اللعين يمتص الحرارة خوفاً وتقى، ويبخها أسفله طوال الليل، غير مجد معه البوتامين الذي سقيته إياه. واستبعدت، بسبب الحر، فكرة لبس طاقية وجذبها على عيني، أو وضع رباط عليها عند النوم. وإذا أغلقت باب الشرفة فكأني أعوم في بخار ماء .. وإذا اقتصرت على إغلاق الشيش، وهذا ما يحدث غالباً، فالرطوبة والبرد يتسللان قبيل الفجر، وأكون نائماً. فأين المفر ؟.

قلت لزوجتي:

– عندما ترينني نائماً، سهني واغلقي الزجاج

تتبئني نظراتها بتململها، فهي لا تطيق الحر، ولا تتأثر مثلي بالبرد، لكنها في أحيان قليلة تستجيب لرجائي.

* *

وفي الطفولة أيضاً، ثمة خوف آخر عصف بي ..

التقطت، ذات مرة، من حديث أمي مع جاراتها؛ حيث نصبة القهوة صباحاً في فسحة شقتنا. تضع أمى علبة من الورق المقوى، بها سبرتاية، وعلبة سكر، وأكواب زجاجية وملاعق صغيرة، وكنكة ..

يتحلقن أرضاً حولها. تصنع أمي القهوة، وتصبها؛ وبينما يرشفنها تدور أحاديثهن، في سمر وضحكات حيناً، وفي شكاية من أزواجهن وأحوالهن المعيشية حيناً آخر ... التقطتُ أن الكلاب مكشوف عنها الحجاب، وأن سبب نباحها ليلاً، وقد امتنعت أرجل المارة، رؤيتها عزرائيل في طريقه لقبض روح أحد. وكنت عندما أسمع نباحاً قريباً من بيتنا، إذا قلقت من نومي بعد منتصف الليل، أخال عزرائيل في طريقه لقبض روح أبي، فهو دائماً يشكو من المرض. أذرف دمعي وأنكمش في جلدي، حتى يسرقني النوم. ولا يهدأ بالي إلا في الصباح عندما أراه ينهض، مرحاً كعادته، يدغدغني لأغادر فراشي، حتى ألحق بالمدرسة. وإذا تكاسلت جذبني برفق من يدي.

وللحقيقة، وحتى الآن، لم أستشعر حنانا مثل الذي استشعرته من راحة يده الدافئة عندما كان يأخذ بيدي. وكثيراً ما كان يفعل ذلك عندما أذهب إليه في المدرسة. يصطحبني إلى ميدان محطة القطار، ويشترى لي زجاجة كوكاكولا مثلجة. مازلت أتذكر طعمها المنعش، خلافاً لطعم زجاجة اليوم التي تشبه (الشربات) من كثرة السكر الذي يفسد نكهة الكولا، وقد تصاعدت فقاعاتها الذهبية فور فتحها.

وما زلت، رغم مرور السنين، تهفو نفسي إلى طبق من القرع العسلي، كان يجيد صنعه، محلىً بالسكر والزبيب وجوز الهند. وكان أبي إذا لم يعجبه نوع من الحلويات صنعته أمي، نحاها جانباً في المرة التالية، وصنعه. لكني لم أره يطبخ في البيت مطلقاً.

موقفان لا أنساهما

كنت في المدرسة الابتدائية عندما قمنا برحلة إلى دمياط، وعدنا ليلاً بالقطار. وفي المحطة، انتظرنا بعض الآباء والأمهات، هذه تضع أحمر شفاه وترتدي فستاناً، وهذا حضر في عربة خاصة ليصطحب ابنه،

وهذا أخ أكبر استدعى حنطورا لتقلهما. وأمي منزوية في جنب من السلالم المؤدية إلى رصيف الشارع، تبحث عيناها عني، وقد حبكت ملاءتها السوداء حول جسدها، اتقاءً للبرد. لم أسرع بالذهاب إليها، وتلكأت حتى غادر كثيرون. وحين اقتربت منها، تألقت عيناها بلمعة فرحة، على حافة البرقع الأسود المخرم، ذات قصبة ذهبية تلمع فوق أنفها.

جذبتني برفق من ذراعي، تحتضنني، وأنا أحاول الإفلات خشية أن يراني أحد.

وفي البيت، تركتني لأنام، ولم تلح في الأسئلة. ولكن بعد عودتي من المدرسة في اليوم التالي، أخذت تسألني بلهفة عما شاهدته في الرحلة. وبعد أن شفيت فضولها، قلت إن بعض التلاميذ سألوني عنك، فقلت أنك خادمتنا. فترت، وانسابت منها نظرة، ارتدت مني إلى داخلها، وهي تتمتم: " كتر خيرك". لم أفهم .. كيف لم تسر مني، وقد تخلصتُ بذكاء من مأزق ظننتُ نفسي فيه. لكنني، وكلما نضجتُ وزاد وعيي، نال مني الألم لعمق ما سببته لها من أسى.

* *

أما الموقف الآخر، فكان عندما مررت في ضحى أحد الأيام تحتَ الكوبري السفلي، ويقع أمام مدرستنا الابتدائية، ويمر فوقه القطار. رأيتُ أبي يحيطُ به بعض التلاميذ، يسألونه عن شهاداتهم، وقد انتهى العام الدراسي الثالث لنا لتوه. أعطى أبي أحدهم شهادته، فناوله (نص فرنك)؛ والمقصود: نصف فرنك، حيث جاءت التسمية من الفرنك الفرنسي الذي كان يساوي أربعة قروش مصرية؛ وكانت عملة فضية رقيقة، في حجم سنتيمتر مربع تقريباً، سداسية الأضلاع، وبعضها مستديرة، وعلى أحد وجهيها صورة للملك فاروق؛ وشاعت عنها أغنية في الأفراح الشعبية، مطلعها:

مرَّه جنيه حب بريزه (عشرة قروش)

وحبلت منه في نص فرنك
والنبي يا جنيه أنا في عرضك
يا حبيبي يا جنيه أنا في عرضك ..

* *

ولقد حرتُ كثيرا في كتابة هذه الفقرة. مرة أخجل من ذكر (القرشين)، وأكتب بدلا منها (إكرامية)، ومرة أكتب خمسة قروش، كما كتبتِ في مقطع (تحت الكوبري السفلي) في قصة (ابن الطباخ)؛ وإن كنت لا أدري لماذا فعلت ذلك في القصة. ما أرجحه أنني اقتديت بما فعلته في روايتي (شارع الخلا)، حين أعدت طباعتها. ووجدت المبلغ الذي كان يتقاضاه بطلها لايعني شيئا بالنسبة لقيمة العملة وقت إعادة الطبع، فزدته قليلا. وبعدها قررت ألا أعدل المبالغ في قصصي، عند إعادة طباعتها، مقدراً أن القارئ سوف يترجم تلقائياً ماذا تعنيه قيمة المبالغ المذكورة، بالرغم من التضخم الذي لحق، ويلحق بها دوماً. وعدلت عن كتابة (إكرامية)، فهي عائمة، ولن تنقل للقارئ مدى إحساسي بالخزي وقتها. وبعد تردد، استقر رأبي عل ذكر الـ (نص فرنك)، وبيِنت معناه.

ه

وقفت مأخوذاً على بعد خطوات، ولمحت نظرة منكسرة في عينيّ أبي. انسحبتُ إلى الخلف حتى لا يراني، وأحسست برغبة في البكاء. سرت في الشارع بحذاء السكة الحديدية، أضرب الأرض بقدميَّ، وأشوط قطع الطوب التي تصادفني بعصبية. صعدتُ الكوبري العالي فوق خطوط السكك الحديدية، على بعد قليل من الكوبري السفلي، أنظر وقد عبرته إلى بداية السلم النازل، إلى شارع السكة الجديدة الممتد أمامه. وتمنيت أن تنزلق قدمي على السلالم فأهوى إلى أسفل، ولا أبين من بين الأرجل الصاعدة والنازلة. والسؤال يطنُ في رأسي: لماذا وزع أبى الشهادات بنفسه ؟!

كان مساعدو أبي في المطبخ يحضرون الشهادات التي خصوهم بها، أسوة بباقي الفراشين في المدرسة، في نهاية العام. كان أبى بصفته

ريس المطبخ، يوزعها عليهم، ويعطي نصيبه لمن يريد لقاء مبلغ يتفقان عليه، والآخر يوصلها للتلاميذ في بيوتهم، ويحصل على إكراميات حلاوة النجاح، وهو وشطارته.

وكلما تذكرت هذا الموقف عصرني الألم، وحضرتني الحال التي انحدرت بأبي، بعد وقف التغذية في المدارس، وإلغاء المعسكرات الصيفية في رأس البر. انسحب أبي من الحياة العامة، ولم يعد يلقى أحداً، وامتنع مساعدوه عن زيارته؛ وأصبح ينزوي في مقهى بلدي في أول شارع سيدي عبد القادر، من ناحية السكة الجديدة، يعانق سيجارته (الهوليود)، ويشرب شايه الثقيل.

وفي تلك الأيام، اشتدت عليه علته. يعاني برداً غامضاً. يشكو من صدره مرة، ومن ظهره أخرى؛ وتسارع أمي بعمل كئوس هواء. تغلق باب ونافذة الحجرة التي يرقد فيها، وتعري ظهره، وتحضر بعض الأكواب الزجاجية؛ وتلف قطعة من القطن في طرف سيخ حلزوني، تغمسها في كحول أحمر، وتشعلها. تدخلها في كوب، لتفرغه من الهواء، وبسرعة تكبسه على ظهره. ويتوالى كبس الأكواب، ثم تنزعها، محدثة فرقعة صغيرة كل مرة، تقب معها دائرة من لحمه.

وفي أحيان أخرى، يرسلني لشراء بعض من (الروم)، بزعم أنه يصلح علته؛ وبعد جرعتين أو ثلاث، تدب الحمية في جسده، لكن الحماس للخروج يعوزه. تشجعه أمي، فإذا استجاب، فإلى مقهاه، ساعة أو بعض ساعة، محملاً بوصاياها أن يمر في طريق عودته على الجزار، أو الاتصال ببعض مساعديه أو أحد أصدقائه. لا يزيد عن القول:

- أضحك على نفسي.

وتطالعني نظراته المنكسرة. ليست مثل تلك التي رأيتها تحت الكوبري السفلي، ناشعة بهوان، كاشفة عن حول خفيف في عينيه. كانت هذه مثقلة بتوهان، غير قادرة على الثبات في عينيَّ أحد.

وتصل بنا الأمور، وكنا سبعة أخوة، ثلاثة صبية وأربع بنات، إلى درجة من الضيق لا تجدي معها جمعيات أمي. كانت تؤلف عدة جمعيات في وقت واحد، من المعارف والجيران؛ فهذه بجنيه في الشهر، لمدة عشرة شهور، وأخرى بثلاثة جنيهات لمدة عام، وهكذا. وتقبض أمي أولاً؛ وتلبس طاقية جمعية لأخرى، حتى يأتي وقت يتراكم فيه الدين، ويصبح من الضروري تسديد ما قبضته من الجمعيات المتعاقبة والمتزامنة، في أوقات متقاربة.

لفك الأزمة، يتوجه أبي إلى قريته (ميت الصارم)، على حدود المنصورة الشرقية، يؤجر أرضه لعامين أو ثلاثة بمبلغ ثمانين أو تسعين جنيها، يناولها لأمي من فئة عشرة جنيهات، وكما كانت تسمى، الأوراق أم مئذنة، أو الأوراق الحمراء (الرسم عليها باللون الأحمر)، وكانت في ضعف حجم الورقة الحالية، وتزيد عنها في قوتها الشرائية مئة مرة. كانت خمسمئة جنيه تشتري فداناً من أجود الأراضي الزراعية، وكانت عشرون جنيها تدفع كمهر زواج.

لا تسل عن فرحة أمي. وعادة ما يكون ذلك في أكتوبر، وقت جمع القطن وبيعه. تسدد أمي دينها المتضخم، ونشترى بدلاً جديدة، وتدخر أمي مصروفات العام الدراسي الجديد. وحتى الآن، لا أفهم إصرار أبي على تعليمنا جميعاً، ولو دفع بنا، أو بأحدنا، لأية حرفة ما لامه أحد. وكان دائماً يقول:

- التعليم نعمة .. التعليم يقيك الإهانة.

وتظهر أعراض الكرم على أبي. أتذكره وهو يشترى البدل، ذات مرة، أن اشترى بدلة لابن خادمة مطلقة تسكن في شارعنا. وكانت هذه المرأة تقرض أمي كلما احتاجت لشئ، ويفصل أبي لابنها بدلته عند الخياط الذي نفصل عنده. وكبر هذا الابن، وزاملني في العمل بمجلس مدينة طلخا، وكثيراً ماذكرني بما فعله أبي معه. وذات يوم، مرت بي وبه ضائقة مالية، فعرض عليَّ أن أحول راتبي إلى بنك الادخار،

لأضمنه في قرض على مشروع صغير، عمله على الورق فقط، ففعلتُ على أن نقتسم القرض. وكاد القرض يتوقف لأن الأوراق خالية من قسيمة تثبت شراء مكنات تريكو. حللت المشكل في مطبعة أتعامل معها، وطبعت القسيمة المطلوبة. وانتظرته بعد صرف المبلغ .. فص ملح وذاب ... !!

ومع نهاية الإجازة الصيفية، تختفي موجة التفاؤل من صلاة أبي. كان يجهر في الركوع والسجود بقوله: الله أكبر، بصوت مبحوح منغم، فتنطلق ضحكاتنا؛ وبعد الصلاة نبدي عجبنا مما فعله. يدغدغ جنوبنا وبطوننا ويختلق الضحك.

تختفي موجة المرح، ويصلي في صمت، فتتوجس نفوسنا، وقد أمسك الهم به، وتبخرت نقود الإيجار.

وتتعلق نظراتنا بأمي، فتشرع في تأليف جمعياتها، ويلوذ أبي بصمته وسجائره؛ وإذا نطق، هوَّنَ علينا وعلى نفسه، قائلاً:

- بعد الضيق فرج.

ومرة، سألته عما يعنيه بذلك، فقال:

- بعد الضيق لا يوجد شيئ .. فلا بد أن يأتي الفرج !.

الجماعة الـ.. ...

ننقسم فريقين ..

فريق يجلس القرفصاء ويمد أذرعه فوق ركبه، وقد فتحوا راحاتهم. وفريق يختفي، وشيخنا يحاول العثور عليهم، فإذا غافلوه، حضروا وضربونا على أكفنا، فنصيح:

- ضربونا بونا .. ضربونا بونا ..

يأتي شيخنا مسرعاً ويطاردهم، فإذا أمسك أحدهم، جلسوا، وانطلق الفريق الآخر .. وهكذا ...

* *

يركع فريق ورؤوسهم لصق حائط، ويقف فريق على الرصيف المقابل. عندما يعطي شيخهم إشارة، ينطلقون عبر الشارع، ويقفزون فوق ظهور الراكعين، ويسألهم شيخهم:

- ركبتوا خيولها ؟

فيجيبون:

– ركبناها ..

ثم تحدث منازلة أو سباق بين الشيخين، إلى أن ينتصر شيخ الراكعين، ويتغير الموقف، وهكذا ...

* *

نصنع سوطاً من منديل كبير، نجدله وتكون له عقدة، ويخفي أحد أفراد فريق في يده شيئاً، ويمدون قبضاتهم أمامهم. ويتقدم واحد من الفريق المنافس، ويتفرس في عيونهم، ثم يخبط بيده ظهور القبضات، قائلاً:

- بوش (أي خالية) ..

فيفتح الولد قبضته، فإذا كانت كذلك، استمر اللعب؛ أما إذا أخطأ وكانت اليد بها الشيئ المخفي، فيصدر شيخهم حكماً بالضرب كذا مرة بالسوط على يدي المخطئ. ويحل الفريق المنتصر محلهم. وأحياناً يكون المتقدم للعب من الفراسة بحيث يخبط على إحدى القبضات قائلاً، بثقة:

- ضرب نار (أي عامرة)

ويفتح الولد قبضته فنجد فيها ما أخفي (قرش أو قطعة من الزلط، أو ما تيسر وقتها)، فيهلل فريقه، ويتداولون في توقيع الحكم، ثم نعاود لعب (بوش – ضرب نار).

* *

صَلَّخْ ..

يمد ولدٌ راحة يده من تحت إبطه، وظهره لنا. ونبدأ الضرب عليها. وبعد كل ضربة، يلتفت الولد إلينا وينطق اسم ما يراه الفاعل، حتى يوقع به .. وهو وفراسته.

وكان بعض الأولاد يغلِّسون، ويضربون بقوة. أحياناً يتحمل المضروب، ويتوعدهم عندما يقعون؛ وأحياناً يصرخ محتجاً، فكنا نشير، من باب خفي، إليه، حتى يلقى وعده.

* *

السبع بلاطات ..

مأخوذة من بلاطات مكسورة، نرصها فوق بعضها بعضاً، ونقف على مبعدة، وننشن عليها بـ (كرة شراب) صغيرة، ومن يصيبها، فهو الفائز.

* *

ودنو ..

نفس الكرة الصغيرة؛ يلتقطها أحدنا، ويمسك بذراعه اليسرى أذنه اليمنى، مكونا نصف دائرة، ويقذف الكرة عالية، وعند هبوطها، يقذفها في اتجاهنا؛ ونحن وقوف على مبعدة في مواجهته، حتى يتلقفها أحدنا، ويحل محل القاذف. وأحيانا نلعبها دون هذا القيد، فيقذف اللاعب الكرة إلى أعلى، ويقابلها بيده الأخرى، ليدفعها في اتجاهنا ..

* *

وطِّي البصلة ..

يركع أحدنا وقد سند كفيه إلى ركبتيه؛ ونقف صفاً على بعد قليل؛ ونقفز من فوق الراكع؛ ومن يقفز يركع، وينهض الآخر وينضم إلى الصف؛ وهكذا دواليك. وبعد أن يقفز الجميع، يرفع الراكع ظهره قليلاً. وفي كل دورة، يرتفع الظهر، حتى يأتي وقت يعجز أغلبنا عن القفز؛ ومن يستطيع يصبح فائزا علينا.

* *

وبالقرب منا كانت تلعب الفتيات ..

يرسمن مستطيلا بالطباشير على أسفلت الشارع، تدخله الفتيات، وتقف إحداهن على رأسه بقدم واحدة، وتصيح:

- أتانس .. (مشتقة من كلمة فرنسية تعنى احذروا)

فتجيبها الفتيات:

- وي (نعم بالفرنسية)

فتحجل إلى المستطيل، وتحاول الإمساك بإحداهن.

وكانت الفتيات يلعبن "الأولى" ..

يرسمن بالطباشير على الأسفلت عدة مستطيلات، تنتهي بمربعين متجاورين. وتضع الفتاة قطعة من البلاط (الأولى)، وتحاول تمريرها داخل المستطيلات، حتى تصل إلى المربعين، وهي تحجل على قدم واحدة؛ فإذا نجحت فهي فائزة، أما إذا خرجت (الأولى) عن الإطار المرسوم، فتحل محلها فتاة أخرى.

وإذا مللن، لعبن نط الحبل، وهن يتفوهن بكلمات على إيقاع قفزاتهن.

* *

نتحلق في بيت أحدنا، أو عند عتبة بيت في ميدان جامع القاضي، ونلعب الورق: الشايب .. شلَّح .. والغالب له طلبات، ينفذها المغلوب؛ كأن يحضر قلة من شرفة بيت قريب لنشرب؛ أو يجري حتى آخر الشارع ويعود مسرعاً؛ وأحياناً يكون الطلب معجزاً، مثل صفع شخص يكبرنا سناً، فيعجز عن تلبيته، ونظل نعايره، فيسألنا دوراً آخر، ليرد الإهانة.

* *

- نلعب أسماء .. ؟

- نلعب

يقترح أحدنا:

- أسماء بلاد

- مصرية أم أجنبية ؟

- مصرية

يوشوش أحدنا أميناً للسر باسم بلد، ونظل نردد على مسمعه أسماء البلاد، حتى يصيح الأمين فجأة:

- هي

ونغير اللعب إلى أسماء أجنبية، حتى يغلب غلابنا، فيقترح أحدنا:

- أسماء نبات ..

وبعدها أسماء حكام مصريين وأجانب، وبعدها أسماء ممثلين وممثلات، مصريين وأجانب.

ولقد أفادتني هذه اللعبة في سجن القناطر الخيرية في عام ١٩٦٠، حيث كانت الزنزانات مغلقة طوال النهار، باستثناء ربع ساعة للذهاب إلى دورة المياه، وربع ساعة لطابور الشمس. وفي فراغ الزنزانة، الذي استمر ما يقرب من عام، قبل أن أرحل إلى سجن الواحات الخارجة، لم تكن هناك أية أداة للتسلية، ولا ورقة، ولا قلم، ولا كتاب. وأخذنا نلعب أسماء. وربما ساعدت هذه اللعبة على احتفاظنا بذاكرتنا، وبقدرة أذهاننا على التفكير، وربما حمت بعضنا من الجنون، حيث لاعمل سوى الحملقة في جدران الزنزانة الصماء. وكان بعض الزملاء، فور فتح الزنزانة، يقفون في الطرقة، يهذون بكلمات غير مفهومة.

* *

وكنا نمارس هذه الألعاب في أضاحي وأمسيات العطلات الصيفية، وفي عصاري أيام الدراسة. وشيئاً فشيئاً، استولت علينا الكرة الشراب، في ميدان جامع القاضي. وكثيراً ما شكا منا أهالي البيوت المحيطة بالميدان، جراء الضجيج، وما تحدثه كرة ضالة من تحطيم زجاج نافذة أو الإطاحة بقلة من فوق سور شرفة.

يرشوننا بالماء، فنهرب إلى شارع جانبي، فيضيق علينا سكانه الخناق، وتلاحقنا الشتائم، فنهرب إلى خربة قريبة، نلعب البلي، وأحياناً الاستغماية.

وكنا يوم الجمعة نلعب مباراة مع فريق حي آخر. نرسل له دعـوة (باصة) نكتب فيها فريق اليد السوداء يدعو فريق الأسد المرعب للعـب يوم كذا .. ؛ فإذا لبى، يجتمع الأهالي مع الأولاد الصغار حول الميـدان للمشاهدة والتشجيع، ويكون عصراً مشهوداً، ونسلم فيه مـن المطـاردة. والجمعة التالية، نرد الدعوة باللعب على أرض الفريق الآخر.

وكنت أعود إلى بيتي، ملغمطاً بالتراب والعرق، وتزعق أمي فزعة من منظري، وتدفعني إلى الحمام وفي يدها غيـار نظيـف. أعصـاها وأرمي جسدي على الفراش لأستريح قليلاً. فكانت تتغاضى عن توبيخي، أما إذا وصلتها وشاية عن ذهابي إلى الجزيرة، فهي لا تكتفي بتـوبيخي، بل تجعل فضيحتى بجلاجل.

كانت جزيرة رملية، تبرز وسط النيل، بعد انحسار الفيضان، قبالة حديقة شجرة الدر. كنا نذهب إليها نلعب كرة المضرب ووطي البصـلة، ونعوم في النيل. وأحياناً كنا نذهب إلى البحر الصغير (ترعة في شـرق المنصورة، ردمت فيما بعد)، ونجري السباقات في السـباحة. وأحيانـاً أخرى كنا نذهب في العصاري عند عوامات كوبري طلخا القديم، نقفـز من فوق العوامة، ونسبح بين مربعاتها الحديدية، ونغطس ونقـب. أمـا الكبار، ومن يجيدون الغطس، فكانوا يقفزون من فوق الجمالون، وبـين كل قفزة وأخرى يتصاعد تصفيق وتهليل الأهالي المتجمعين فوق إحدى مشايتي الكوبري، الممتدتين بطوله من الجانبين، وفي الوسـط شـريط السكة الحديدية. كانت أمي تخشى عليَّ من الغرق، خاصة وقـد حـدث لآخرين. كنا نتعظ وقتها ونحزن، وأعدها ألا أعوم في النيل ثانية، ثم لا ألبث أن أعاود.

* *

وفي الأعياد والمناسبات المختلفة كنا نمارس لوناً آخر من اللعـب. كان في شلتنا ولد طويل، يحضر من قريب له جبة وقفطانـاً وعمامـة، يرتديها؛ ويستوقف أحد المارة، بينما نكمن في عطفة قريبة، مدعياً أنـه

طالب أزهري ضاعت نقوده، ويود أن يعود إلى قريته في العيد؛ فإذا استجاب له، برزنا مهللين، ويجري الولد ونحن خلفه، تلاحقنا الشتائم.

وأحيانا، كنا نطرق أحد الأبواب، فيأتينا صوت من الداخل:

- من ؟
- الجماعة الـ ... (ونضيف الكلمة البذيئة التى تعني المضاجعين)
- يا أولاد الكلب

ننطلق جرياً، وقد تعالت ضحكاتنا.

* *

في تلك الأيام، في المرحلة الابتدائية والثانوية، قلما سمعنا عن ولد شكا من مرض نفسي، ولم نسمع أبداً عن ولد أصيب باكتئاب؛ بل إنني لا أتذكر أنني سمعت كلمة اكتئاب إلا بعد أن كبرت.

وما زلت ألقى بعضاً من رفاق الصبا. قليل من برز له كرش، أو انحنت قامته. ما زالت قاماتنا مشدودة؛ وما زلنا نتبادل القفشات والنكات، خاصة البذيئة منها؛ وما زالت ضحكاتنا تجلجل في الهواء.

البحث عن الأفراح

كانت صلتنا بالفتيات لا تتعدى توصيلهن إلى مدارسهن في الصباح، ونستلمهن منها بعد الخروج، نملي الطرف من وجوههن وصدورهن وأردافهن. كانت أعمارنا ما بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة، وأحلامنا في الجنس الآخر تتطلع للتحقق.

مرة، أعجبتني فتاة بشكل خاص. كانت رفيعة، وعيناها خضراوان نضرتان؛ بياض بشرتها لبني، وشعرها قصير يحيط بوجهها في نصف دائرة من حرير أسود هفهاف. وكانت ترد على نظراتي بأخرى مفعمة بأريج ابتسامة. اقتربتُ منها، وكلمتها، فأعرضت عني. كتبتُ لها ورقة

بثثت فيها إعجابي بها، وألقيتُها في الطريق، ووقفتُ بعيداً، فلم تلتقطها. كررتُ المحاولة، إلى أن انحنت مرة وأخذتها. سعدتُ جداً. وفي اليوم التالي، توقعتُ الرد. رمقتني وانصرفت. سرتُ خلفها؛ ولم أكد أفتح فمي حتى قالت:

- أبي يشوفنا

وفي اليوم التالي:

- أخي وراءنا

وفي كل مرة، تزوغ بين زميلاتها.

ولم يكن حال زملائي أفضل مني ..

وفي العصاري كنا نذرع شارع السكة الجديدة، حيث المحال التجارية وواجهات عرض الملابس والأحذية، والعطور، والمصوغات الذهبية، والحلويات، ولعب الأطفال، منتهزين الزحام لنحتك أو نلامس امرأة أو فتاة. وكنا عندما نقابل شلة أخرى في الطريق، يسأل أحدهم: وقعتم ؟ !. أي أننا وقعنا بامضاءاتنا في أول الطريق، لنثبت قيامنا بواجبنا، وهو المسير في الشارع، جيئة وذهاباً. وننطلق ضاحكين؛ وأفراد الشلة الأخرى يلكزهم أحدهم للإسراع حتى لا يفوتهم التوقيع في الناحية الأخرى من الشارع.

ونعودُ من جولتنا إلى ميدان جامع القاضي؛ فإذا لم نلعب الكرة، جلسنا على عتبة الجامع، المغلق بابه حتى موعد صلاة المغرب. وكثيرا ما جلس في الصدارة ولد يكبرنا، يقص علينا ما يفعله مع الفتيات. نسأله عن فلانة، فيرد:

- لا يغرنكم أن أنفها في السماء. بالأمس مشيتُ معها على شارع البحر (يطلق على الشارع المحازي للنيل)، وعبرنا كوبري طلخا، وفي غيط على يمين الطريق، دخلنا.

نفغر أفواهنا، ونسأله عما حدث. يضحك في تؤدة، ويقول:

- عندما أتت شهوتها، ومثل كل الفتيات، عصرت وسطي بشـدة، حتى كادتِ تكسره ..

ننهالُ عليه بالأسئلة، فينهض بحجة أن مشواراً فاته، ويتركنا وسهام فضولنا مشرعة.

وفي المساء، كنت أذهب مع أصدقاء الصبا إلى السـينما. وكـان بالمنصورة وقتها خمس سينمات، لم يتبق منها سوى اثنتان فـي حالـة مزرية. نجلس على دكة خشبية فى (الترسو)، ونمـدد أرجلنـا علـى أخرى، إذا لم تكن الدار مزدحمة، ومعنا الفول السوداني واللب؛ وننتشي مع الرقص والغناء في الأفلام الهندية، وفي الأفلام العربية، التي لا تخلو من وصلة الرقص الشرقي. وفي بعض الأحيان كنت أستمني وأنا أشاهد الراقصة. وكم تفاعلنا مع مغامرات زورو، الفارس الملثم الذي يطـاردُ اللصوصَ من فوق حصانه، وكم شغفنا بأفلام المغامرات، خاصة أفـلام القراصنة.

وفي بعض الليالي، بعد أن نشبع من اللعب، نتصنت، لعلنا نسـمع صوتاً من مكبر صوت. فإذا سمعنا أصداء أغنية أو موسيقى، أخذنا نحدد الاتجاه. وحين نعثر على الفرح المقام في حارة أو فى شـارع، بعـد أن يغطى جانباه بمستطيلات من قماش الخيام المزركش بالمربعات والدوائر وكثير من الزخارف، بالألوان الحمراء والزرقاء والخضراء، وتتدلى من أعلى بواسطة حبال غليظة مصابيح كهربية. وإذا كان الجو شتاء، ظللت الفرح مستطيلات أخرى من قماش الخيام.

نقتربُ من المنصة، وهي عادة من عدة براميل، فوقهـا لـوح أو اثنان من الصاج، صفت في خلفيتها كراسيّ الفرقة الموسيقية. نحملق في الراقصات وقد بانت من فساتين السهرة نحورهن ومقدمة صـدورهن. وسرعان ما تصدحُ الموسيقى، ويؤدي المطربون والمطربـات أغنيـات يقلدون فيها كبار المغنين بأصوات جافاهـا الطـرب، وبعضـها فيـه حشرجة.

ونظل نترقبُ، حتى تنسحب إحدى الراقصات إلى حجرة في بيت صاحب الفرح وتعود ببدلة الرقص الشرقي، فتتابعها عيوننا وهي تتثنى وتتدلل. ونستمع إلى المطربات المصاحبات، أو المنفردات بعد وصلتها، في أصواتهن غنجٌ ونعومة؛ ونغازل بعض الفتيات من المعزومات، دون طائل، ثم ننصرف وقد اشتعلت رغباتنا أكثر.

ومن الفقرات التي كنت أحب مشاهدتها، فقرة الحاجة حميدة أم زيتون صاحبة إحدى الفرق. كانت عازفة ماهرة على العود، وكانت في جزء من فقرتها تعزف وقد وضعت العود على ظهرها ! .. وتمد يدها بالريشة من جنب رقبتها.

وهذه السيدة هي الخالة التي تعهدت الراقصة المشهورة سهير زكي وعلمتها، قبل أن تذهب إلى الإسكندرية، ثم إلى القاهرة، محققة نجوميتها.

وكنا قبل أن ننصرف، نصفي حساباتنا مع الأولاد الكبار الذين يغلسون علينا أثناء اللعب. نرصد مواقعهم، ومن خلف نصبة الفرح، نرفع الطرف قرب الولد المقصود من أسفل، ونقرصه في سمانة ساقه، أو نشكه بمسمار في قدمه، ونهرب.

١٨٣٥

كلما سرتُ أمام مدرسة المنصورة الابتدائية الأميرية، التي تعلمتُ فيها، ألتفت لا إرادياً إلى لافتة رخامية على جدار المدرسة، منقوش عليها: أنشئت عام ١٨٣٥. ويمتد بصري خلال البوابة الحديدية، فألمحُ مباني المدرسة المكونة من ثلاثة أضلاع، تحتضن فناءً كبيراً، كان ملعباً لكرة القدم، ولا يزال. وكان يصطف فيه طابور الصباح قبل التوجه إلى الفصول. والضلعان، الأيمن، والمواجه، يتكون كل منهما من طابقين، يحويان أكثر من خمسين فصلاً. والضلع الثالث أسفله قاعة طعام كبيرة،

تتسع لأكثر من ألف تلميذ، تعداد المدرسة وقتها. وفوق المطعم قاعة كبيرة، يتصدرها مسرح، كثيرا ما جالت فوقه فرقة التمثيل بالمدرسة، وفى هذه القاعة كانت تنعقد جمعية الخطابة، وجمعية التصوير الفوتوغرافي، وجمعية الرسم. وفى جوار هذا الضلع ملعبٌ لكرة السلة، خلفه حجرة الموسيقى، بها معزف كبير وآلات موسيقية مختلفة.

وفي مقدمة المدرسة، يسار البوابة، حديقة كثيراً ما قضينا فيها حصص الزراعة، وكانت تجتمع فيها الجمعية الزراعية، حيث كانت تصنع المربات والمخللات. وإلى يسار الحديقة مبنى الإدارة، وتحف بالبوابة، يساراً، حجرة البواب، ويبيت فيها المناوب. وعن يمين البوابة دورة مياه كبيرة بها ما لا يقل عن ثلاثين حنفية، وعشرين مرحاضاً، تلتف حول فناء كبير مبلط، على حافته مصلى، بعده مطبخ كبير به قزانات ضخمة، وعدة مواقد. وفي هذا المطبخ كان يعمل أبي.

وكنت عندما أرى مباني هذه المدرسة، بالطوب الأحمر دون طلاء، وهي هكذا منذ إنشائها، لم يحدث فيها شرخ، ولم تسقط منها طوبة أو يميل جدار. وأتذكر مباني المدارس الحديثة، المطلية بالآجر، والمقامة بالخرسانة المسلحة، على عكس الأولى، وما نسمع عنه من حدوث شروخ، وانهيار بعض تلك المباني، يملأني العجب .. كيف تصمد هذه المدرسة ما يقارب قرنين من الزمان، ولا يدرى أحد كم من السنوات ستصمد مستقبلاً، من غير ترميم أو إصلاح؛ بينما المدارس التي أقمناها حديثاً تتساقط جدرانها، وينهارُ بعضُها، بعد سنوات قليلة.

هل نحن نتقدم أم نتأخر ؟

كنت ماراً في شارع العباسي، مصادفة، وكانوا يهدمون عمارة قديمة، ووصلوا إلى أساسها. كان من طوب أحمر محروق، مال لونه إلى السواد، وبه فقاعات متجمدة، كأنها معدنية. ونزح العمال المياه الجوفية، وضربوا الأساس بمطرقة حديدية ضخمة، واستخدموا (أجنة) حديدية، دون أن ينالوا منه. حفروا حول الكتل، وتعاونوا في حملها إلى

الشارع. والناس مثلي في عجب؛ كيف لم تفلح السنون والمياه الجوفية في تفتيت الطوب الأحمر ؟!

ومنذ سنوات قليلة، مررت بالمدرسة الابتدائية فرأيت مبنى من خمسة أدوار، وملعباً لكرة السلة مكان الحديقة، وقد سبقت إلى ذلك مدرسة الزراعة المتوسطة بشارع الجلاء، فأزيلت حديقتها، وبنوا مكانها، وفي أرض زراعية لتعليم التلاميذ، (ملحقة بها)، مبنى لمديرية التعليم بالدقهلية، ومبنى لهيئة الأبنية التعليمية، وأصبحت مدرسة الزراعة دون زراعة.

وأفهم أن يزال المطبخ من المدرسة الابتدائية، لانتفاء ضرورته، ولكني لا أفهم لماذا أزيلت الحنفيات والمراحيض ؟!

ويطلقون على هذه المدرسة الآن مدرسة التعليم الأساسي، وتشمل داراً للحضانة وفصولاً للتعليم الابتدائي والإعدادي، ويعتبرونها مدرسة نموذجية.

وعندما أسمع ما يلاكُ عن إصلاح التعليم، أغرق في الضحك. كيف نصلح التعليم ولا توجد مدرسة أصلاً ينطبق عليها مفهوم المدرسة، بل لا توجد بها دورة مياه صالحة للاستخدام.

زوجتى كانت مدرسة بمدرسة ميت حدر الابتدائية، فإذا أرادت أن تذهب إلى دورة المياه، فعليها أن تستقل تاكسياً إلى البيت، ثم تعود ثانية، وأحياناً تذهب مع بعض زميلاتها عند زميلة تسكن قريباً من المدرسة.

أما الوضع بالنسبة للأطفال فأصعب ؛ فإذا ضغطت المثانة، وتعين عليهم إفراغها، فعلوا في مكان قذر، ولا يستطيعون غسل أيديهم، فالحنفيات دائماً تالفة، ومربوطة بقطع من القماش، فإذا جرؤ أحدهم ونزعها، انفجر شلال من الماء تعذر إيقافه، وربما تعرض الطفل للعقاب؛ ويظل طوال يومه الدراسي شاعراً بالقذارة، يخشى أن يلمس شيئاً، أو يتناول شيئاً من المقصف.

فكيف يتم التعليم والمعلم والمتعلم مزنوقان، ويحسان بالقذارة؟!

ولست أدرى من العبقري الذي اقترح أيام حكم عبد الناصر إقامة مدرستين في مبنى واحد، لحل أزمة بناء مدارس كافية لاستيعاب الأعداد المتزايدة من المتعلمين. ألغوا الفسحة، وتوالت الحصص دون توقف، من السابعة صباحاً حتى الثانية عشرة ظهراً. ثم يرحل الطقم كله، المدرسون والإداريون، ليحل مكانه طقم جديد، باسم مدرسة أخرى، لتتوالى الحصص حتى السادسة مساء.

وهذا النظام لا يتيح فرصة للمدرس للتيقن من استيعاب التلاميذ للدروس، ولا يتيح وقتاً لأية أنشطة، مع أنها حببتنا في المدرسة، وكنت أحضر حصتين للموسيقى (من الجدول الأساسى) في الأسبوع. وفي هذه الحصص التي حضرتها، من سن السابعة حتى الحادية عشرة، من عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٥٠، تعلمت كتابة السلم الموسيقي، وكتابة النوتة الموسيقية، وشرح لنا الأستاذ المبادئ الأولية لتلحين الأغاني، وشجعنا على تأليف الأناشيد، ورددنا خلفه كثيراً منها، وكان بعض التلاميذ يتخصصون في العزف على الآلة الموسيقية التي يحبونها، ويصقلون مهاراتهم في جمعية الموسيقى بعد الظهر.

وكان المدرسون جميعاً من حملة المؤهلات الجامعية، عدا مدرس الألعاب، فلم تكن الكليات والمعاهد الرياضية قد أنشئت بعد. وما زلت أتذكر بالخير مدرس اللغة الإنجليزية الذي حببني في هذه اللغة، حيث كنا ندرسها في الثانية الابتدائية، وظللت أواظب على تعلمها حتى الآن. كلما طالعت لفظاً جديداً حفظته، وإذا شاهدت فيلماً ناطقاً بالإنجليزية أصغيتُ باهتمام، ألتقط تعبيراً جديداً، أو أستعيد كلمة أسقطتها الذاكرة.

وأحد مدرسي هذه المدرسة أكمل دراساته العليا، وأصبح عميداً لكلية آداب جامعة القاهرة، أرسلني له أبي في محاولة للالتحاق بكليته التي كنت أريدها، بعد أن ألقاني مكتب التنسيق في بداية عهده في كلية الحقوق. لكنه كان غائباً وقت ذهابي إليه، فشاءت لي الظروف طريقاً آخر.

وكنا نقضي في هذه المدرسة يوماً كاملاً، من السابعة صباحاً حتى الثالثة بعد الظهر، تتخلله فسحتان، إحداهما في العاشرة، لمدة عشر دقائق، والأخرى ساعة، في الواحدة ظهراً، نتناول فيها الغداء بمطعم المدرسة. وجبة من خضر وأرز ولحم وفاكهة، لمدة أربعة أيام في الأسبوع؛ وفي يومي الإثنين والخميس، حيث الدراسة نصف يوم، تغذية جافة؛ يعطون كل تلميذ رغيف فينو كبيراً، وقطعة من الجبن وأخرى من الحلاوة الطحينية أو من المربى، وبيضتين مسلوقتين. وجاءت سلطة ٢٣ يوليو عام ٥٢ فاقتصرت على التغذية الجافة طوال الأسبوع.

كانت وجبة الخضر باللحم مهمة جداً، لأن أغلب تلاميذ المدرسة من القرى المحيطة بالمنصورة، ومن أحيائها الشعبية، وكانت هذه الوجبة تسند أبناء القرى حتى العودة بعد الظهر، وأغلبهم من أبناء فقراء الفلاحين؛ كما كانت هذه الوجبة تساعد الجميع على الاستيعاب، وتنمي معدل الذكاء.

وكما اختفت التغذية، اختفى النشاط المدرسي، واستبدلت جمعيات الخطابة والتمثيل والتصوير والرحلات والزراعة وغيرها، بحصة هوايات في الأسبوع، ولم تلبث أن توقفت، فنظام المدرستين في المبنى نفسه لا يوفر الوقت لذلك، ومعه ربما كانت بداية ظاهرة الدروس الخصوصية؛ فمن البديهي، إذا لم نكن نتعلم في المدرسة، أن نتعلم في مكان آخر. وساعد على انتشار هذه الظاهرة إنشاء مكتب التنسيق للالتحاق بالجامعات، طبقاً لمجموع الدرجات. ولم يعد همّ الطالب استيعاب وفهم ما يتعلمه، ولكن حشو رأسه، واستظهاره على الورق، ولا بأس من نسيانه بعد ذلك. مع العلم أن كثيراً من علمائنا المتفوقين في مصر والخارج من الحاصلين على مجاميع تتراوح بين ٥٠% و ٦٠% فقط، قبل إنشاء مكتب التنسيق.

وقبل ذلك، كانت هذه الظاهرة (الدروس الخصوصية) نادرة الحدوث، ومن يقترفها لا يجهر بذلك خجلاً من زملائه، سواء كان تلميذاً أو مدرساً. وكان المدرس يطلب ممن لم يفهم درسه أن يوافيه في حجرة

المدرسين، بعد انتهاء اليوم الدراسي، ليعيد له شرح ما استغلق عليه. وفي آخر العام، تقام مجموعات للتقوية، دون أجر، وأحياناً بأجر رمزي لا يتعدى خمسين قرشاً أسبوعياً.

ومع المبنى الذي استخدم لمدرستين تآكلت الأفنية، لبناء فصول جديدة، واختفت الرياضة. واختفى فريق المشجعين لكل لعبة، حيث كنا نذهب وراء فريقنا لكرة القدم أو السلة إلى المدرسة اليونانية بحي توريل، أو إلى مدرسة الأروام بعدها بقليل، نشجع فريقنا، وينغرس الانتماء في نفوسنا دون أن نعي، كما تعلمنا كيفية التعامل مع آخر مختلف عنا، حيث كانت جالية كبيرة في المنصورة من اليونانيين.

ومع الوقت، أصبحت المدرسة، كما وصفها لي صديق يعمل بالتعليم الثانوي، مجرد وسيلة لتأجيل التجنيد، لا أكثر ولا أقل.

* *

وإذا كان وقف التغذية المطبوخة قد أضرَّ بالتلاميذ الفقراء، وهم الأغلبية، فقد أضرَّ بأبي كثيراً. كان بصفته ريساً للمطبخ يتسلم اللحم والخضر والفاكهة، ومسئولاً عن جودتها، وبالطبع ينوبه من الحب جانب، ناهيك عما أحدثته البطالة من أثر نفسي. وألغيت المعسكرات الصيفية في رأس البر لتلاميذ المنطقة التعليمية بالدقهلية، وهي بأجر رمزي، جنيه أسبوعياً للتلميذ، شاملاً الإقامة والغذاء. وكانت هذه المعسكرات تزيد دخل أبي، ليس بما يتقاضاه عن عمله بها فقط، بل لأنها أتاحت له التعرف على كثير من مدرسي المنطقة التعليمية وإدارييها، فكانوا يدعونه لإقامة الولائم في المناسبات المختلفة.

وكثيراً ما رغبني أبي في قضاء فصل الصيف معه. كان خجلي يمنعني، وأخشى أن أسمع من يقول: ابن الأسطى إبراهيم يصيف مجاناً. فلم أكن لأدفع الاشتراك، فضلاً عما أتوقعه من اهتمام مساعديه بي. وما زلت أتذكر الفراشين وهم يوزعون التعيين الجاف في الفصول، يومي الإثنين والخميس، يتحفونني برغيف الفينو الكبير، تكاد الحلاوة أو

المربى تساقط منه، وينتقون لي بيضتين كبيـرتين، وأنـا فـي نصـف هدومي، أتحاشى نظرات زملائي. وكثيراً ما طلبت من أبي ألا يعـاملني الفراشون هكذا، فلم يكن يزيد عن أن تنفجر ضحكته، ويدغدغني وهـو يردف: ولد حرفوش.

توقف كل هذا، متواكباً مع ارتفاع الأسعار، الذي ظل يتصاعد حتى التهم ما حصل عليه أبي من إنصاف، قبل عام ١٩٥٢. كان أبي وأمثاله من العمال في المصالح الحكومية لا يعينـون علـى درجـات، أسـوة بالموظفين. كانوا يتقاضون ما يسمى بمكافأة شاملة. وعندما يحالون إلى المعاش، لا يتقاضون معاشاً شهرياً، بل مكافأة نهاية الخدمـة، حـوالي خمسين أو ستين جنيها. وجاء الزعيم مصطفى النحـاس باشـا، وعـين العمال على درجات كادر عمالي، ورتب لهم معاشاً عند نهاية الخدمـة. لاتسل عن فرحة أبي وقد تضاعف مرتبه فى الكادر الجديد، من ثلاثـة جنيهات إلى ستة جنيهات شهرياً.

وظلت الأسعار ترتفع، ولم تنخفض أبداً؛ وفيما بعد ظـل الـرئيس عبد الناصر يردد أنه سيعود بالأسعار إلى مستواها فى عام ١٩٦٢، ومع ذلك استمرت في الارتفاع، ولم يستطع خليفتاه إيقافها. وما زلت أتـذكر عندما خفض مصطفى النحاس ثمن رغيف الخبز من ستة مليمات إلـى خمسة. يومها، مســت الشوارع رجفة، والناس تسير فرحة مستبشرة، ويتحدثون عما يستطيعون توفيره. كان المليم قوة شرائية. الحساب فـي البنك والمعاملات الرسمية بالجنيه والمليم. البيضة بستة مليمات. الجريدة بعشرة مليمات. رطل اللحم بإثني عشر قرشاً وخمسة مليمات. الخضـر في السوق بمليمات. تذاكر السينما (ترسو) باثنين وعشرين مليماً.

تثبيت اللحظة

مِن خلف الأسلاك الشائكة، أحسست بعينين مصوبتين نحوي. نظرت، فإذا أبي وبرفقته شقيقتي الكبرى زينب.

وفيما بعد سوف أنكر أن عينيَّ تلاقتا بعينيه، وسوف تواجهني ابتسامة أختي المكذبة. كان لا بد أن ينتهي التدريب اليومي

ولا بد من عودتي إلى شارعنا، حيث ستكال لي الصفعات والركلات، مشفوعة بـ ابن الكلب، الذي لن ينفع أبداً في دراسته.

وسوف يعِزُّ عليَّ المشيُ في الشارع، والخجل يملأ جوانحي، وقد تهيأ لي أن كل الناس رأتني.

وسوف أتجاهل زمناً النظر في وجه أبي الذي أحبه، ويحز في نفسي أن يهينني على مرأى من الجميع، هو الذي لم يكن أحد في الشارع يسمع صوته أو يحس بهِ.

وبالرغم من ذلك، واصلتُ الذهاب إلى معسكر التدريب على الأعمال الفدائية بطلخا، حتى حصلت على شهادة بذلك.

كانت حكومة نظام ٢٣ يوليو قد أقامت في مطلع عام ١٩٥٣ معسكرات لتدريب الفدائيين؛ وكنت في السنة الأولى الثانوية (الثالثة الإعدادية الآن) عندما واظبتُ على التدريب. تدربنا على حرب العصابات وحرب البيوت والشوارع ونسف السكك الحديدية واجتياز الموانع وإلقاء القنابل اليدوية واستخدام الأسلحة النارية.

ولست أتذكر بالضبط لماذا أقيمت هذه المعسكرات. هل لأن الموقف مع القوات البريطانية في خط القناة كان ينذر بالانفجار؟، أم للتوتر الذي لا يهدأ على حدودنا الشرقية مع العدو الإسرائيلي ؟، أم لإنشاء حرس وطني لتدعيم النظام الجديد، وقد أقيم بعد ذلك بقليل ولم أنضم إليه.

وأثناء التدريب في معسكر طلخا، زارنا جمال عبد الناصر. لم يكن قد أصبح المهيب الذي وخط الشيب فوديه. كان مجرد شخص أسمر

نحيل، يتكلم بهدوء. وجمعتني به صورة وأنا أقف قريباً منه بالبندقية معلقة فى كتفى، وهو يخطب في المتدربين.

وأخبرني زملائي من التلاميذ أن المصور (شكري عويس) علق هذه الصورة، مع صور أخرى، في واجهة العرض الزجاجية في مقدمة محله في أول شارع السكة الجديدة، عند تلاقيه بشارع العباسي. والغريب أنني لم أقتن شيئاً من هذه الصور، مع أني كنت أقتني دوماً أية صور لي في المناسبات المختلفة، وواظبت على اقتناء صورة فصلي التي يلتقطها هذا المصور في نهاية كل عام. وما زلت أحتفظ بهذه الصور، وأعرف الأولاد وقد كبروا .. هذا محمود العراقي، الممثل المعروف؛ وهذا مدير بنك الإسكندرية في المنصورة؛ وهذا رئيس مدينة في غرب الإسكندرية؛ وهذا طبيب كبير في مستشفى القوات المسلحة بالمعادي؛ وهذا بائع سجائر على رصيف شارع السكة الجديدة؛ وهذا محصل في قطار ...

ولست أدري، لماذا اختفى هذا التقليد. ففي المدرسة الثانوية لم يقم أحد بتصويرنا في نهاية العام. وكان (شكري عويس) بمثابة مصور رسمي، مع أنه لم يكن معيناً من قبل أحد؛ وكان يصور المناسبات المختلفة .. زيارة رئيس الوزراء .. زيارة وزير .. افتتاح مشروع .. ويعلق الصور في واجهة محله.

مررت يوماً، مؤخراً، بمحله، وكانت لافتة معلقة باسمه زمناً، ودون وجود فعلي لمحل التصوير. ولاحظت بعدها اختفاء اللافتة، وما من أثر يدل عليه ولا على كيفية الحصول على صوره التاريخية.

العون

انحدر الحال بأبي. كنتُ في الصف الثالث الثانوي، للعام الثاني، حيث أعدت السنة، وهي المرة الأولى والأخيرة التي جرى لي فيها ذلك؛ وأخوتي السبعة كلهم في المدارس، ثلاثة صبية، وأربع بنات؛ تكبرني

زينب، ويكبرها عادل، ويصغرني فاروق، تليه فوزية، ثم كوثر، فروكسان. هل أول العام، ونحن في حاجة إلى ملابس وكتب، وعقد تأجير أبي الثلاثي السنوات لأرضه لم ينقض بعد؛ وأمي استنفدت نقود جمعيتها الأخيرة في شهر رمضان، الذي انصرم منذ أيام، في ياميش وكحك العيد؛ ونحن في حاجة إلى مصروفات ورسوم النشاط، وكانتا مئة وخمسين قرشا لكل منا؛ ولن نذهب إلى مدارسنا دون مصروف يومي في جيوبنا؛ كما لابد من تلبية طلبات المدرسين اليومية، من الأدوات الدراسية والكراسات والكتب الخارجية؛ والبنات في حاجة إلى ملابس جديدة، حيث فرضت الوزارة زياً موحدا عليهن، من بلوزة وجيبة رصاصيتين.

وكنت وقتها في مدرسة الملك الكامل الثانوية، وصادقت أشخاصاً من الأخوان المسلمين، دعوني لأحضر درس الثلاثاء، في شعبة لهم بشارع السكة القديمة. وتعرفت على بعض الأخوة هناك؛ ودعوني لحضور دروس في القرآن الكريم بجامع القهوجي في سوق الحدادين. وفي وقت بين المغرب والعشاء، حيث لا يكاد يؤمه أحد بعد انصراف أصحاب محال الحدادة وعمالهم عند الغروب؛ ألقى علينا شاب من كلية الطب بعض الدروس في الدين. وعندما واظبت على الحضور، أعطوني بعض كتيبات عن واجبات المسلم، وأحكام الدين. قرأتها فأعطوني المزيد. كنت أحس بها ثقيلة على نفسي، فانصرفت عنها، وانقطعت عن الدرس.

وفي أحد هذه الدروس، أعطاني المدرس ورقة مدونة بها أسماء بعض الشيوعيين، وطلب منا، وكنا مجموعة من خمسة أشخاص، أن نتحرى عن أسمائهم الثلاثية وعناوين بيوتهم؛ وكان بينهم اثنان من الحي الذي أقيم فيه؛ رفعت السعيد(رئيس حزب التجمع حالياً)، والثاني وقد أصبح زوج شقيقتي الكبرى فيما بعد. وتم عمل كشف بالأسماء والعناوين، وأرسل بالبريد، دون توقيع، إلى مكتب المباحث العامة بالمنصورة.

وفي هذه الفترة، وقد لمست من كلام الأخوة تراحماً، فشرحت لمدرسي في المسجد حاجة أسرتي للمساعدة. حدد لي اسم أحد الأخوة، ووصف لي عنوان بيته. ذهبت إليه، وطرقت الباب؛ وأخبرني صوت أنثوي من خلفه، دون أن يُفتح، أنه غير موجود، وعليَّ أن أعود غداً؛ وخمّنت من نبرات الصوت أنها في سن مقاربة لي.

وذهبت في اليوم التالي. وجاءني الكلام من خلف الباب أنه سيكون في شعبة السكة القديمة، وحددت لي موعداً. ذهبت إليه في الموعد، ولقيني الرجل بمودة. شرحت له وضع أسرتي. أبدى تفهماً، وذكر لي اسم أخ آخر، ووصف لي عنوانه. ذهبت إليه، وتكرر الكلام من خلف الباب عدة مرات، حتى التقيته، وأعدت شرح الحال. وعدني الرجل خيراً بإذن الله، وضرب لي موعداً بعد أسبوع في شعبة السكة القديمة.

وذهبت إليه في الموعد.

وبعد تبادل الحديث وإخباره عن اسم أبي وصناعته، أعطاني جنيهين. دهشت جداً، ووقعت في حيرة؛ هل آخذهما، أم أرفضهما ؟. وخجلت من الرفض، فأخذتهما وانصرفت، دون كلمة، وأنا أكاد أبكي.

علامِ كان كل هذا الهوان والشرح وكشف الحجاب ؟.

عدت إلى البيت وأعطيتهما لأبي، فنظر إليَّ في استغراب. أخبرته بما فعلته. طالعتني نظرة مشفقة، ومقدرة، قبل أن تتوه في صمت ساهم. انصرفت من أمامه، وقد نشع حزنه في نفسي، وساحت دموعي.

الحاج محمد البحراوي

اصطحبني مؤجرُ دراجات، محله في جوارِ بيتنا في شارع البياع، إلى نادي البحراوي الرياضي، بحي الحوار. كنت على أعتاب المراهقة في بداية الخمسينيات من القرن الماضي، وكان جارنا مصارعاً. تمرنت معه في لعب المصارعة الرومانية. ولأني كنت نحيفاً وصغيراً، فلم أشارك في بطولات. وكنت مع أقراني، قبل لقاءات المصارعة الرسمية،

مثل بطولة الدقهلية، وبطولة منطقة وجه بحري، وغيرهما، نلعبُ مصارعة استعراضية، تُظهرُ مقدرتنا على أداء الخطفات المختلفة، وننعم بتصفيق الحضور.

وكنا في المساء، بعد انتهاء التدريب في الألعاب المختلفة، نتحلق حول الحاج محمد البحراوي، وكنت واثنان آخران التلاميذ الوحيدين بينهم، وباقي الصبية عمال، من مهن مختلفة، صهر وسباكة معادن، صباغة ملابس، حدادة، بقالة، دهان الأثاث، بناء وتشطيب العمارات؛ وقد سرت ألفة وأخوة بين الجميع، والحاج يقص بعضاً من نوادره؛ يتحرك بقامته القصيرة خفيفا بين كراكيه، يصنع الشاي، يسبقه كرشٌ صغير من جسد قليل، وتطل من عينيه الصغيرتين لمعة ذكاء مشبعة بروح مداعبة تشف على وجهه الأبيض البيضاوي، وقد نبت شعرُ ذقنه أبيض ورمادياً، بينما شعر رأسه الأشيب الخفيف منسدل في اتجاه جبهته.

ولقد علمتُ من جارنا أن الرجل، الذي لا يعلم أحد من أين جاء، يعيش وحيداً. أنشأ ناديه في خربة واسعة تحيط بها ظهور البيوت في مستطيل، له منفذ وحيد على حارة جانبية، وكانت مرتعا للقطط نهاراً، والفئران ليلاً، حيث القمامة تلقى من نوافذ المطابخ. زرع الرجل جانبا بالنجيلة، وفي جوار الجدران زرع نباتاً متسلقاً؛ وسرعان ما شقشقت العصافير. وكثيرا ما رأيت الحاج، صباحاً، يفرش لها حبات الرز والقمح على الأرض. والقطط التي فقدت طعامها بنزحه للقمامة وتوقف السكان عن إلقائها، كان يضع لها بقايا طعامه، وفتافيت تخلفت من بيع محال البقالة في الشارع العمومي. والقطط الصغيرة يحضر لها بعض اللبن وقد فتّ فيه ما فاض من خبزه.

وعلى رأس الأرض، أقام حجرتين خشبيتين، واحدة وضع فيها كنبة وبعضاً من أغراضه، وفي الأخرى ترابيزة وبضعة مقاعد وموقد وآنية للطبخ وبراد شاي وأكواب زجاجية.وفي جوار الحجرتين أنشأ عدة

حمامات، ودورة مياه. وفي الجانب المقابل لمكـــان العصـــافير، وضـــع طبلية خشبية، فوقها أحجام مختلفة من الأثقال الحديدية، وغيـــر بعيـــد، متوازٍ خشبى لألعاب القوة؛ وفي وسط الأرض وضـــع حلقـــة للعـــب الملاكمة، وعند المصارعة، تفرش قاعدة الحلقة بحشية من قماش الخيام. وعلق لافتة على المنفذ، كتب عليها (نادي البحراوي الرياضي). وكـــان الاشتراك الشهري خمسة قروش. واستطاع باتصالاته – لا أحد يـــدري كيف – أن يحضر بطل العالم في المصارعة وقتها (إبراهيم مصطفى)، مرة كل شهر، ليوجه المدرب واللاعبين، ويعطيهم إرشاداته، كما أحضر أبطال العالم في رفع الأثقال، وكانت مصر لها شنة ورنة في هذه اللعبة.

وفيما بعد، خرج من هذا النادي بطلان للعـــالم فـــي المصـــارعة الرومانية، وبطل للجمهورية في الملاكمة، وكان أبطال الدقهلية ووجـــه بحري من هذا النادي، وشاركوا دائماً في بطولة الجمهوريـــة، وحـــازوا مراكز متقدمة؛ كما شاركوا في كثير من البطولات الدولية فـــي غـــزة وتركيا، ودورات البحر المتوسط. وفي هذا النادي، سمعت دائما عبارة: "أنت رياضي"، تقال للترفع عن الصغائر. "أنت رياضـــي"، أي لا تغتـــر بنصرك، فالرياضة غالب ومغلوب. "أنت رياضي"، أي أن تفوز بشرف. "أنت رياضي"، حافظ على لياقتك بالنوم مبكراً. "أنت رياضي"، لا تجلس في مكان لا يليق بك، أو يحط من مقامك. "أنت رياضـــي"، لا تشـــرب الكحوليات، ولا تدخن السجائر أو المخدرات، وكان الحشـــيش منتشـــراً كوباء. "أنت رياضي"،لا تغتر بقوتك وتُفتن بعضلاتك، وانصر الضعيف. "أنت رياضي"، أن تكون شهماً. "أنت رياضي"، أن تكون عف اللســـان، ولا تشتم أحداً، ولا تعامل الوضيع بأخلاقه. وعشرات المواقف، ســـمعت فيها هذه العبارة، ورأيتهم يتحلون بها، سواء في النادي أو خارجه.

وفي البيت، سمعت دائماً عبارة: "أنت زراعي"، يقولها أبي لأكبـــر أخوتي، عادل؛ فإذا عصي أمي في الذهاب إلى مشوار يقول له: " أنـــت زراعي "، أي لا يصح ذلك مـــن زراعـــي. وإذا طالـــب بزيـــادة فـــي

مصروفه يقول له: "أنت زراعي". وإذا تمرد على ارتداء بنطلون قـديم وأراد آخر جديداً: "أنت زراعي". وعند أي تصرف لا يعجب أبي: "أنت زراعي".

وحتى الآن، لا أعرف ما علاقة هذه العبارة بأي تصرف غير قويم من وجهة نظر أبي. هل لأن أبي العامل، الذي ما زال الفلاح بداخلـه، يعتبر من سيعمل بالشأن الزراعي، مثله مثل الفلاحين، يجب أن يكـون متقشفاً وراضياً بقليله. أم أنه – أبي – كان يقصد أن من سيحترف العمل الزراعي يجب أن يسلك كراشد قويم، وأن هذا ما يليق بالعاملين في هذه المهنة.لا أدري بالضبط. كل ما أدريه أنني في رحلة الحياة تاهت مني عبارة "أنت زراعي"، وظلت معي عبارة "أنت رياضـي". وأدركـت أن الرياضي لا تقوده ممارسة الرياضة إلى كمال الجسد فقط، ولكن تقـوده إلى الإعجاز، بالتخطي الدائم لإمكانات جسده، كما أنها تؤدى إلى المتعة، بما يصاحبها من مهارة وخفة تنتزع آهات المشاهدين، وبما تحفـل بـه النفس من قيم تدفع إلى عدمٍ إيذاءِ الخصم بدنياً أو شعورياً، وهكذا فـنحن أمام جمال متكامل شكلاً وإعجازاً ونبلاً.

الآن، أصبح باب النادي من الشارع الرئيسي في حـي الحـوار، أعلاه لافتة مكتوب عليها: (مديرية الشباب والرياضة – نـادي الاتحـاد الأولمبي الرياضي). ومع أن النادي يؤمه شباب كثيرون، ولـه مجلـس إدارة منتخب، ويتلقى إعانة من الدولة، إلا أننا لم نسمع منذ ما يقرب من ثلاثة عقود عن أحد منه حصل على بطولة عالمية أو دولية.

ولقد أحزنني أن اللافتة غُفـلٌ من تاريخ إقامة النادي، ومن اسم مؤسسه. أما عن الرجل، فقد كانت له أمنيتان: أن يحج إلى بيت الله (كنا نناديه بالحاج توقيراً له)، وأن توافيه منيته ويدفن هناك. وعلمت أنه كان في وداع أصدقاء له في ميناء السويس في طريقهم للحج، وأن السـفينة أقلعت قبل أن يغادرها. وفي جدة، تمكن أصدقاؤه مـن تـدبير وسـيلة لنزوله. وبعد أن أتم مناسك الحج، وافته المنية، ودفن هناك.

دورٌ صامت

صعد الوالي ومرافقه إلى خشبة المسرح.

مشيا بتؤدة، وانتظر المرافق أن يتكلم الوالي، وقد وصلا إلى مقدمة المسرح، كما هو متفق عليه في التجارب المسرحية قبل العرض، لكـن الله لم يفتح عليه بكلمة.

رجعا إلى الخلف، وكأن هذا من طبيعة الحركة في الدور. وعندما عادا إلى المقدمة، ظل الوالي صامتاً. عندها، تأكد للمرافـق أنـه نسـي المفتتح؛ وكان هو يسير سارحاً بعض الشئ، فدوره صامت، لا يقتضـي منه سوى هزة رأس عنـد نهايـة جملـة، أو إظهـار الاستحسـان أو الامتعاض بين فقرات الحديث.

وفيما يشبه الإلهام، همس المرافق بالمفتتح، وقد قفز إلى ذهنه مـن كثرة حضور التجارب. وفي الحقيقة، كان الوالي معذوراً، فـلا يوجـد حوار قبله ليذكره، مثل باقي الممثلين الذين سيتكلمون بعده. وكان الفنان كمال يس (من إدارة المسرح المدرسى بالقاهرة) الـذي تـابع بعـض تجاربنا المسرحية قد نبهنا إلى ضرورة حفظ الممثل الذى سيتكلم جيـداً لـ (الكيو)، أي آخر جملة ينطقها الممثل الذي سيبدأ بعده أحدنا، لتكـون بمثابة المفتاح بالنسبة له (مقتبسة من que بمعنى الصف أو الطابور).

وفي حالة الوالي، كان ينبغي على المخرج أن يهمس بالمفتتح مـن الكواليس، خاصة في غياب ملقن، لكن يبدو أنه كان مشـغولاً بتحريـك الإضاءة، أو إعداد من سيصعد إلى خشبة المسرح، فلـم يلحـظ نسـيان الوالي.

تكلم الوالي .. وامتلأت أعطاف المرافق بالزهو. وتسللت نظراتـه إلى الجمهور، حيث لا توجد إضاءة، بالرغم من تنبيه المخرج ألا يفعـل أحد ذلك، حتى لا يفقد تركيزه.

وتمنى لو حضر أحد من طرفه ليراه وهو يسير بجانب الوالي.

حصل على عدة تذاكر، وكذلك زملاؤه في فريق التمثيل، لـدعوة الأهل والأصدقاء، لحضور الحفل السنوي الذي تقيمـه مدرسـة الملـك الكامل الثانوية بالمنصورة. لم يستطع سؤال والده الحضور. يعود آخـر النهار، مغلق الفم، من صلب ظهره أمام قزانات الطبيخ الضخمة فـوق مواقد مستعرة النيران، أضعفت بصرِه. عين لا يكاد يرى بها، والأخرى ٦٠/٦، ولم تفده النظارة الطبية كثيراً. خشي أن يسأل أخاه الأكبر عادل، حتى لا يتعالى عليه، فما زال في نظره عيلاً في السنة الأولى الثانوية.

واجها النظّـارةَ الآن ..

طافت نظراته بالصفوف الأولى. نساءٌ ورجالٌ، في فساتين وبدل ؛ والنساء فى كامل زينتهن.وأمه، التي لم يرها يوماً تزين وجههـا سـوى بالكحل في عينيها، ولم ترتدي سوى فستان وطرحة سوداوين، بعـد أن استبدلتهما بالملاءة والبرقع ذي القصبة الذهبية فوق أنفها. كانت أمنيتـه أن تشاهده، لكنه لم يفكر في دعوتها، فسوف يكون صعبا عليها التلبيـة والجلوس بين الهوانم والأفندية.

وما كاد الستار يسدل، حتى أسرع إليه المخرج واحتضنه، وتصاعد تصفيق النظارة ..

وبينما باقي الممثلين يذهبون إلى أهـاليهم، أمـام المسـرح، وقـد تصاعد اللغط، وعمت إمارات المرح والفرح، كان هو يخرج من بـاب المدرسة منكسر الخاطر.

اركب .. أحسـن لك

في الرابعة عشرة من عمري، كـان مصـروفي قرشـاً، يوميـاً. استطعت أن أوفر منه ثلاثين قرشا، بالإضافة إلى ثلاثين قرشاً فاضـت معي من عيدية العيد الصغير لهذا العام، وقررت أن أزور الأهرام. كنت أقرأ وأشاهد في المجلات عن السياح الذين يحضرون من آخـر الـدنيا

لزيارتها، وأقرأ عن الاكتشافات حولها، خاصة مراكب الشمس، فنمت الرغبة في نفسي.

اشتريت تذكرة، ذهاباً وعودة يومية في القطار من المنصورة إلى القاهرة بثمانية وثلاثين قرشاً. وركبت الترام من باب الحديد (رمسيس) إلى الهرم، بخمسة عشر مليماً (طوالي)، حيث كانت التذكرة المعتادة فئة ثمانية مليمات تنتهي عند الجيزة. واشتريت فول سوداني بخمسة مليمات، ومن كشك عند الهرم، اشتريت تذكرة بعشرة قروش لزيارة الهرم والمعبد الجنائزي، وبقيت معي عشرة قروش، اعتزمت الاحتفاظ بها، احتياطاً، في طريق العودة.

دخلت من فتحة أسفل الهرم. سرتُ منحني الظهر في مطلع حتى حجرة في وسط الهرم تقريباً، وكاد ظهري ينقصم. حجرة خالية إلا من تابوت كبير مجوف دون غطاء، من حجر جرانيتي، طوبي مبقع بسواد طغى على لونه. وفي أحد الجدران فتحة مائلة إلى أعلى الهرم، لإدخال الضوء والهواء.

وحينما عدت، قابلني دليل (ترجمان) ليصحبني إلى المعبد الجنائزي. حاولت التنصل منه دون جدوى. وبعد أن شرح لي ما شاهدته، خجلت أن أتركه يمضي دون منحه إكرامية، فأعطيته العشرة قروش التي احتفظت بها.

فكيف أصل إلى باب الحديد وقد أصبحت على الحميد المجيد ؟.

سرتُ قليلاً في شارع الهرم. الشارع طويل .. طويل، لا يريد أن ينتهي. وأنا قادم في الترام كنت أتفسح، تطالعني أرض مزروعة من الجانبين، وثمة بيوت متناثرة، كل مسافة وأخرى. انتبهتُ إلى جزيرة وسط الطريق بها أزيار، ويحيط بكل زير دكة خشبية في نصف دائرة، تظللها فروع شجرة وافرة. شربت واسترحت وعاودت المسير، وإلى جانبي يسير الترام. ولما لم تظهر نهاية لهذا الشارع، قفزت إلى الترام، محاذراً من المحصل. وعندما أحس به قادماً، أنزل وأسير عدة محطات،

ثم أعاود الركوب. ولم أستطع أن أستمر هكــذا، خشــية أن يضــبطني المحصل فلا أستطيع التصرف. مشيت حتى ميدان الجيزة. ولمــا كنــت أجهل الطريق، جعلتُ أسألُ المارة، فيقولون لي خذ ترام رقــم كــذا، أو الباص رقم كذا، وأنا أصر على معرفة الطريق إلى باب الحديد، فيهزون رؤوسهم في عجب، ومنهم من يقول: يابني المحطة بعيدة؛ ومن يقول: يا بني اركب أحسن لك.

وصلت إلى ميدان المحطة، تكاد قدماي لا تتحملاني، وقد صبغتني أشعة الشمس؛ ولحقت بقطار الرابعة عصراً.

ما إن جلستُ على مقعد خشبي في الدرجة الثالثة، حتى أحسســتُ بالأمان. عندها، نسيتُ تعبي؛ ودب الفرح في نفسي وأنا أتخيــل منظــر أخوتي حين أحدثهم عن زيارتي للهرم الأكبر، مؤكدا – حتى يصدقونني – بإعطائهم تذكرة الزيارة التي احتفظتُ بها في جيبي.

أخرجتها لأتملاها ..

وقرأتُ أسفلها:

ملحوظة: ممنوع إعطــــاء الدليل أية نقود.

صبي في المحكمة

وأنا أنسلخُ من مرحلة الصبا، عملتُ عند محام تسكنُ عائلتــه فــى حينا، لأشغل وقتي في الإجازة الصيفية، ولتستريح أمي مــن الشــكاوى التي تأتيها من الجيران، أو من أحد المارة في الشارع، بسبب لعبي مــع الأولاد (الكرة الشراب)، وما نحدثه من صخب ومضايقة للمارين.

في الصباح، أذهبُ مع كاتب المحامي، وهو رجلٌ مخضرم محنــي الظهر، إلى إحدى المحاكم، بملفات القضايا. وفي المساء، أســبقه إلــى المكتب لاستقبال المتقاضين، ريثما يحضر، ومن بعده المحامي.

وفي المحكمة، طالعت ما كُتب على بعض الجدران: الآية الكريمة "وإذا حكمتم بين الناسِ أن تحكموا بالعدل"، وفوق منصة القاضي: "العدلُ أساسُ المُلك"؛ ورأيتُ مئات الفلاحين من القرى المختلفة، قد خالفوا ما نصت عليه الدورة الزراعية من زراعة محصول معين، أو فتحوا الترعة على أرضهم فارتوت من الماء دون حساب لأراضي غيرهم، أو تخلفوا عن دفع الضريبة الزِراعية، أو لم يوردوا الحصة المطلوبة من القطن للحكومة، وقد علمتُ فيما بعد أن الحكومة تصدرها للخارج بالدولار، وتكسب مرتين؛ مرة من فرق العملة بين الجنيه والدولار، الذي يساوي عدة أمثال الجنيه المصري، الذي تحاسب به الفلاح؛ ومرة من الثمن العالي للقطن في السوق العالمي.

ينادي الحاجب اسم الفلاح؛ والقاضي – دون سؤال أو جواب – ينطق الغرامة المقررة في حالته. عشرة جنيهات وخمسة قروش. عشرون جنيهاً وعشرة قروش؛ وهكذا .. وعلى باب القاعة من الخارج، يقف فرَّاشٌ مواربا الباب، ويسد المواربة بجسده؛ ولا يسمح بخروج الفلاح إلا بعد نفحه جنيهاً أو نصف جنيه. أحياناً يعصلج الفلاح، محاولاً الإفلات، فيغلق الباب تماماً، فيضطر الفلاح إلى الخبط، بينما آخرون يستعجلونه. ويتمادى الفراش في العقاب. وعندما ينفرج الباب، يكون الفلاح العاصي قد رضخ ويدفع الجنيه المعلوم، والفراش يأبى إلا أن يشفعه بآخر، ويكون له ما يريد.

وسمعت الهتافات تدوي في قاعات المحاكم: يحيا العدل، حين تحكم المحكمة ببراءة متهم. وقبل الخروج من القفص في جانب القاعة، تكون أيادٍ مشرعة نحوه، من عساكر شرطة الترحيلات ومن حاجب المحكمة وسعاتها. وأحياناً لا يكون مع الرجل ما يكفي من حلاوة الإفراج، فيسرع أقاربه أو أصدقاؤه من الحضور لتلقيم الأكف المشرعة.

ورأيتُ المحامين، تسبقهم نقودُهم، وإكرامياتهم من الساقع والساخن وعلب السجائر، إلى الموظفين للاطلاع على ورقة في ملف، أو

للحصول على صورة من حُكم، أو للإسراع في تقديم طلب للعرض على السيد وكيل النيابة لنسخ أوراق قضية ما. وكم غمزت بالمال حُجَّاب الجلسات، لتأجيل نطق اسم في (الرول)، إذا جاء دوره، إلى آخر الجلسة، حتى يحضر المحامي الذي أعمل معه من قاعة أخرى، أو من محكمة بعيدة. وأحياناً لا يلحق المحامي بالجلسة، فأسرع إلى أي محام لطلب التأجيل لحين حضور المحامي الأصلي. وأحياناً يتعمد المحامي الغياب، ويطلب مني الذهاب إلى محام بعينه ليطلب التأجيل للسبب السابق نفسه .. وهكذا، جلسة بعد أخرى. ونظل نماطل، لعلمنا أننا لن نكسب هذه القضية.

وجالست، في مكاتب الموظفين المختصين بالأحوال الشخصية، المطلقات والأرامل، ورأيت محاولات الوصال معهن، والوعود الزائفة منهن ولهن، والتأكيد بالحصول على نفقة مقدارها كذا وكذا؛ والمؤكد – سواء المحامي أو الموظف– يعلم جيداً أنها ناشز ولا تستحق. وتابعت مشاجرات النسوة وهن نازلات من عربة الترحيلات؛ هذه تعاير أخرى أنها تكسب، بشرفها، من النشل في الباصات، والدور على الأخرى التي تعري جسدها لمن يساوي ولمن لا يساوي شيئاً. وعايشت صخباً وضجيجاً وزحاماً لا يهدأ في الطرقات بين القاعات، وعلى السلالم بين الأدوار، وفي داخل القاعات؛ والجميع كأنهم ممسوسون، يلوحون بأوراق في أيديهم، ويتفحصون أوراقاً على رخامة صانع الشاي والقهوة في ركن تحت سلم؛ وأعناق تشرئب في وقفتها في خلفية قاعة مزدحمة بالبشر؛ وكلام متبادل؛ وقضاة يطرقون بأقلامهم على الطاولات طلباً للهدوء، ويأمرون بنزع (الكلابشات) قبل إيداع المتهمين أقفاص الاتهام؛ وأفراد شرطة الحراسة يروحون ويجيئون، تنبئ نظراتهم أن الأمور لا تعنيهم في شئ، ينتظرون خارج القاعات في صبر ملول، حتى تنتهي الجلسات، لينصرفوا.

ورأيت فراشاً في المحكمة يؤجر المعاطف السوداء (الأرواب) لفقراء المحامين من الشباب، نظير جنيه للواحد، ليدخلوا بها الجلسات ويترافعون. وحضرت جلسات محاكمة تجار المخدرات، يترافع فيها محامون مشهورون في المدينة، يشيد الناس بهم، لأن قضية لا تفلت منهم؛ واستمعت إلى مرافعاتهم، تنقذ التجار من أحكام بالأشغال الشاقة المؤبدة، طبقاً لقانون جديد، أصدره نظام ٢٣ يوليو. تستند أغلب المرافعات على أخطاء في إجراءات القبض، أو انتفاء المنطق في قول شاهد رأي الواقعة في وقت ساد فيه الظلام وتعذرت الرؤية. وهكذا، لم يكن الحشيش في جيبه، بل على طاولة بالقرب منه. لم تكن أنواع المخدرات الأخرى قد انتشرت، باستثناء الأفيون.

ثغرات كثيرة، يقبض بسببها المحامون ذائعو الصيت المبالغ التي يحددونها. ويتناقل الناس سيرتهم في المدينة؛ هذا أشطر محامٍ في كذا، وهذا في كذا. وهناك من يقولون أن أحد الشطار يسهر برفقة المستشار الفلاني، وأن شاطراً آخر يرسل مظروفاً محشوا بالمال إلى العضو العلاني، ويكون الأمر منتهياً.

والتقيت الشهود المحترفين على مقهى بالقرب من المحكمة. يرسلني المحامي أو كاتبه لاستدعاء أحدهم يليق بالشهادة في الواقعة التي نحن بصددها؛ فقد تتطلب رجلاً في سمت محترم أنيق، أو في زي عامل أو ابن بلد صغير السن، وهكذا. وفي المكتب، نلقن الشاهد ما سوف يقوله، ونحيطه علماً بالواقعة، وكيف يرد على الأسئلة التي نتوقعها من القاضي، ونسأله عن آخر مرة شهد فيها، وهل كانت في الدائرة نفسها، خشية أن يعرفه عضو من هيئة المحكمة. وبعد أن يقسم بالله العظيم أن يقول الحق، ويدلي بأقواله، ننفحه أجره. ولم يلبث أن حل (الفاكانس)، إجازة المحاكم؛ وتوقف العمل في المكتب أو كاد؛ وفرحت بعودتي للعب في الشارع.

أستغفرُ الله

يسكن في شارعنا أسطى سبّاك، فتح الله عليه، ففتح محلاً لتركيب الأدوات الصحية في العمارات الجديدة؛ ويلقى في المحل عملاءه، ويحضر إليه العمال، وفيه يحفظون أدوات عملهم.

ألحقتني أمي بالعمل عنده. كنت أجلس خلف مكتب، أقيد أسماء الزبائن وطلباتهم، وأبلغ بها الأسطى فور حضوره. وأحياناً كنت أذهبُ مع بعض العمالِ، أساعد في تركيب صناديق الطرد، أو مد مواسير المياه. مجرد سنيد، أمسك الصندوق حتى يضع العامل المونة، أو أناول شاكوشاً أو كوعاً.

وكنا نسكن في بيت يملكه الحاج عبده سرحان، صاحب أكبر وأشهر محل بقالة في شارع السكة الجديدة، وهو الشارع الرئيسي في المنصورة. وذات مرة، كان الحاج قريباً من محلنا، حيث يشطب عمارته الجديدة، ومعه بعض الأغراض، فتركها عندنا حتى آخر النهار. وعندما جاء لأخذها، عرض الأسطى أن أوصله إلى البيت حاملاً بعضها، لأخفف عنه.

وفي الشارع، ما أن لمحتني أمي حتى جُنَّ جنُونُها؛ وفور دخولي إلى البيت، سألت:

- من حملك هذا ..؟
- الأسطى
- واقعته سوداء

ونهتني عن فعل ذلك ثانية. وتربصت للأسطى، وحين شاهدته آتياً، صاحت به:

- ابني خادم ؟
- يا ستي أستغفر اللهِ

ورفعت صوتها لائمةً، لتُسمِعَ الحاج في شقته فوقنا في الدور الثاني.

وعدتُ إلى الشارع من جديد.

عـزوف

شقيقتي الكبرى زينب، تضع قطعة من الجبن القديم مع قطعة من الطعمية في لقمة، وتناولها لي. أضعها في فمي على مضض. أكاد أتقيأ. تشير لي أن أهدأ؛ وتحاول مرة أخرى. تضع لي قطعة صغيرة من الجبن في لقمة بالفول المدمس؛ أبلعها، وتمور نفسي بالغثيان.

وحاولتْ مع أطعمة أخرى، في أوقات مختلفة، حتى نصحها أبي أن تتركني وشأني.

وما يثير عجب أسرتي، هو أنني أشرب اللبن، ولا أطيق رائحة الجبن، سواء القديم أو الحديث؛ وأنفر أيضاً من رائحة الزبادي وحموضته، ولا أقرب المخللات.

وعيتُ فوجدتني هكذا. ولست أدري سبب نفوري .. هل من رائحة المنفحة التي تؤدي إلى تجبن اللبن، أم لعلة في نفسيلا أدرك كنهها. ولقد سبب لي هذا، وما زال، حرجاً بالغاً، خاصة عندما أضطرُ لتناول الطعام عند أحد. وحين أبتاعُ شطائر من الفول والطعمية المعدة سلفاً من أي مطعم، أفتش الشطيرة – وكلي خجل أن يراني أحد – وأخرج ما دُسَّ فيها من قطع المخلل، وأتناولها مستشعراً ما علق بها من طعم المخلل، وأغالب نفسي حتى لا أتقيأ.

وفي المؤتمرات، أعزف عن الجبن، القاسم المشترك في الفطور والعشاء، والنظرات تلاحقني، خاصة وأنا لا أقرب البيض، جاره في الوجبتين، حيث أصبح يسبب لي حساسية. وكذا اللبن والسمك. ولما كان البيض واللبن من لوازم إعداد كثير من الأطعمة، فقد حُرمتُ منها.

وفي المرات التي سُجنتُ فيها كان الجبن طعاماً رئيسياً. حقا يشبه الحجر الجيري، لكنه مصدر مهم لحصول الجسم على البروتين، خاصة وأن قطعة اللحم التي يجودُ بها السجنُ ظهراً هي شغت به بصيص لحم محاط بدهن أصفر مقزز. أحياناً أسلّك ما يمكن تسليكه من نسل اللحم، وأحيانا أقرف وألقيها للقطط في طرقة العنبر، تتشممها وتوليَ مدبرة.

ومن الأطعمة التي أنفر منها أيضاً، الفسيخ. وأعجب من هؤلاء الذين يتناولونه، كيف يطيقون رائحة العفن الصادرة منه. ولا أغفر لقدماء المصريين اختراعهم هذين الطعامين: الجبن القديم، والفسيخ؛ وإن كان هدفهم حفظ الطعام لأطول مدة ممكنة. ولكنى أشكرهم على تدميس الفول، الذي أصبح طعاماً قومياً، و لعله كان مصدر البروتين الوحيد لي في السجن، مع شقيقه العدس. وكلمة تدميس مأخوذة من اللغة المصرية القديمة.

وحاولت شقيقتي معي لأتناول الفسيخ، فلم توفق. وهي كانت تحبه؛ بل لحظت بعد أن شببتُ حبَّ النساء لهذين الطعامين الفسيخ والجبن القديم، ربما أكثر من حب الرجال لهما، ويقبلن عليهما بشهية لا أدري سرها.

البرمجة

أُصِبتُ في الخامسة عشرة بدوسنتاريا أميبية حادة، تأخرتُ في علاجها، ظاناً أنها مجرد إسهال وتعنية؛ وحين عرفت الحقيقة كان الوقت قد فات. تكيَّست الأميبا في ثنايا المعيّ، لا تطولها الأدوية. وأثر المرض على صوتي، فكان يضعف ويغلوش أحياناً، وعند النطق آكل الكلام، ولا أظهر نهايات الألفاظ، وأبدو كمن غضب دون داعٍ وهو يتكلم، أو كمن يطحن؛ وشتت المرض من انتباهى.فكنت حين أسمع أغنية، أو أشاهد فيلماً، أو أستمع إلى درس أحاول التركيز، وأتجه بكل حواسي لما أنا بصدده، لدرجة أن أية حركة، مهما كانت بسيطة، أو أقل صوت، يهز نفسيتي، وأكاد أقفز من مكاني، وأعاني لكي أعود إلى حالتي الأولى.

وبسبب المرض كنت حين أشرع في حفظ ومطالعة درس، أو قراءة جريدة أو كتاب، أبذل جهداً شديداً في التركيز، لأتخطى اضطراب

معاى وإحساساً بارتفاع طفيف في درجة الحرارة، وأضغط على أعصابي، حتى لا أذهب إلى دورة المياه كل دقيقة وأخرى.

وفي بداية عملي بالوحدة المجمعة بطناح، وكنت في الثامنة عشرة، ترددت على القسم الطبي في الوحدة، وصرفوا لي مجاناً أقراص كاربرسون، وهي تحتوي مادة الزرنيخ السامة. وظللت على ذلك الحال ما يقرب من عامين، حتى قُبِضَ عليَّ في عام ١٩٥٩. ولم أكن أدري ماذا أفعل .. ؟!؛ فالذهاب إلى دورة المياه مرة واحدة في اليوم؛ والطعام غير مناسب (فول وعدس) لمن قولونه متضخم بفعل الأميبا. ولما كان الدواء غير متوفر، فقد نصحنى الدكتور شريف حتاتة، وقد التقيته بسجن مصر (قره ميدان)، أن أهتم بالنظام الغذائي. لا تقلية، ولا سمن أو زيت. لا طعام مسبك؛ وأن أقشرَ الفول، وألا أتناول أطعمة لها قشرة، مثل الفاصوليا والبازلاء، وأن أبتعد عن المواد الحريفة، وأتقي البرد.

ولقد ضحكتُ ما شاء لي الضحك، فهذه الأطعمة باستثناء الفول والعدس غير موجودة في السجن، أما البرد؛ فشباك الزنزانة دون ضلف، وكذا شراعة الباب. وإذن، فأنا في حالة تنظيم غذائي طبيعية. ومع ذلك، لم يختف المرض. وفي هذه الفترة، ظهرت مضادات حيوية جديدة (عائلة المايسين)، وهي كبسولات ينتهي اسم كل منها بـ (مايسين)، مثل الأوريومايسين. وكانت غالية الثمن؛ فأرسلت لأخي عادل، فاشترى لي علبتين وأحضرهما؛ وتناولتُ الدواء، ولم أحس بتقدم يذكر.

لم أطلب دواءً آخر؛ وعودتُ نفسي فيما عودتُ أن أنسى الأمر، وليحدثْ ما يحدث. ومع توالي الأيام في السجن، بدأ الجسم يؤقلم نفسه؛ وأخذتُ بنصيحة د. شريف، وقشرت الفول، والعدس قللت من تناوله. والخضر خالية من القشور، وتعافها النفس، لأنها مسلوقة في الماء دون أية إضافات. خبيزة ذات أوراق مشرشرة خشنة. ملوخية مزنبخة، غير مخروطة. (رِجلة) بعيدانها. قرون شائخة من البامية، يسمونها (ويكا).

وكان الطعام ظهراً في أغلب الأيام من (الرجلة) والخبيزة. ومفتاح السجان يدور في طبلة الأبواب، ويردف بصوته: (اليمك)؛ يقصد الخضر، فنمد أيدينا بالقراونات. وبعضنا نفوسهم حلوة، يغمسون عدة لقيمات؛ وكثيرون، وأنا منهم، يسارعون بإلقائه في جردل البول.

ويبدو أن خلايا المخ تبرمجت على التركيز؛ فلا أكاد أشرع في القراءة أو الكتابة، حتى تغفل هذه الخلايا أية مؤثرات أخرى، سواء كانت بسبب المرضِ أو غيره.

وحين بدأتُ الكتابة، كنتُ أضيق بسرعة، وأحاولِ الانتهاء مما أكتبه ؛ وأثر ذلك على مقدرتي في التعبير؛ وشيئاً فشيئاً، عودت نفسي على التأني والصبر، خاصة وقد وثقت بقدراتي ككاتب، بعد استماعي لآراء كثير من المحيطين بي في سجن الواحات الخارجة: صلاح حافظ، وإبراهيم عبد الحليم، والفنان حسن فؤاد، والصحفي فتحي خليل، والأديب محمد صدقي. والأصدقاء الذين من سنى: كمال القلش، وصنع الله إبراهيم، ومحمد قناوي، وغيرهم.

إلى أن أُفرجَ عني في منتصف عام ١٩٦٣.

وحين بدأتُ النشر، في أواخر الستينيات، كنت ما زلت أعاني من عدم اكتمال قدرتي على التعبير، ولفت نظري بعض النقاد إلى ذلك. وأخذت نفسي بالصبر، والمراجعة عدة مرات، حتى حسَّنَ تعبيري، وتخلصتُ من أخطائي النحوية واللغوية إلى حد كبير، وتمتعتُ بجلد على تصفح معاجم اللغةِ العربية، والبحث عن أصول الكلمات ومعانيها المختلفة، وأصبحتُ أجد متعة في ذلك.

وتزامن هذا مع عودتي للعمل في الحكم المحلي، وقد تحولت الوحدات المجمعة إلى مجالس قروية، تشرف عليها مجالس المدن، والمحافظة. وكنت ما زلت أعاني المرض؛ والأصح أن أقول: ذهبت الدوسنتاريا وبقي اضطراب القولون.

وذهبتُ إلى الأطباء، وتناولتُ عدة مقـررات مـن الأدويـة، دون فائدة؛ فاستقر رأيي على الأخذ بنصيحة دكتور شريف بإتباع نظام غذائي صارم، والحذر من البرد؛ وزدتُ على ذلك المواظبة على المشي ساعة يومياً. أراح المشي القولون، واختفت الزغولة؛ وإن كان الأمر لا يسلم أحياناً، فألبخ بأكلة حافلة بالممنوعات. أدفع الثمن عدة أيـام مـن الألـم والاضطراب؛ ثم أعاود سيرتي الأولى. وعودت القولون على الـذهاب مرة واحدة إلى دورة المياه، بعد أن كان حلمي في السجن أن أذهب إليها وقتما أشاء؛ ومع الوقت اختفت، إلى حد كبير، متاعب القولون.

وأصبحت واثقاً بقدرتي على التعبير. ولقـد أسعدنـي الدكـتور عبد المنعم تليمة بقوله، بعد أن قـرأ مجمـوعتي القصصـية "الـزمن المستباح":

- على فكرة، لا توجد في الكتاب سوى ثلاث غلطات.

وملمحاً في الوقت نفسه لأخطاء يرتكبها الكتّاب بالجملـة، سـواء النحوية أو الإملائية أو الأسلوبية. ساعتها، تأكدت أنني خرجت نهائياً من سطوة المرض، وطرحت عني عباءة الجهل ببعض قواعد النحو.

العدوان الرباعي

عشية خطاب ناصر الذي أعلن فيه تأميم شـركة قنـاة السـويس، أخبرني صديقٌ من الشيوعيين يقطن حينـا أن أسـتمع للخطـاب لأنـه سيتضمن إعلاناً مهماً. وكانت أزمة تمويل بناء السد العالي قد تفاقمـت، بعد رفض أمريكا تمويله.

ولم يكد ناصر يعلن التأميم، حتى سادت الشوارع موجة من الفرح، والناس تتعانق وقد علا رؤوسَها كبرياءٌ وصلَت بها إلى عنان السماء.

وتلاحقت الأحداث ...

لم تطق الدول الاستعمارية شدة الصفعة، وبدأت التحضير لغزو مصر؛ وهو ما عُرف بالعدوان الثلاثي، وهو في الحقيقة العدوان الرباعي، لأن أمريكا أسهمت فيه.

نشرت مجلة (المصور) المصرية، في ١٩٩٧/٩/١٢، نقلاً عن (المجلة التاريخية للقوات المسلحة الفرنسية)، عدد أغسطس ١٩٩٧، وثائق عن هذه الحرب، يقول فيها الجنرال الفرنسي الطيار "أدمون جوهود"، تعليقاً على تسليم إسرائيل ٢٤ طائرة من طراز مستير ٤، كانت تابعة لسيطرة الفرقة الجوية لحلف الأطلنطي، مما يعني أن الأمريكيين يعرفون مصيرها الذي آلت إليه: "كان الأمريكيون في خضم عملية العدوان، وكم تمنوا أن تتم، وأن تنجح .. حيث عملت المساعدات الأمريكية، والطريقة التي تصرفوا بها، على نجاح تنفيذ العملية. وأستطيعُ أن أقولَ أنهم كانوا على علم بالعملية، وموافقين عليها". ويقول الجنرال الفرنسي الطيار "جاك ليجروانيك": " أما فيما يتعلق بالقوات الخاصة، فقد ظهرت مشكلة خاصة بالطائرات ف ٨٤ ف، حيث كان من الصعب على طائراتنا أن تطير فوق سطح البحر لمسافة ٤٠٠ كيلومتراً قبل الوصول إلى هدفها (يقصد المسافة من القاعدة في قبرص إلى مصر)، إلاَّ أن هذا الأمر قد تم حله خلال التفاوض مع الأمريكيين، حيث وافقوا على تخزين (يقصد تركيب) خزانات الوقود الإضافية للطائرات ف ٨٤ ف، وكذا خزانات وبطاريات الصواريخ جانو اللازمة لعملية الإقلاع بدرجات حرارة عالية (يقصد في جو قبرص شديد الحرارة في هذا الوقت).

وفي ١٩٩٧/٩/٢٦، بمجلة المصور، يقول المحرر العسكري والربان البحري "جان بيير بوفوا":

" إن أول إبحار لبارجة حربية شاركت في العدوان الثلاثي لم يكن ليتم دون المساعدات الأمريكية المكثفة؛ فهذه البارجة لها قصة خاصة. ففي بداية الخمسينيات، نجحت الولايات المتحدة الأمريكية في تجميع

أسطول عملاق، تعضيداً للتعاون بين فرنسا وبريطانيا، وتم تجهيز البارجة (أوفرلورد) – التي اشتركت في قصف بور سعيد – التي كانت قد توقفت عن المشاركة في العمليات العسكرية منذ معركة الدردنيل، أثناء الحرب العالمية الثانية. لقد ظلت هذه البارجة هي الوحيدة من نوعها في كل البحار، ولم يكن لها مثيلٌ طوال الفترة من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٦".

وزحفت القوات الإسرائيلية إلى عمق سيناء؛ واحتلت فرنسا بورفؤاد، وبريطانيا بورسعيد.

وانتفض الشباب للدفاع عن البلد؛ ووضعت صناديق السلاح في فناء مدرسة المنصورة الثانوية للبنات، ليأخذ منها من يشاء، دون رقيب. ذهبتُ مع بعض الأصدقاء، وأخذنا بنادق آلية روسية، تطلق عشر طلقات دفعة واحدة، وهي أقل حجماً ووزناً من بنادق لي أنفيلد الإنجليزية، التي كانت منتشرة في مصر فى ذلك الوقت، والتي تضرب طلقة بطلقة.

ولم نكن نعرف كيف نذهب إلى الجبهة ؟!. دلنا صديقٌ على مكتب عوض طه عبد القادر المحامى، بحي الحسينية؛ ولقد عرفت فيما بعد أنه رئيس نقابة عمال الخدمات، وعضو المجلس المصري للسلام. قيَّدَ أسماءنا؛ وفي اليوم التالي، حملت عربةُ نقل المتطوعين إلى الزقازيق، ومنها إلى قرية (أبو حمَّاد)، بالقرب من القرين. وقد سبقنا إلى هذه القرية متطوعون من مدن وقرى أخرى؛ وعلمت أن الجميع تحت قيادة رجل اسمه (طاهر البدري)، يعاونه بعض زملاء له، وأنهم من الشيوعيين. ولم أكن وقتها أعرف شيئاً عن الشيوعية أو الشيوعيين، سوى ما تردده وسائل الإعلام من أنهم كفرة وملحدون؛ وما قرأته من كتب عن (الستار الحديدي) الذي يطوق الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية؛ ومقالات تندد بالشيوعية في مجلة (المختار).

وفي الصباح، لفت انتباهي، ونحن في الطريقٍ إلى دورة المياه بمسجد القرية، قول طاهر لنا ألاّ نتجه إلى الدورة إلاّ بعد انتهاء الفلاحين

منها، وألاَّ نزاحِم أحداً منهم على دخولها. وفي الظهيرة، كـرر قولـه، وأضاف إليه ألاَّ نحدث هيصة أو تهريجاً، كما تعودنا نحن الشباب، وقت الصلاة.

وتعرفتُ عليه ..

اتضحَ لي أنه من مدينة شربين بالدقهلية، وأنه خـريج فـى كليـة العلومِ. ونمت صداقة بيننا، مع فارق السن، فقد كان هو فـي الثلاثـين، تقريباً، وأنا لم أتخط الثامنة عشرة .. واستمرت هذه الصداقة حتى يومنا هذا.

اتجه بعضنا إلىِ بورسعيد للمشاركة في المقاومة، واتجهـتُ مـع حوالي ثلاثين متطوعاً، تحت مسئولية طاهر، إلى القنطرة غرب؛ وكـان دورنا – وقد وصل البريطانيون إلى بحر البقر، وعلى وشك تخطينا إلى الإسماعيلية – أن نقاوم داخل القنطرة. واستعداداً لذلك، أخذنا طاهر فـي عدة جولات، لنتعرف على جغرافية المكان جيداً .. جميع الطرق، منـه وإليه، وكذا داخل المدينة. وحثنا طاهر للتعرف علـى الأهـالي، حيـث سنعيش بينهم لو اكتسحتنا القوات البريطانية؛ وعلينا أن نقـيم علاقـات طيبة معهم، ونراعي حرمة بيوتهم، ونحتـرم عـاداتهم، وألا نتعـرض لبناتهم ونسائهم. وبدأنا هذه العلاقات باستعارة أدوات الطبخ، مـن حلـل ومواقد كيروسينية.

كنا نقيم في مدرسة بالقنطرة، وغير بعيد من مكان يقيم فيه الحرسُ الوطني، تحت قيادة ضابط مخابرات اسمه (محسن لطفي)، رشح نفسـه بعد المعركة في بورسعيد، نائبا في مجلس الأمة، وأيده الشيوعيون؛ وهو نفسه الذي دعا لتكوين حزب لبعث مصر الفرعونيـة، وإحيـاء اللغـة المصرية القديمة؛ وقد عرفت فيما بعدِ أنه حفيد أحمد لطفي السيد.

أقمنا علاقات معه، وأمدنا الجيشُ بالذخيرة وبيطانيتين لكـل منـا. وسعينا للاندماج أكثر بالأهالي، فكنا عصـراً نجلـسُ علـى المقـاهي، ونستمع لنشرات الأخبار، والفضول يدفع الناس لسماع إذاعـات أخـرى

غير القاهرة، ومنها إذاعة إسرائيل. وكان طاهر حازماً، ألا نستمع لإذاعة العدو، خشية التأثير على معنوياتنا، فكنا ننصرف على الفور.

وتسلل بعض الزملاء إلى القنطرة شرق لاستطلاع الموقف، وكذا إلى بحر البقر، حيث تقدمت طلائع البريطانيين. وأخذنا نتدرب على إطلاق النار، بالقرب من طريق المعاهدة.

وبينما نواصل الاستعداد، وفي انتظار تقدم القوات البريطانية، وجه رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي بولجانين إنذاره الشهير بضرب لندن وباريس بالصواريخ المحملة بالقذائف النووية، إذا لم يتم وقف إطلاق النار فورا، والانسحاب من مصر.

توقف إطلاق النار، وتقرر أن نكون مجموعات، كل واحدة من خمسة أفراد، تتسلل عبر بحيرة المنزلة للانضمام لزملاء لنا داخل بورسعيد، للاستمرار في المقاومة ضد البريطانيين، حتى لا يتلكأوا في الانسحاب.

وكانت الأنباءُ تترى قبل وقف القتال .. عن إبادة شباب بورسعيد لجنود الموريشان (سود من مستعمرة أفريقية)، الذين أسقطهم البريطانيون بالمظلات فوق مطار الجميل في مدخل المدينة، وعن خطف الضابط (مور هاوس) – ابن عم ملكة انجلترا – وقتله، وعن اغتيال رئيس المخابرات البريطانية في سيارته بقنبلة يدوية.

وتسلل من غادرنا في (أبوحماد)، وأغلبهم من الحزب الشيوعي الموحد، إلى المدينة، بعد تنكرهم في لباس الصيادين، وبمساعدتهم، عبر بحيرة المنزلة، فقاموا بكتابة شعارات على الحيطان تندد بالغزاة، وطبعوا منشورات تسخر من البريطانيين، وتشحذ الروح المعنوية؛ كما شارك بعضهم في كمائن لقنص أفراد من الغزاة، أو أسْرِهم، وفي تهريب السلاح والذخيرة.

وتسللت مجموعتان من القنطرة غرب؛ وقبل أن تتسلل الثالثة وكنت فيها برئاسة البدرى، أُعلِن عن اتفاقية الأمم المتحدة لترتيب انسحاب الغزاة، فتوقفت أعمالُ المقاومة.

شنط الخضروات

كنت أجلس في مكتبي بالوحدة المجمعة بطناح، وإذا بأمي تدخلُ عليَّ. تمالكتُ نفسي، بعد دهشة ممزوجة بالغضب، وحاولتُ ألاَّ أكون عصبياً. طلبتُ لها فنجان قهوة؛ ولحظتُ الموظفين يجيئون ويروحون، يرشقوننا بنظرات الفضول. كانت ترتدي معطفاً أسود يغطي فستانها من نفس اللون، وتبشنق وجنتيها ورأسها بطرحة سوداء تغطي رقبتها وتتسدل على صدرها، فأضفي ذلك عليها وقاراً، زاده آثارُ السن البادية عليها.

عندما أخبرتهم في ضيق أنها أمي، نكسوا نظراتهم، وإن لم يختف عجبُهم من زيارتها المفاجئة، وهم غير معتادين على زيارة النسوة من ذويهم.

كنتُ قد تشاجرتُ مع أبي من عدة أيام، وأخذت حقيبة مليئة بالملابس وبعض كتبي، وأقمت بسكن العزاب بالوحدة. كان أبي يريدني أن أساعد أمي في مصروف البيت، وأنا أتلكأ. أود شراء بعض الملابس الجديدة، لأظهر بشكل لائق أمام زملائي من الموظفين؛ ولم يكن مضى عليَّ الكثيرُ في العمل.

رفضتُ العودة برفقتها، حتى لا أبدو كطفل مارق، اصطحبته أمُّهُ بعد أن أبرزت له العينَ الحمراء؛ لكني وعدتها بالعودة في أقرب فرصة. وطلبتُ من أحد الفراشين توصيلها إلى المحطة.

واستطعتُ أن أحل المشكل، أسهمُ في المصروف، وأشترى ما أريدُ، في الوقت نفسه. دلني صديقٌ على خيّاط يشترى أقمشة بدل صوفية من شركة المحلة الكبرى للغزل والنسيج، ويفصله لمن يريد، بالتقسيط المريح. فصلتُ عدة بنطلونات، وجاكت، ولم يزد القسط عن جنيهين، شهرياً. بعدها، حزمت أمري على العودة إلى البيت. وفي الحقيقة، فقد أنقذتني زيارة أمي. حقاً، كنتُ أقيم في سكن العزاب مجاناً،

فالوحدة مجهزة بهذا السكن، حيث يقيم العاملون بها؛ ولكن في الليل، تهاجمنا جحافل البعوض، بأحجام مخيفة، تطن وتزن. وكان معاون الوحدة المقيم، وقد بتُّ ليلتي الأولى، قد ضحك مني، وأعطاني علبة (فليت) ورشاشة، وأوصاني برش حجرتي قبيل الغروب، وألا أفتح باباً أو شباكاً حتى الصباح. عملت بوصيته، وكدتُ أختنق. واربتُ ضلفتي شباك لتهوية الحجرة، فهجم البعوض، ولم يكن هناك بدٌّ من رشه، ومرافقة المعاون إلى مقهى في مدخل القرية، نلعب الدومينو حتى ساعة متأخرة من الليل، ثم نعود إلى الوحدة، ويذهب كلٌّ منّا إلى مخنقته.

وخفف عني في الصباح إحضارُ إمرأة بهيمتها. وعادة ما يكونُ هذا اليوم عامراً بالفكاهة. يجتمع العاملون من المركز الاجتماعي الذي أعملُ به، ومن قسمي الوحدة الآخرين، المستشفى والمدرسة، من رجال ونساء، لنشاهد عملية الإخصاب من فحل الوحدة المستورد. أحياناً لا يثبتُ فوق البهيمة

- خائب ..

يمسك (الكلاّف) الفحلَ ليظل فوق البهيمة بعد وثبته عليها؛ وينتظر، في صبر، حتى ينهي مهمته؛ وأحياناً تنزلق البهيمة من تحته ..

- اركزي، يا بنت اللاوندي ..

ثبتت وقد جحظت عيناها ..

- يا عيني على الشابة ..

نعرت البقرة ..

- حقك عليَّ يا ضنايا ..

ثم يباركون لصاحبها، أو لصاحبتها، ضاحكين:

- بالرفاء والبنين ..

و ... ها .. ها .. ها ..

وفي عصر هذا اليوم، الخميس، حيث قررتُ العودة، لمحتُ المعاونَ يعبّئ شنطة (فيبر) كبيرة بالخضروات. أفرغتُ في كيس

بلاستيكي ملابسي من شنطتي، وناولتها للمعاون. لم ينبس، وعبأها بالخضروات. وعندما فتحتها أمي ووجدتها ملأى بالفلفل الأخضر والباذنجان والطماطم، ابتسمت في دهشة، وخلتها تستنكر ما فعلت، لكنها لم تعلق. وكررتُ الأمرَ عدة مرات، ثم استبوختَه.

* *

ومن عدة أعوام، كنتُ ماراً بطناح، في طريقي إلى دكرنس، لحضور ندوة هناك، والتفت إلى الوحدة. بانت لي خربة، مبانيها تشكو عزلة، ومطبعة بالسواد، وقد تهدم سورُها. ولاحتِ مني نظرة إلى خط السكة الحديدية (الفرنساوي)، الذي كان يمر قريباً منها، وكثيراً ما كنا نشير إلى سائق القطار (عزيزة)، فيوقفها لنا – قبل المحطة بدقيقتين – لنصعد؛ وكثيراً ما كان السائق يفعل وحده، ليأخذ حزمة من الخضروات أعدها له أحد الفلاحين في الغيط الملاصق للخط، أو ليفك ماءه.

نزعوا القضبان، وألغوا الخط، وكذا خطين آخرين، واحد إلى دكرنس من طريق آخر، والثاني يصل إلى دمياط. وانفكت العروة الوثقى بين القرى، من جهة، وبينها وبين المدينة، من جهة أخرى؛ فالباصات لا تفي بحاجة الزيادة السكانية،ولا تحمل سمك بحيرة المنزلة في البكور إلى المنصورة بسعر زهيد، ولا تتسع لمحصولات الفلاحين التي يُسَوقونها في المدينة، محملة في زكائب وقفف.

وسكك حديدية الحكومة، التي استولت على السكة (الفرنساوي)، اصطنعت لها طريقاً آخر لدكرنس، لا يمر بتلك القرى الصغيرة والنجوع. وبدلاً من تطوير الخطوط البدائية، نزعناها (نحن ثاني بلد في العالم بعد إنجلترا أنشأنا السكك الحديدية).

ترى، ماذا كان يحدث لو اشترينا عربات مترو، وكهربنا الخط. ألم يكن ذلك يوفر الوقت، وينظم المواعيد، ويجعل العاملين في الريف يتأنون في عملهم، بدلا من إنهائه بسرعة على أمل اللحاق بالباص، وعلى أمل ألا يكون مزدحماً، مع أنه يكذب أملهم، ويتأخر، دوماً،

ويُقبِل مزدحماً، فيضطرون لحشر أجسادهم داخله، بعد أن يكونوا قد لطِعوا على الطريق، أو في مقهى قريب، ساعة أو ساعتين.

وكم خسر مرفق السكك الحديدية من ملايين الجنيهات بإهماله الجسرَ، الذي كان معداً بالفلنكات الخشبية، فسرقها الناس، ونزعوا القضبان، ونمت مكانها حشائش ذات إبر شوكية، وحلفا.

نغمشة الحب

بعد توقف العدوان الرباعي، عدتُ إلى المنصورة.

وفي تلك الأثناء، أعلن ديوانُ الموظفين عن مسابقة لشغل وظائف لحملة الثانوية العامة في مشروع جديد في الريف، اسمه الوحدات المجمَّعَة، يتبع رئاسة الجمهورية مباشرة. وكان تقديم الأوراق في مجلس الشيوخ، الشورى الآن.

سلمتُ السلاح والذخيرة؛ وكما سبق أن أوضحتُ، لم يسلمنا أحدٌ شيئاً، ولم نوقع على أية عهدة. كان السلاحُ متاحاً لمن يريد. والغريبُ، أنه لم يقع أي حادث نتيجة لوجود السلاح في أيدي المواطنين؛ والأغربُ، أن الجميع سلموا السلاح والذخيرة إلى أقرب معسكر لتدريب الحرس الوطني.

لكني استخسرتُ البطانيتين، فاحتفظتُ بهما. وعندما أعلنت المسابقة، ولم تكن معي رسوم التقديم ونفقة السفر، فقد بعتهما.

ونجحت في الامتحان بترتيب متقدم، وخيروني في مكان العمل، فاخترتُ الدقهلية، محافظتي. وفي المجلس الإقليمي للوحدات المجمعة في المنصورة، خيروني، فاخترت (طناح)، لسهولة مواصلاتها، من جهة، ولأن بها مدرِّسة من حيِّنا، شقيقة لسجين شيوعي بالواحات الخارجة، سمعت عنه ولقيته بعد خروجه. وكان لي مأرب في التعرف عليها، كسكة لشقيقتها الصغرى، التي أحببتُها؛ وكانت بطة نزقة؛ تتقافزُ فوق

الأرض في مشيتها، من فرط حيويتها، وخفة دمها. شعرها فاحمٌ، تلمه في ضفيرة تصلُ إلى خصرها. وكانت مصادفاتها عجيبة معي ..

مرة، كنتُ أسيرُ في شارع العباسي، واستوقفتني زفة عروس، والمعازيم في السيارات، التى تسير في موكب؛ وإذا بوجهها ينسلُّ في خفة من نافذة عربة، وتشعُّ عيناها الضاحكتان غزلاً من سكر منفوش، ينتثرُ في حنايا روحي. ويظلُّ القلبُ يخفقُ في ثنايا غزل البنات بلون قوس قزح، أياماً.

حتى تنبثقُ أمامي، فجأة، في شارع ما، وأجدني في مواجهتها، وقد حبسنا أنفاسنا، وتواقفنا .. أبحثُ عن كلمة أقولُها، وهي نصف ضاحكة، تذيبُ خجلها في تحميلي السلام لأمي، فالعائلتان متعارفتان. وكنت مع أولاد الحي كثيراً ما نجتمعُ عند بيتها ونتسامرُ، وهي خلف الشيش، تصغي لترّهاتنا. وكنتُ، لا أدري لماذا، أتفوه بكلام لا أعنيه، كأن أقول أنني لن أتزوج الآن، أو أن زوجتى لابد أن تحمل صفات، أبعد ما تكون عنها، وكأني أهشها بعيداً .. وهذا آخرُ ما كنت أريده. وعندما أحس أنها غادرت مكمنها في الدور الأرضي الخالي، إلى الدور الثاني، حيث مسكنها مع أمها وأخواتها، أنسلُّ من الأولاد، وأتطلعُ إلى أعلى.

كانت تقف دوماً في الشرفة، تنظر إلى الرائح والغادي؛ وأرى من السياج الحديدي المفارق عمودين من رخام ناصع البياض، ملفوفين ببضاضة سخية، أكادُ أستشعرُ دفئهما ونعومتهما.

وأحياناً كانت تصعدُ إلى السطح، وتطلُّ من ناحية واجهة البيت، وأقفُ عند بقال مجاور، وينسابُ من راديو عنده:

"على قدّ الشوق اللي في عيوني يا جميل سلِّمْ .."

ومع هفهفة صوت عبد الحليم حافظ، المفعم براءة ونعومة دافئة، وكان شجنه ما زال مستتراً، أطيرُ مع زغب الشوق .. تحملني ابتسامتها، وتسكرني غمازتاها، وتنغمشان عينيّ بألوان وردية.

وعندما أُفرج عن شقيقها في هذه الفترة، صارحته بالأمر، فقال لي إنها غبية ولا تصلح لك. لسوء الطالع، حصلتْ على الإعدادية بالعافيـــة، ولم تكمل المشوار.

وحكّمتُ عقلي، ويا ليتني ما حكمته ..

أنا موظف جديد، ومازلت أقولُ يا هادي؛ وصافي راتبي أحد عشر جنيها، فكيف أُجهز شقة، أو أستأجرها دون مقدم أو خلو رجـــل، وقـــد أطلت أزمة المساكن برأسها في حياتنا، فهل ستنتظر، وهـــل سيصـــبر أهلها حتى أستطيع. أضف إلى ذلك أني انخرطتُ وسط الشيوعيين، وقد يُقبض عليَّ في أي وقت؛ فماذا أفعلُ، وتفعل، وهي لا تعملُ ؟!

وحتى الآن، تخايلني صورتُها وهي تتقافز، وأتساءلُ: كيف عاشت حياتها؛ وأتخيلني لو عشتُ معها، ومبلغ الحنان الـــذي كانـــت ستســـبغه عليَّ!!

ظللتُ طوال عام ١٩٥٧ أنتظرُ مالا يجئُ، دون أن أتقدم خطوة في الحب أو الزواج، وأشغلُ نفسيَ بالعمل في الوحدة المجمعة، حتـــى هـــل عامُ ١٩٥٨؛ وكنتُ أستقلُ الباص ذهابـــاً وعـــودة، وأحيانـــاً (الـــديزل الفرنساوي)؛ وفي شارع الباص محل خياط، صاحبه مـــن قريـــة أبـــي، (ميت الصارم)، تقع في بداية طريقي إلى طناح. كنـــتُ أفصـــل عنـــده قمصاني. ومرة، وجدتني مشدوداً إلى فتاة تجلس أمام مكنـــة الخياطـــة، يشعُ من ملامحها الهادئة ظرفٌ، ووجهُها مبتسم دائما، وشعرها الكموني سائب، ويصلُ إلى منتصف ظهرها. عيناها عسليتان، وصدرها راسخ.

كنتُ مجرد متأمل، إلى أن جاءت مرة من بيت مجـــاور، أغلـــب الظن به دورة مياه، تستخدمها عند الحاجـــة. وســـألت عـــن الأســـطى، ومددتُ يدي بالسلام لأنصرف، فإذا بها تتردد .. وكانت تسلم بتلقائية.

في ومضة كهربية، تلقيت رسالة .. أنني أعني شـــيئاً لهـــا؛ فقـــد ترددت، لعل يدها لم تجف تماماً بعد غسلها، والتقت نظراتنا ..

سحبتُ يدي خجلاً، وانصرفتُ، وقد نالت مني حلاوة نظرتها، وانطبع في داخلي ترددها. وصرتُ، كلما نزلتُ من الباص، عند عودتي من العمل، أبحث عن حجة لأدخل المحل، خاصة لو لحظت غياب صاحبه. ونتبادل الابتسامات والكلمات ..

خفق قلبي .. وأخذتُ أحسبها .. وألف لعنة من حساباتي ..

الفتاة ذات جمال فلاحي ريان. جسدها فائر. هل ستستمر في العمل بعد الزواج ؟، أم أنها مثل بعضهن يعتبرن الزواج فرصة لتخلع منه، خاصة وأغلب أصحاب المحال يبخسونهن حقوقهن. هل أشتري لها مكنة خياطة تعمل عليها في البيت ؟. أجمعُ، وأطرحُ، وأحبذ، وأرفضُ .. حتى قُبِضَ عليَّ في العام التالي.

وبعد أن خرجت، حمتُ حول المحل، لا أرى لها أثراً. وحتى الآن، إذا ما تصادفَ ومررتُ في الشارع، أقتربُ من المحل. مات صاحبُه، وورثه ابنُه، وغيَّرَ واجهته، ويغلبني الحنين، وأنظر ..

حاملُ المجلَّة

في عام ١٩٥٧، عندما كنتُ عضواً في الحزب الشيوعي المصري الموحَّد، كُلِّفتُ أن أحضر مجلة الحزب من طنطا لتوزيعها في المنصورة. ذهبتُ في الموعد، وأخذتُ المجلة. كانت تحوى صفحات قليلة، في حجم صفحات الكراس، وبها افتتاحية وتعليق على الأحداث الجارية، ومقال رئيسي يحلل الموقف السياسي، وموقف الحزب مما يجري، وأخبار عن نضال العمال والفلاحين وباقي طبقات الشعب، وكذا أخبار النضال العالمي، وما تحققه الشعوبُ من مكاسب.

أخذتُ الأعدادَ، ووضعتُها فوق بطني، نصفها أسفل البنطلون، ونصفها الآخر تغطيه سترتي. وفي الشارع المواجه لمحطة السكك الحديدية، وهو دائماً مكتظ بالناس، إذا بما فوق بطني على الأرض.

اضطربتُ، وأخذتُ أجمعُ الأعداد، وأسرعتُ إلى شارع جانبي. وجدتُ في طريقي مسجداً له ميضأة، ملحق بها دورات مياه، ولحظي، كانت مفتوحة، ولم نكن في وقت صلاة. دخلتُ إحداها، وأصلحتُ من وضعي، وسرتُ محاذراً.

وفي محطة المنصورة، كانت في انتظاري مفاجأة أخرى. المخبر عطية على الرصيف. هل هو في انتظاري ؟. أم أنها مجرد مصادفة ؟. وهل هو وحده، أو ضمن كمين ؟.

لو لمحني أحاول التزويغ سيشك في الأمرلو كان حضوره مصادفة.

أخيراً، وجدتُ أن أسلم طريقة هي أن أسلم عليه وأتضاحك معه، كما أفعل أحياناً عندما ألتقيه عرضاً في الشارع، أو في ندوة أدبية أو ثقافية في قصر الثقافة، حيث يأتي لمتابعتها وكتابة تقرير عنها. وبالرغم من حضوره من البداية حتى النهاية، يسأل من يستلطفه، أو من لا يكون على معرفة به، عما قيل. كنا نشبعه تريقة، ونشير عليه بما يكتبه. وكثيرا ما جادلته، فما يفعلونه يجافي حرية الناس، فيقول إنهم لا يستطيعون ترك الناس تفعل ما يحلو لها، وإلا يصبحون فيجدون الفأس في الرأس.

أقبلتُ على (أبو عطوان)، كما كنتُ أناديه، وصافحته بحرارة. برقت عيناه بدهشة، فخمنتُ أنه يتعجبُ، من أين طلعتُ، وما الذي أتى بي في هذه الساعة من صباح أول يوم في عيد الأضحى. فوَّتُ عليه السؤال، فمازحته، وسخرتُ منه ومن ضباطه الذين لم يريحوه في يوم كهذا، بينما هم يعيدون ويتمتعون بأوقاتهم. وغادرتُ مودعاً، دون أن أصدق بانفلاتي منه.

سلمتُ نسخ المجلة لمن سيوزعها على باقي الزملاء والأصدقاء، واتجهتُ إلى منزلي. كانت مخلفات الذبائح تملأ الشوارعَ .. فضلات العجول والخراف التي ظلت في أمعائها، وبقايا طعام مهضوم ونصف

مهضوم، تقزز العين وتثير روائح كريهة، إضافة إلى رائحة الدم الخانقة المراقة أرضاً؛ ورصات من جلود العجول بعد سلخها، تربك مرور المشاة، وتسد الطريق أمام العربات، فتضطر للاستدارة بحثاً عن طريق آخر، فترتبك حركة السير أكثر.

وتخلص بعض الجزارين من المخلفات بإلقائها في البالوعات، فسدت وطفحت. غرقت بعض الشوارع، وحاصرت المياه بعض البيوت، رأيت الداخلين إليها يخلعون نعالهم. تلوث حذائي، فطويتُ رجلي بنطلوني من أسفل.

أكتب هذا الفصل في آخر أيام عيد الأضحى، في الحادي عشر من ديسمبر ٢٠٠٨، ونفس المنظر يطالعني كما هو؛ وزاد عليه قراءتي في الجرائد عن اجتماع علماء أفاضل في مكتبة الإسكندرية ووضعهم (روشتة للإصلاح). وبالرغم من هذه (الروشتة)، ما زالت المجاري تحاصرُ بيوتَ الناس، وهات يا تليفونات للمسئولين، ويا بك، هذا عيد، كل سنة وأنت طيب؛ وترد شرطة النجدة: حاضر، عربة الكسح في الطريق إليك؛ ودائماً تضل الطريق. وترد الوحدة المحلية: العمال سيسلكون البالوعة حالاً. وبعد قليل: العنوان لو سمحت .. وتسمح، ولا حياة لمن تنادي.

* *

وأنا في الطريق، ألمحُ جمهرة هنا، وأخرى هناك، حول أبواب بعض البيوت؛ والجميع يتدافعون، ويتصاعد صراخهم، وتمتدُ أياديهم، كل واحد يحاولُ الحصولَ على لفافة من اللحم.

وما زال هذا المنظر يطالعني في كل عيد أضحى، وقد زاد عليه نساءٌ متشحات بعباءات وطرح سوداء، انزعجتُ عند رؤيتهن أول مرة، وظننتُ أن أحداً مات. وحدث مرة عند بوابة ذات قوائم طولية من الحديد، بينها دوائر بشكل زخرفي، لمحتُ عطية بجسده المبقلظ، ورأسه

المغروز بين كتفيه، يحاول الوصول إلى البوابة، وهو يزعق: والله العظيم ما أخذت.

بينما امتدت يدُ رجلٍ من بين القوائم، تدفعه في ضيق.

"شكوكو " .. بزجاجة !

في صيف عام ١٩٥٨، عندما كنتُ أعمل مندوباً للصرف في الوحدة المجمعة بقرية طناح، على بعد حوالي ١٠ كيلومترات من المنصورة، علمتُ أن فرحاً في (النسيمية)، إحدى القرى التابعة للمجلس المحلي بطناح، سيحييه (محمود شكوكو).

واتفقنا على الذهاب، طبيب الوحدة، وضابط النقطة، ومعاون الوحدة، وأنا. ولست أدري كيف انزنقنا في عربة (ستروين)، يملكها ويقودها مفتش الصحة.

كنت في شوق لرؤية الرجل الذي صنع الناسُ له تماثيل من الجبس، بجلبابه البلديِ المشمر قليلاً فوق حزام في وسطه، ويضع على رأسه طرطوراً طويلاً. وكانوا يبيعون تماثيله على عربات اليد الخشبية، يزعق من يزقها:

- " شكوكو بزجاجة .. شكوكو بزجاجة .. "

ويغسلون هذه الزجاجات مختلفة الأحجام، ويبيعونها للمترددين على مستشفى المنصورة العام في آخر شارع البحر (النيل)، من ناحية الغرب، حيث يصرفون لهم فيها دواءً لجميع الأمراض، إما حديد وزرنيخ، سائل يميل إلى الاحمرار، وإما (راوند) أو (سلسلات)، سائل أصفر خفيف، مثل بول الأطفال.

وفي المساء، ذهبنا إلى النسيمية، تتبختر بنا الستروين في طريق ترابية ضيقة ملتوية، وأقل سهو قد ننزلق إلى ترعة مجاورة للطريق، أو إلى الأرض المروية؛ وأنا غافل عن ذلك، أتعجل الوصول لرؤية الرجل

الذي طالعتني في السينما خفة دمه، وحيث شكل ثلاثياً طريفاً مع إسماعيل يس وشادية، في بعض الأفلام، ومع سعاد مكاوي ذات الصوت الناعم الساحر، في أفلام أخرى.

وبعد قليل من وصولنا سرادق الفرح، حضرت الفرقة الموسيقية والراقصات والمغنون، ولم أر شكوكو بينهم. وأجرى الموسيقيون بعض التجارب على بعض الأغنيات، وهي في العادة لكبار المطربين والملحنين.

جلستُ قريباً منهم وهم يؤدون موسيقى أغنية (بتلوموني ليه) لعبد الحليم حافظ؛ وكانت هذه الأغنية قد حازت شهرة كبيرة، خاصة بيننا نحن الشباب؛ وكل من هفت نفسه إلى حب فتاة، تمنى أن تكون ذات (شعر حرير على الخدود يهفهف ويرجع يطير)، كما يشدو عبد الحليم.

ولحظت إعادتهم جملة موسيقية عدة مرات، يبدو أنها كانت (قفلة)، وسمعت قائدهم يحثهم على الاستمرار في الإعادة، لأن موسيقى هذه الأغنية صعبة.

وبدأ الفرح ...

وتوالى المطربون والمطربات والراقصات ..

وحتى الثانية بعد منتصف الليل، ولم يظهر شكوكو. شككتُ أن يكون قد جاء إلى هذه القرية على شمال العالم. وتسكعتُ خارج سرادق الفرح، أشم هواءً وأتنسم بعض الأخبار. فوجئتُ بشكوكو يجلسُ في جنب خلف السرادق، ونفرٌ من أصحاب الفرح يمدون له غابة الجوزة، مرة بعد أخرى، بعد أن يعيدوا تلقيم النار المتوهجة بتعميرة معتبرة من الحشيش، الذي فاحت رائحته في الهواء.

وعندما صعد إلى خشبة المسرح المنصوب في مؤخرة السرادق، كانت عيناه حمراوين، لكنه كان مشعاً، تلفه حالة من النشوة، وغنى: "حموده فايت يا بنت الجيران"، و "حدارجه بدارجه"، إلى آخر الأغنيات التي اشتهر بها؛ وهو يرقص وينط في صهللة.

وعندما بدأ الإرسال التليفزيوني في أوائل الستينيات، كانوا يبثون حفلاً لـ "أضواء المدينة "، شهرياً؛ وكان يشارك فيه شكوكو؛ وكثيراً ما كان يرتجل مواويل أو قفشات، غير مرتبطة الكلمات، والحضور يضحكون .. علام ؟ .. لست أدري. تضحك أختى زينب، وتقول:

- على فكرة .. شكوكو يخرف

أبادلها الضحك؛ وتعود إلى مخيلتي جلسته، والغابة ممدودة إلى فمه؛ والدخان الأبيض يحوم حوله في الهواء.

الكمين

وأنا أعبر بوابة قسم ثان المنصورة، إذا بشلوت ينطرني عدة خطوات. تكعبلت وكدت أفقد توازني، وأشفع مفتش المباحث العامة شلوته بالقول:

- رفقنا بحال أبيك ولم نعترض على تعيينك.

هل يعايرني بمهنة أبي. وشفقة تم تعييني، وليس من أجل نجاحي في مسابقة للتوظيف، وأن من حقي العمل.

وكان، وما زال، أي متقدم لوظيفة يرسلون أوراقه لمباحث أمن الدولة للإدلاء برأيهم. مكثت في حجز مظلم عدة ساعات، قبل أن يحضر وكيل النيابة. أخذوني إلى حجرة المأمور بعد أن أخرجوه منها. وعندما جلست، وجدت المفتش يقبع في ركن. وقانوناً، التحقيق في مراكز الشرطة ممنوع، وكذا حضور أي ضابط عادي أو من المباحث، حتى لا تكون هناك شبهة ضغط على أي متهم.

تجاوزت عن المكان، أما المفتش، فلا.

أفهمني وكيل النيابة أن البك لن يتدخل، وأنه جالس للمتابعة فقط. أصررت على رأيي، فتطلع إليه وكيل النيابة، بما يعني أنه لابد من مغادرته. نهض بكيانه الضخم وكرشه المشدود، وهو يمطرني بنظرات نارية مفعمة بالغيظ.

وبردت ناري. رددتُ إليه شلوته، دون أن يستطيع حيالي شيئاً.

وهذا اليوم لا أنساه أبداً: ١٩٥٩/٤/١٩؛ يوم القبض عليَّ. وقبل ذلك، في ١٩٥٨/١٢/٣١، تم القبض على قيادات الحركة الشيوعية من الصف الأول، بعد أن كشفوا أنفسهم للسلطة.

في الثامن من يناير عام ١٩٥٨، توحدت ثلاث تنظيمات كبيرة في حزب واحد، باسم (الحزب الشيوعي المصري)؛ وهذه التنظيمات هي: الحزب الشيوعي الموحد، الذي تكون من (حدتو) – اختصار اسم تنظيم الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني – وبعض التنظيمات الصغيرة في فبراير ١٩٥٥، وحزب الراية، الذي كان يسمى أيضاً الحزب الشيوعي المصري، وحزب طليعة العمال والفلاحين. وسرعان ما حدث خلاف في الرأي. فريقٌ رأى في سلطة عبد الناصر دكتاتورية عسكرية، ويجب إسقاطها، وبالتالي لا يمكن التحالف معها، وعارضوا الاتحاد القومي (تنظيم السلطة)، وكذا الوحدة المصرية السورية؛ وكان أغلبه من تنظيمي الراية وطليعة العمال. وفريقٌ رأى في عبد الناصر سلطة وطنية معادية للاستعمار، ويجب إقناعها وكافة القوى الوطنية بعمل جبهة موحدة للتصدي لإسرائيل وأمريكا، وتبني المطالب الشعبية، مثل زيادة الأجور وتحسين مستوىً المعيشة وإطلاق كافة الحريات والمطالبة بالديموقراطية؛ وقد انشقَّ هذا الفريق بقيادة كمال عبد الحليم وشهدي عطية الشافعي وأحمد الرفاعي السيد، ومعهم أغلب أعضاء حدتو، سابقاً.

وقد لَقَّبَ الفريقُ الأولُ الثانيَ بـ (الانقسام)، ولقَّب الأخيرُ الأولَ بـ (التكتل).

وكان التكتلُ أغلبية، ففضلاً عن احتفاظهم بأعضاء تنظيمين سابقين، بقي معهم زملاء من الموحد، بحجة ضرورة المحافظة على حزب واحد، والنضال من داخله ضد أي خلاف. واحتفظت الأغلبية باسم (الحزب الشيوعي المصري)، وأحيانا يطلق عليهم آخرون اسم (حزب ٨ يناير)، وتسمى الانقسام بـ (التيار الثوري)، وإن كانوا يعدون أنفسهم الحزبَ الشيوعي المصري، وكنتُ من أعضائه.

وحدثت مهاترات قبل ليلة رأس السنة المشئومة، في محاولة كل فريق استقطاب أكبر عدد من الأعضاء، تخللتها شتائمُ وتبادلُ الاتهامات بالبوليسية والعمالة. وحدثت زيارات في البيوت، ومناقشات في المقاهي والنوادي، والشوارع أحياناً.

جاءني عبد المنعم شتلا، وكان من قادة الموحد، ووقف يجادلني أمام بيتي في المنصورة ما يقربُ من ساعة، أمام الغادي والرائح. ولم يعد أحدٌ يراعي قواعدَ الأمان وهو ينتقل من بلد لآخر لمقابلة القواعد الحزبية. قدموا أنفسهم بأسمائهم الحقيقية، ضاربين عرض الحائط بأسمائهم الحركية. كان كل زميل يختار لنفسه اسماً حركياً يعرف به بين الزملاء، ويكتب في محاضر الاجتماعات، فإذا وقعت هذه المحاضرُ في يد الشرطة، لا يتعرفون على صاحبها، وكذا إذا تعرض عضوٌ للتعذيب، لن يمكنه الإعتراف على أحد.

وتكشَّفَ كلُّ ذلك لرجال الأمن، الذين تبعوا حملة ديسمبر بحملة أخرى في مارس ١٩٥٩، أمسكوا فيها الصف الثاني من القادة. ولقد تأخروا في القبض عليهم ليتيحوا فرصة تتجمع حولهم قواعد قد لايعرفون عنها شيئاً، أو قد تكون هاربة.

وبعد ذلك، قام الأمنُ بضربات متفرقة في شهر أبريل، للإمساك بالذين أفلتوا من حملة مارس، تاركين – كالعادةِ – بعضهم، عسى أن يتصل بهم أحدٌ من التنظيم غير معروف لهم. وقُبِضَ عليَّ في ضربة من هذه الضربات.

* *

بعد حملتي رأس السنة ومارس، ركن كثير من الزملاء، إلى الهدوء؛ لكني عددتُ ذلك غير لائق أخلاقياً. اتصلتُ بمن أعرف من الزملاء، وبادر آخرون بالاتصال بي، بعضهم لا أعرفه جيداً. ولذلك، كان من السهل على رجال الأمن أن يدسوا من يشاءون. واتصل بي أحدُهم يبلغني أن عنده رونيو خشبياً. كتبتُ منشوراً وأعطيته له لطباعته؛ وكان الاستلام على مقهى بميدان المحطة بالمنصورة، بعد المغرب.

ذهبتُ، وإذا بالمباحث في انتظاري.

قبضوا عليَّ، وتركوه يذهب.

وكان المنشور يطالب بالإفراج عن السجناء السياسيين، وبالحريات والديموقراطية، والوقوف جبهة واحدة ضد العدو الأمريكوإسرائيلي؛ وذيلتُ المنشورَ بـ:

عاش كفاحُ الشعب المصري

عاش جمال عبد الناصر.

أميرُ البرين

لوَّحَ وكيلُ النيابة بالمفكرة أمام عيني، وسأل:

- هل هذه مفكرتك ؟.
- نعم ..

فرَّ صفحاتها، ووضع علامة عند بعضها، وناولها لي لأنظر فيها. سأل:

- هل هذا خطُّكَ ؟.
- نعم
- مكتوبٌ في صفحة يوم ١١ من فبراير عام ١٩٥٣ كلمة (حدث)، وأمامها بالإنجليزية one secret، أي (واحد سري)، فماذا عنيت بذلك.

تطلعتُ إليه في دهشة، ولم أستطع النطق.

- ووردت في صفحات أيام ٢٥ فبراير و ١٠ مارس و ١٧ مارس، من العام نفسه، العبارة ذاتها، فما هو تفسيرك لذلك ؟.

انتابني الضيقُ، فهذه المفكرةِ، واثنتان أخريان أمامه، سجلتُ بها بعض أفكاري وما مرَّ بي أو فعلتُه من أحداث خاصة، لا أحب أن يطلع عليها أحد. (وسبق أن أشرت لذلك في عجالة في كتابي "أوراق أدبية"). وعاد الرجلُ يذكر باقي الأيام التي حدث فيها "one secret"،

وأنا عاجز عن الإجابة. كنتُ، في تلك الفترة، أمارسُ العادة السرية، وكان المشرف الاجتماعي في المدرسة الثانوية قد حذرنا من الإكثار من مزاولتها، وأيضاً هناك من حدثني أنها حرام جداً. فكنتُ كلما مارستها أحسُّ بالذنب، وأنوى بعد كل مرة أن أقلع عنها، دون أن أستطيع؛ فقررت أن أسجل في مفكرتي عدد المرات، لكي أعرف معدل ممارستي، لعلي أنجحُ في التباعد بين كل مرة وأخرى. وخجلاً من اطلاع إخوتي على المفكرة، كتبتُ اللفظين الدالين على الفعل بالإنجليزية.

- ورد بالمفكرة لعام ١٩٥٤، في صفحات أيام كذا وكذا، وفي مفكرة عام ١٩٥٥، في صفحات أيام كذا وكذا، اسما "بلبل" و"اسطفانوس"، فمن هما ؟.

- زميلاي في المذاكرة ...

- هل يوجد زميل دراسة باسم بلبل ؟!.

ارتجَّ عليَّ، وقد أدركتُ ما ظنه. إنهما اسمان حركيان لزميلين في التنظيم. وحاولتُ أن أشرح الأمر. إن هذين، وغيرهما من أسماء مماثلة، نتبادلها على سبيل الود، كأصدقاء. عاجلني:

- ومن هو أميرُ البريَّن ؟.

أصبتُ بالسكتة النطقية، فضغط أكثر:

- من هو سلطان الحي ؟!.

كنا في شلة المذاكرة نخلعُ على بعضنا بعضاً ألقاباً من باب الفكاهة والمزاح، وعندما أكتب عنهم في مفكرتي، أذكرهم بألقابهم. ووكيل النيابة، وقد مال برأسه في مواجهتي، فبانت صلعته متسعة، ومصوباً ناظريه إليَّ، حتى لا أستطيعُ فكاكاً، وبانت كتفاه عريضتين، تسدان عليَّ الطريق. التزمتُ الصمت، والمحقق يحذرني من مغبة الاستمرار في ذلك.

وكان ضمن المضبوطات رسائل من أصدقائي، تبدأ بـ "أبو الفؤادين"، أو "أبو الفؤادات"، أو "عزيزي فؤش".

- هذه الأسماء لك ؟.
- نعم ..
- وما هو المقصود بـــ (فؤش) ؟.
- لا شئ ...

وورد في رسالة أننا، بعد مباراة في الكرة الشراب، فزنا فيها على فريق الأسد المرعب، ناموا من المغرب.

- من هو فريق الأسد المرعب؟.
- فريق كرة القدم بشارع الترب.
- وما المقصود بـــ (ناموا من المغرب) ؟.
- أي لم نرهم بعد المباراة.
- هل المقصود بعد أن يسيطر تنظيمك على الحي سيجعله ينام من المغرب ؟.
- لا ...
- هل الأسد المرعب اسم لتنظيم سياسي ؟.
- لا ...
- الإنكار لن يفيدك ..
- .. ..
- هل لديك أقوالٌ أخرى ؟.
- لا ...

وأغلق المحضر ساعة تاريخه، في الخامس والعشرين من أبريـــل، عام ١٩٥٩، بسراي نيابة أمن الدولة بالمنصورة.

واستدعي الحرس الذي سيصحبني إلى قسم الشـــرطة، علـــى أن يستكمل التحقيق في اليومِ التالي.

وكنتُ قد اعترضتُ في الجلسة السابقة على سوء معاملـــة ضـــباط القسم لي، ووضعي في الحجز مع المجرمين العاديين، حيـــث التكـــدس والقذارة، وانتشار البق، ودورة مياه ملحقة بـــالحجز، رائحتهـــا منفـــرة، تعافها الحيوانات، فطلب مني أن أنقل عن لسانه أن يحسنوا معاملتي.

وقبل أن أذهب، كررتُ شكايتي، وأخبرتُه أني حادثتُ الضباطَ عن لسانه، فسخروا مني. نهض عن كرسيه، وقال:

- بعد أن ينتهي التحقيق، سنرسلك إلى السجن ...

الدكتور سلفا

ومن سجن المنصورة إلى سجن مصر. وكل عدة أسابيع، نذهب لاستكمال التحقيق في نيابة أمن الدولة العليا، بمبنى محكمة الاستئناف في باب الخلق. وكنت أحبُّ هذه الرحلة، فالعربة تسير في شارع محمد علي، بحذاء الترام الحافل بالرجال والنساء في طريقهم للعمل، وعلى الجانبين باعة الفول المدمس، أمامهم عرباتهم الخشبية، ونسوة وأطفال يمدون أوعيتهم، والكبشة رائحة غادية بينها وبين القدور فأحس بالحياة تنبض من جديد ..

* *

وخفف من وحشة سجن مصر بعضُ شخصيات التقيتُها، والحميمية التي سرت بيننا، والصداقة التي نمت، واستمرت بعد أن خرجنا.

العزيز كمال القلش، ومرحه الدائم، وحبه للقراءة جعله يقتني كثيرا من كتب المكتبة، ويتحفني بها، حيث كنتُ أشاركه الزنزانة مع آخرين. وفي مواجهة زنزانتي، سكن الدكتور شريف حتاتة انفرادياً. سمعت عنه في الخارج، وقرأتُ الكتاب الذي ترجمه عن الجدل لـــ "بابي"، وقد أفادني كثيرا شرحه لقوانين المادية الجدلية، ببساطة تساعد على الفهم. وشدني نشاطُه، فهو لا يهدأ منذ فتح الزنزانات في السابعة صباحاً، حتى إغلاقها قرب الغروب. يعالج المرضى، ويتفاهم مع رقيب الدور، ويحل أية مشاكل بيننا وبين إدارة السجن، خاصة فيما يتعلق بـــ " الحياة العامة ". وهي لجنة مكونة من بعض الزملاء، أطلقنا عليها هذا الاسم؛ ندفع إليها بالطعام والسجائر اللذين يأتياننا في الزيارات مع غيرهما من

الهدايا، ونقوم بتوزيعه بالدور على الزملاء. وعادة ما يصيب الدورُ الزميلَ مرة كل أسبوع، أو يزيد قليلا، فينعم بوجبة مدنية، ولو كان محظوظاً يكون نصيبه من طعام شريف حتاتة، فأسرته الموسرة تحضر له (عموداً) يومياً، لا يخلو من أرز بالكاري، ولحم وفاكهة أو حلوى.، أو من طعام بعض العمال مثل سيد عبد الحميد من باب الشعرية، فالباذنجان بالثوم والشطة، وطريقة الطبيخ الشعبية الحافلة بالبهارات الحريفة. وإذا صادفه سوء الطالع، فيصيبه الدورُ من طعام (ألبير أربيه)، وكانت عائلته اليهودية تمتلك محلاً لبيع الأدوات الرياضية في ميدان سليمان باشا فى القاهرة وطعامه لا ملح فيه. أما ألبير، فكان يتكلم بسرعة، يخطف الكلمات، ولا يكاد يبتسم، وكان صديقاً لشريف، ولا يكف القلش عن مناغشته، حتى يبتسم. وحين نضبطه مبتسماً، ننطلق ضاحكين. ينظر إلينا بعينين ودودتين، ويشرع في الحديث. ونكتشف كم هو طيب القلب. أو يصيبه الدور من طعام لانكهة لـه، خـاص بسعيد الشوباشي (ابن الأديب مفيد الشوباشي)، الذي كنا نسأله عن نوع الطعام الذي لا ندرى كنهه، فيخجل ويتمتم أن جدته تركية.

أما السجائر، فكانت توزع على المدخنين، كل يوم خمس سجائر، تزيد أحياناً أو تقل، حسب المخزون؛ ويحجز بعضها للتعامل مع الإدارة، فلا بد من تظريف رقيب الدور ومساعديه بها وبجزء من أفضل الأطعمة التي تأتينا، لسد بطونهم الواسعة.

والسجائر هي عملة السجن، نشترى بها من السجناء العاديين أية ممنوعات (اخترعتها الإدارة بإيعاز من مباحث أمن الدولة، ولم تمنعها لائحة السجون)، كالشاي والجرائد والمجلات والورق والأقلام.

وكنا في الزيارات نستطيع تهريب بعض النقود، رغم تفتيشنا، لشراء دواء، أو برش وبطانية من رقيب الدور لمريض بالروماتيزم، يعاني من النوم على أرضية مشبعة بالقار، تنخ رطوبة تفلق العظام.

ولم يكن النوم أرضاً متبعاً في السابق.

كان السجين السياسي ينام على سرير، ومتعهد يحضر طعاماً من الخارج للسجناء الذين في الحبس الاحتياطي مثلنا، أي ما زالت قضاياهم منظورة أمام المحاكم. ومن أراد أن يتناول طعاماً مدنياً، فليتناوله على حسابه؛ ولم يكن هذا متيسراً، فأغلبنا من أسر فقيرة، كما كان متعذراً للقادمين من الأقاليم. وكان السجناء من الموظفين يحصلون على نصف رواتبهم، فإذا برأتهم المحكمة، صُرف النصف الثاني.

ألغى عبد الناصر هذا، وجعل وضع السجين السياسي ألعن من وضع القواد وتجار المخدرات، فالسياسي لا يخرج بعد قضاء ثلاثة أرباع المدة المحكوم بها عليه، مثل السجين العادي الذي يحسبون سنة سجنه بتسعة أشهر فقط. كما أن بعضهم يحظى بالإفراج، بعد قضاء نصف مدة العقوبة، في أعياد (الثورة)، إذا كان حسن السير والسلوك، ولم يستخدم سلاحا في جريمته. أما السياسي، فبعد انتهاء مدة عقوبته يصدر بحقه أمر اعتقال.

وبينما باقي السجناء يمرحون في السجن، وبعضهم يعمل في مرافقه، يخترعون لنا (تكديرة)، فيكون إغلاق الزنزانات، والذهاب إلى دورة المياه زنزانة بزنزانة. وكان الدور يصلني بعد الظهر، أذهب وبطني تكاد تنفجر، ومساعد الرقيب يصربعنا ليفتح لباقي زملائنا، ويمنعنا من إغلاق أبواب المراحيض، ليتسنى له مراقبتنا. ومن فرط الرغبة في الانتهاء، تصاب العضلات بالتصلب، ويشلني الخجل، فأعود إلى الزنزانة حانقاً من الغيظ، وخشية من استخدام جردل البول. وكنت أتماسك، وأتشاغل، حتى يهل اليوم التالي.

* *

وكان لا يحلو للزملاء الطلب إلا بعد إغلاق الزنزانات. ولما كان شريف وألبير ومسئول الحياة العامة مطلقي السراح، حتى مغادرة الرقيب ومساعدوه العنبر بعد التمام، وحضور خفر الليل، فقد تعين عليهم تلبية طلباتنا، التي تنهمر من المربعات الحديدية أعلى الأبواب ..

- تلقيمة شاي يا زميل ..
- الكتاب الفلاني من زنزانة رقم كذا ..

يتشعبط القلش على الباب، ويصيح من الشراعة:

- أسبرينة يا دكتور.
- حاضر ..

ولا يكاد شريف يغادر ليلبي طلباً لزنزانة أخرى، حتى يعاود القلش:

- حبة سلفا .. بطني ..

وقبل أن يكمل، يتوقف شريف أمام زنزانتنا. وقد تشعلقت في جوار القلش. يصلينا بنظرات حادة من فوق إطار زجاج نظارته السميك، وقد لاحت على وجهه إمارات ضيق، فقد لبى طلباً لنا منذ قليل. ويغادر قبل أن ينفد صبره، معاتباً دون أن يفقد صوته مودته، ويقول القلش ضاحكاً:

- شوية حنان يا دكتور ..

يلتفت ..

وترتخي نظراته من عينيه الضيقتين، وتبهت القسوة، وتلوح ابتسامة، وقد أدرك أن القلش يود مداعبته، ولا يود حبة السلفا، وتفضي الابتسامة إلى ضحكة تتدحرج بنبرات هادئة، يقطع استرسالها زميل يرجوه أن يفتح له ليذهب إلى دورة المياه.

- ألم تكن في الخارج منذ قليل ؟

وبعد تردد، يعود ومعه الرقيب ليفتح له. ويعيد القلش مقولته التي طالما رددها على مسمعي: أكيد شريف يعمل في الرقيب عبد الغفار حاجة !. نضحك جميعاً فى الزنزانة من المعنى الذي يقصده. أزغر للقلش وأقول:

- حرام عليك، تشنع على الدكتور سلفا (الاسم الذي أطلقناه عليه فيما بيننا، لكثرة معالجته لنا بأقراص السلفا بأنواعها المختلفة: ديازين، وجواندين، وسكسدين ..).

ونستعد لتناول العشاء. أقلب فى الجراية .. أرغفة معجنة ذات بقع محروقة، لا تخلو من حبات رمل وحصى. أحـاول أن أنتقـي رغيفـاً صالحاً للأكل، وتلوح في مخيلتي أرغفة مقمَّـرة على دكـة الرقيـب، يصنعونها في الفرن لمن يدفع، ويهدون بعضها للرقباء، كرهاً.

وينفردُ أحدُنا بكتاب، وآخر يستلقى، والثالث يحـاول أن يتجـاذب أطراف حديث. وفي هدأة الليل، تصلنا أصوات راديو من عزبة السجانة القريبة من السجن؛ وكثيرا ما تسلل إلينا صوت أم كلثوم؛ وكان القلـش يلازمه بصوته الذي لا يسر عدواً ولا حبيباً، خاصة في أغنيتهـا "يـا هاجرني".

- بطّـل يا قلش ...

ولا يبطل القلش، فنهدده بإحضار الدكتور سلفا. وتنطلق ضحكاتنا؛ ويمـرُّ الليل ولا ندري كيف ..

ونستيقظُ على وقع نداءات النسوة خارج السور على السجناء فـي الأدوار التي تعلونا. كنا في الدور السادس، والثاني في عنبرنا، والأدوار الأربعة الأولى تخص العنبر الذي قبلنا.

- البنت راحت المدرسة بعد انقطاع ...
- المحامي طلب مئة جنيه ..
- شاهد الإثبات تعذر حضوره في جلسة الأمس.
- شف حالك أنت يا أخي، ولا تفكر في شئ ..

القفـص

في صيف عام ١٩٦٠، رُحِّـلْـتُ مع زميل في القضية مـن سجن القناطر إلى سجن المنصورة، وانضم إلينا ثلاثة آخرون من معتقل أبي زعبل. وصباح اليوم التالي، أقلتنا عربة شرطة إلى دائرة أمن الدولة في مبنى المحكمة المختلطة، التي ما زالت والحي الذي تقع فيه تحمـل

الاسم ذاته، من أيام الامتيازات الأجنبية، حيث كانت تعقد للأجانب المتهمين محكمة خاصة، يشارك فيها قضاةٌ أجانب إلى جانب المصريين.

ضرب العسكرُ طوقاً حول المحكمة، ومنعوا الأهالي من اختراقه. وغير بعيد، عربات شرطة محملة بعساكر مدججين بالرشاشات، وكذا على ناصية مبنى المحكمة.

كنت وقتها في الواحدة والعشرين من عمري.

وأنا أنزل من العربة، مددت يدي اليمنى المكبلة إلى يد أحد الزملاء بقيد حديدي، إلى مداها وراء ظهرى، لأتيح له فرصة ليخطو خلفي دون أن ينكفئ. تطلعتُ إلى الناس على الرصيف المقابل لمبنى المحكمة. لمحتُ أبي وشقيقتي الكبرى زوجة أحد المتهمين معنا.

صعدوا بنا إلى قاعة في الدور الثالث؛ وعدد كبير من الضباط في غدو ورواح، ولفتت نظري علامات حمراء في مقدمة أغطية رءوسهم .. عمداء، ولواءات ..

والقاعةُ خالية من الناس ..

تفهمتُ الموقف. المباحث العامة اتخذت قراراً بذلك، دون انتظار لقرار رئيس المحكمة. وسوف نرحل بعد الجلسة إلى سجن القناطر الخيرية ومعتقل أبي زعبل؛ وقلنا يحولون بيننا وبين أهلنا، الذين غبنا عنهم قرابة عام ونصف، منذ قبضوا علينا.

أمر أحد اللواءات بفتح القفص في جانب من القاعة، وأشار لنا لندخل. زعقت في وجهه، وقد أفلتت أعصابي:

- لن ندخل القفص ...

فوجئ الرجل، وكأنه لم يتوقع من سنكوح مثلي أن يبعزق هيبته أمام ضباطه وعساكره. هدد وتوعد؛ وراح يكرر علينا أمره. فجأة، علا صوت كاتب الجلسة، ولم أكن لحظته من قبل:

- ستدخل القفص ...

زاد غضبي لتدخله، وصحت:

- لن أدخل القفص ...

تراجع اللواءُ مع ضباطه، وبعد قليل، جاء أحدُ ضباط المباحث العامة، وسألني في لين عما أريد.

- أريد مقابلة أهلي ...

- على عيني .. حاضر ...

نادى أحد ضباط الشرطة، وقال له:

- اعمل زيارة للأستاذ فؤاد وزملائه ...

وأجلسنا على دكة في آخر القاعة. ولم تمض دقائق حتى حضر أهلنا، ومعهم أطعمة وسجائر، ومعلبات لنأخذها معنا. لم تكن بي رغبة في طعام. أسلمتُ أذني لشقيقتي زينب، تسمعني أخبار عائلتي وما حدث في الدنيا، وعيناي على أبي الصامت. عيناه منطفئتان، وقد نحل جسدُه، ويشعل سيجارة من أخرى، غائب، وقد زاغ بصرُه الضعيف. طمأنتني شقيقتي أنها وكلت لي ولزوجها أكبر محام في المنصورة، وهو نقيب المحامين بها، عثمان زكي. وإزاء دهشتي، فهي مدرسة في التعليم الابتدائي، ومرتبها لا يكاد يكفيها، قالت إنها تصرفت (دبرت أتعابه العالية)، وألا أحمل هماً؛ فتساءلت، وقد خفت السؤال، هل استدانت، أم عملت جمعية وقبضتها الأولى. ولم أشأ أن أحبطها بالقول أن الرجل مشهود له في قضايا المخدرات وما شابهها، وليست له علاقة بالقضايا السياسية.

دخل المحامون وكتبتهم؛ وبعد قليل هيئة المحكمة، وكان يرأسها مستشارٌ طيب القلب، لقبه (الخشن). بعد الإجراء المعتاد، من نداء الأسماء والسؤال التقليدي: مذنب أم لا، أصدر رئيس المحكمة قراره أن تكون المحاكمة سرية؛ ونهض وعضوا المحكمة إلى غرفة المداولة، حيث تبعناه.

تبسط معنا في القول .. أننا أولاد صغار، وما زال بعضنا في مراحل التعليم المختلفة، وينتظرنا مستقبل، فلماذا الانخراط في تنظيم

سري. وبعد عدة جلسات، لم يمنعه إظهار الاهتمام بمستقبلنا من أن يحكم عليَّ بالسجن ثلاث سنوات، وغرامة مئة جنيه، وعلى آخر بالسجن عامين.

وقد قضيتُ مدة سجني، وخرجتُ قبل زميلي، الذي حُكم عليه بعامين، ذهب بعدها إلى المعتقل مع باقي الزملاء الذين بُرِّئت ساحتهم، وأُفرج عنهم بعدي بعامين.

وفي جلستنا الأولى هذه، كانت هناك وقفة احتجاجية للمحامين قبل بدء المحاكمات، لمناسبة وطنية لا أتذكرها، فأعلنَّا تضامنَنا معهم.

وترافع عني المحامي. لم يتطرق إلى وقائع الدعوى، توزيع منشورات معنونة باسم الحزب الشيوعي المصري الموحد، تطالب بالديموقراطية والإفراج عن المعتقلين.

ادعى المحامي أنني مريضٍ بالسل، وطالب بالعفو عني. أتذكر نظرة المستشار الخشن إليَّ. كنت في صحة جيدة، وقد ازداد وزني من قلة الحركة في السجن، وما زالت الابتسامة ترف على شفتي حين أتذكر كلمة الدكتور شريف حتاتة في سجن مصر، مداعباً: "إنت جيت ع السجن".

كنتُ أقفُ بالقرب من شباك يطل على شارع المختلط؛ ورأيتُ على بعد بعضهم يروح ويجئ تحت أشعة شمس الضحى؛ وفكرتُ .. لا يفصلني عن الشارع سوى أن أقذف بنفسي من هذا الشباك؛ ولستُ أدري لماذا تسرَّبَ إلي خاطري أن كلَّ شئ هزلٌ في هزل.

أنهى المحامي كلامه، ونظرتُ إليه في ضيق. طلبتُ أن أدافع عن نفسي. بعد مرافعة باقي المحامين، سمح لي رئيس المحكمة بالكلام.

قلتُ إن ميثاق الأمم المتحدة، وكذا المنظمة الدولية لحقوق الإنسان، وكذا الدستور المصري .. تتيحُ للإنسان أن يعتنقَ ما يشاءُ من أفكار، وأن من حقه أن يعبر عن رأيه.

رفع كاتب الجلسة رأسه نحوي، لا أعلم دهشاً مما قلتُ، أم ظنّاً منه أن ما قلتُه لا داعي لكتابته، حتى يأمره رئيس المحكمة بذلك، وقد فعل.

بعد خروجنا من القاعة، سلمنا على الأهالي، وأخبرتُ شقيقتي برغبتي ألا يترافع عني هذا المحامي بعد ذلك. حاولتْ أن تفهم السبب، وقد بدت غير مقتنعة، فأنذرتُها، لو فعل، سأرفضُه رسمياً أمام هيئة المحكمة.

وكانت تلك آخر مرة رأيتُ فيها أبي، فلم يحضر الجلسات التالية. وظللتُ سنوات طويلة لا تغادرني نظرة عينيه المنطفئتين، يراودني غير قليل من المرارة، لأني خيبتُ ظنه، وأضعتُ مستقبلي، فيما كان يعتقد. وعندما ذهبتُ إلى سجن الواحات الخارجة لقضاء باقي فترة السجن، وصلني خطابٌ من شقيقتي تنبئني فيه بوفاته. وشرحت لي أنه مرضَ، وقد عرضته على أكثر من طبيب، دون جدوى، وأنها لم تقصر في حقه، فاستشارت (كونسلتو)، قرروا أنه مريض بالتهاب في الغشاء البريتوني للبطن؛ وكان الأطباء السابقون قد عالجوه على أنه مريض في المعدة. لكن الوقت كان قد فات لتدارك الخطأ.

أنهيتُ الخطابَ، وأعدتُ قراءته عدة مرات؛ وقد ترسب في ذهني أنها تعتذرُ لي عن موته.

الدكتور فؤاد

في سجن القناطر الخيرية، عام ١٩٦١، أصبتُ بخراج شرجي، تورم وضغط على فتحة الشرج، وأصبح من المتعذر قضاء الحاجة. طلبتُ عيادة؛ وكشف عليَّ الدكتور صادق، نسيت باقي اسمه، هل هو "مينا"، أو اسم آخر؛ ونصحني بالإكثار من تناول الخضروات. ضحكت وقلتُ:

- من أين ؟.

كتب لي بيضتين وكوباً من اللبن، لمدة أسبوع. وبعد يومين، خرجتُ للعيادة. سألني الدكتور صادق، بصوته الرصين المنخفض:

- كم يوماً مرَّ دون أن تذهب إلى دورة المياه ...

- أربعة أيام ...

- استمر في الأكل .. وحاول ...

وشيعني بنظراته الهادئة المتأنية.

كنا، فور علمنا بحضوره – فأحياناً يأتي طبيب آخر – ندفع ببعض الزملاء للعيادة، نغيرهم في كل مرة، للشكوى من أي مرض باطني، فكان يكتب على التذكرة: يُصرف بيضتان وكوب من اللبن. فكنا نجمع البيض واللبن، ونوزعه على الزملاء، بالدور. وفي هذا الوقت، سمحت الإدارة بفتح عيادة في الدور الذي نقيم فيه، تولاها الدكتور ممدوح الجندي؛ وطلبتُ العمل معه لأهرب من إغلاق الزنزانة طول النهار. وعلمني الدكتور كيفية الحقن والغيار على الجروح. وكانت فرصة للتعلم في السجناء العاديين. وبعد فترة، كان مما يثير الضحك لي وللدكتور ممدوح هو طلب السجناء أن يحقنهم الدكتور فؤاد، لأن يده خفيفة.

مرَّ أسبوعٌ، ودهش الدكتور صادق، لأني لم أتمكن من الإخراج. كان قد نصحني أن أفعل وأنا واقف. قلت:

- حاولتُ ولم أستطع.

تحسس الورم، وقال:

- لابد من جراحة عاجلة.

وجلس خلف طاولة في عيادة الدور، وهي زنزانة بها كرسيان ودولاب صغير. تفكر قليلاً، وقال:

- اسمع .. لن نستطيع إخراجك إلى مستشفى قصر العيني بسرعة .. يتطلب الأمرُ تقديم طلب لإدارة السجن، وسوف ترسله إلى المباحث، وحتى تبحثه وترد، هذا إذا ردت، تكون بطنك قد انفجرت.

نظرتُ إليه متفهماً، وحائراً.

- سنجريها في مستشفى السجن .. موعد الجراحة غداً ...

وكتب تقريراً بذلك. وصحبني من يدي إلى ضابط العنبر، وشدد عليه أن يسلم التقرير للجراح فور حضوره. نظر الضابط إليه في غيظ، ولم ينبس.

وكثيراً ما حاولت الإدارة إثناءه عما يكتبه لنا من تغذية، فلم تفلح، وكان يضيف أحياناً لما يكتبه صرف بطانية زيادة، أو إحضار سرير لمريض بالروماتيزم، ليريحه من النوم على أسفلت الزنزانة في عز البرد؛ وتتحجج الإدارة أنه غير متوفر لها، فيصر على ضرورة تنفيذ ما يوصي به.

صباح اليوم التالي، كنت في مستشفى السجن. قرأ الجراح التقرير، وتفقد الخراج، وهز رأسه في حيرة. أشار إلى دولاب أبيض ذي ضلفتين زجاجيتين، وقال:

- المشارط صدئة .. ولا يوجد بنج.

عاود قراءة التقرير، وتحسس الورم، واستفسر عن مدة انقطاعي عن دورة المياه. وعندما أخبرته أنني في اليوم السابع، حسم أمره، وأشار لممرض، فجذب من جنب الحائط طاولة حديدية عليها مشمع أحمر متهرئ في بعض المواضع. وفتح الدولاب، وأخذ بعض المشارط، مسحها بقطعة من القطن، ووضعها في غلاية ماء. أشار لي لأتمدد على الطاولة. غمس قطعة قطن في الماء الساخن، وضغط بها فوق الخراج، فلسعني الماء. لم يمهلني، ودس مشرطه، وشرع في العمل.

كنت أحس بالمشرط يغوص في لحمي، وبالمقص يقص فيه؛ ومن فرط الألم، عضضتُ المشمع، وتشبثت بيديَّ في جانبي الطاولة.

لم أكن أريدُ أن يصدرَ عني صوت. كان بعض المرضى من الأخوان المسلمين على أسرّة قريبة، وكذا بعض السجناء العاديين؛ ولا أريد أن أبدو ضعيفاً أمامهم. ولقد وصفتُ هذه العملية في روايتي "القرفصاء".

انتهى الجراح، وقال:

- إنه عمل جهده، لكنه يخشى من تكون ناسور.

وهذا ما حدث.

ولقد عانيتُ في الغيار على الجرح. يسحب الممرض من داخل الجرح فتيلاً طويلاً من الشاش، ويطهر بالديتول. أول مرة، لم أستطع التحمل، فصرختُ؛ فليس هناك أكثر إيلاماً من وضع المطهر على اللحم الداخلي للجسم.

وظل هذا الناسور ملازماً لي، ينز مادة لزجة، قرفتني في معيشتي، حتى تم الإفراج عني، وأجريتُ جراحة لإزالته.

شائعة

في الضحى، فتح رقيب دور ٦ في سجن القناطر الخيرية بابَ زنزانتي، وقال:

- فلان الفلاني ...
- نعم ..
- البك المأمور يريدك ..

تبادلتُ النظرات مع زملائي في الزنزانة، وهززتُ كتفي. لم يكن يوم زيارة، ولم أكن أستطيع تخمين سبب الاستدعاء. وتوترتُ .. فمنذ قليل، وصلتنا أنباءٌ عن قادة التنظيم الذين رحّلوهم من القناطر عشية وصولنا، إلى الإسكندرية، حيث سينعقدُ مجلسٌ عسكري لمحاكمتهم. وأعدوا لهم حفل استقبال في سجن الحضرة، يليق بقادة كبار؛ فتكسرت ضلوع بعضهم، وأشرف آخرون على الهلاك؛ كما كانت الأنباءُ تترى، عن التعذيب في معتقل أبي زعبل، وقد مات شهدى عطية الشافعي، المتهم الأول في قضية تنظيمه، والدكتور فريد حداد، وآخرون.

وكنتُ كلما خرجتُ لحضور جلسة فى محكمة المنصورة، ذهبت بنا العربة إلى باب ليمان أبي زعبل، لاصطحاب بعض زملائي في القضية

من هناك، حيث صدر بحقهم قرار اعتقال قبل ضمهم للقضـــية. وكنـــت أصاب بالرعب .

ذهبتُ مع الحارس إلى المأمور. رفع رأسه عن ورقة أمامه علـــى المكتب، وقال:

- أنت فلان ..
- نعم ..
- لك أخ اسمه عادل ..
- نعم ..
- متأكد ..
- نعم ..
- ماذا يعمل ..
- مهندس زراعي في شركة السكر بكوم أمبو

أومأ لرائد حضر اللقاء، فانصرفَ، وعاد، وإذا برفقته أخي عادل.

سأله المأمور وهو يشير نحوي:

- هذا أخوك
- نعم
- اقترب منه ..

فعل، و عاد المأمور يسأل:

- متأكد ؟!
- نعم.

نظر إلى الرائد مشيراً برأسه ناحيتي:

- اعمل له زيارة

اصطحبنا إلى حجرة مجاورة، بها مكتب وأنتريه، وأغلـــق علينـــا الباب. قال أخي:

- وصلنا خبرٌ بموتك

ازددتُ دهشة على دهشة، فاستمر:

- وقدمتُ اليوم طلباً للمأمور لاستلامِ جثتك.

ظللتُ فترة صامتاً؛ وشيئاً فشيئاً، بدأت أستوعبُ الأمرَ ...

رحّلونا من سجن مصر (قره ميدان)، إلى هنا، في مطلعِ عام ١٩٦٠، وأقاموا لنا حفل استقبال كان كفيلاً بالقضاء علينا جميعاً. استمر الحفلُ من الصباح حتى بعد الظهر؛ ونحنُ نجلسُ القرفصاء في حوش السجن، وشبه عرايا، ومكنات الحلاقة تجز شعرنا، من الرأس حتى العانة؛ ودون طعام أو شراب، ودون ذهاب إلى دورة مياه. ومن يضع مقعدته على الأرض، أو يحاول فرد إحدى رجليه، ليخفف من التنميل ويتيح للدم السريان، تعربدُ الخيلُ أمامه، وفوقها ضباطٌ يشخطون ويهددون.

لقد وصفتُ ذلك في روايتي (القرفصاء)، وكان عنوانها الأول (الشيوعيون يجلسون القرفصاء)، لكني عند طباعتها، خشيتُ أن تنفر كلمة (الشيوعيون) القارئ فلا يشتريها أو يقبل على قراءتها، والحملة ضد الشيوعِيين لم يخف أوارُها بعدُ.

وقلتُ في نفسي: انتشار أخبار الحفل، عن طريق الأهل الذين زاروا ذويهم في السجن، وعن طريق المحامين الذين قابلوا موكليهم في المحكمة، يسمحُ بتوليد أية شائعة. لكن .. لماذا أنا بالذات .. ؟!

تبادلتُ وأخي الحديثَ، وسألني إذا ما كنتُ أريدُ شيئاً. ولم يكن في حاجة ليعتذر لحضوره دون طعامٍ ودواء وملابس، فهل يأتي المرءُ بهذه الأشياء عند استلام جثة ؟!. وأعلمتُه أن أخي فاروق زارني عندما جاء من ألمانيا، حيث يقيم، في زيارة قصيرة لمصر. ولم أشأ أن أخبره عن ترغيبه لي بالهجرة إليه، عندما أخرج. وسبق، قبل سجني، طلبه أن أشوف نفسي، ولا داعي لهذه الأفكار التي تدورُ في رأسي.

وكان المأمورُ كريماً، فتركنا ما يقربُ من ساعة.

وحين عدتُ، كان الزملاءُ في طابورِ الشمس بحوش السجن، وقد جلس بعضهم لصق حائط العنبر. أخبرتهم بما جرى، فاعترتهم الدهشة.

ومــرَّ ضابطُ العنبر في الحوش؛ وكان قليل الجسم، قصــيراً، واســمه سامي؛ وكنا نتندرُ عليه فيما بيننا، كلما رأيناه، أنا اسمي سامي .. عاشت الأسامى. أشار لنا رفعت السعيد أن نقف احتراماً للرجل عنــد مــروره بالقرب منــا، حيث كان يشكو للمأمور أننا لا نحترمه ونظل في جلستنا غير عابئين به. قام بعضُنــا بتثاقل، وظلَّ آخرون جالسين وقــد ازوَرُّوا بوجوهِهم، كأنهم لا يرونه. وفي طرف الحائط، جلــس محمــد عمــارة غائباً، عما حوله. ذهبتُ إليه وسألتُه عن سرحانه. قال:

- نفسي في رغيف مرحرح وقطعة جبن قريش، وأقعد في البلــد على حافة غيط ...

وسبق أن التقيت محمد عمارة في الخارج، الــدكتور فيمــا بعــد، والداعية الإسلامي الذي يكتب في الجرائد والمجلات، ويطل مــن عــدة فضائيات. كان من قادة الحزب الشيوعي الموحد، وحضر إلى المنصورة أكثر من مرة ليتابع أو يحاضر، وكان نشطاً جداً. جنــدَهُ رجــلٌ مــن طنطــا، اسمه محمد مراد، يعمل في محل لبيع مواد البناء، من أسمنت وطوب ورمل.

انتهى طابور الشمس ..

وعدنا إلي الزنزانات، وما زال السؤال يلحُّ عليَّ .. وحتــى الآن، دون إجابة .. !!

الترحيل

في أوائل أكتوبر ١٩٦٠، تقرر ترحيلي من سجن القناطر الخيريــة إلى سجن الواحات الخارجة، بعد أن قضيت فيه، وفي سجن مصر، مــا يزيدُ على عام. ولستُ أدري لماذا (الواحات)، مع أنها واحة واحدة.

فوجئت بضابط الترحيلات، الذي سيرافقني. كان زميلاً لــي فــي مدرسة الكامل الثانوية بالمنصورة، واســمه الأول (حجــازي). تبادلنــا الابتسامات، وظللنا طوال الرحلة نتبادلها، دون كلمة واحدة.

جلس في مقصورة بالدرجة الأولى، وجلستُ مع حارسين في مقصورة أخرى. وبعد تحرك القطار من محطة القاهرة، فكَّ الحارسان قيدي، فابتسمتُ في داخلي للفتة حجازي الكريمة. وفي أسيوط، أودعني عهدة في قسم الشرطة، وكنا بعد الظهر، حتى يحين موعد الباص المتجه إلى الخارجة.

وفي الحوش، نعمتُ بشئ من الحرية. اختفى الحارسان؛ وعزمني نزيل لشرب الشاي. ولَمحتُ صبياً، ناديتُه ليحضر لي بعض الجرائد؛ وأفهمتُه أنني لا أملك مالاً. هزَّ رأسه، وأحضرها عن طيب خاطر. أخذتُ أتصفحها، وقد نسيتُ لبعض الوقت أنني مسجون. وما زلتُ أحملُ لهذه المدينة حباً، وحنيناً. ولقد زرتُها عدة مرات بعد ذلك، ودائماً تقودُني قدماي إلى قسم الشرطة والشوارع المحيطة به. لا أنسى ما نعمت به من حرية – مقتطعة – بين شوطين طويلين.

وفي الباص، وركابُه قليلون، كنتُ معفياً من القيد أيضاً. ولكن وجود حارسين، عن يميني وخلفي، وضابط في المقدمة، جعل الركاب يرشقونني بنظرات فضولية.

وصلتُ إلى سجن (الخارجة) بعد أن تقدم الليل.

فتحوا زنزانة، وأدخلوني. استيقظ أحدُهم ورحَّبَ بي، فأزال عني إحساساً بالوحشة. وكان هذا الزميل هو الصديق طاهر البدري؛ ولم أكن لقيته منذ استضفتُه في بيتي، بعد حرب ١٩٥٦، ليلتقي بأخيه. كانت الشرطة تطارده لأنه كسر الرقابة وقت الحرب (قضى عاماً في المعتقل، تبعه بثلاث سنوات سجناً، نتيجة لحكم بذلك؛ وبعد الإفراج لزم أن يقضى مثلها مرَاقَباً، يبيتُ في بيته من المغرب، لا يغادره إلا صباحاً). تغاضوا عن ذلك وقت الحرب؛ أما وقد انتهت، فيلزم القبضُ عليه، ليحاكموه على كسره للرقابة.

وفي انتظار وصول شقيقه (حسين البدري، الذي أصبح نائباً في مجلس الشعب، عن حزب الوفد، فيما بعد) حان وقت الغداء. طلبتُ من

أمي أن تضع لنا الطعامَ، فاعتــذرتْ، لأنهــا شــويت ســمكاً صــغيراً (شـــــرّ)، لا يصحُ أن نقدمه للضيف، واستمهلتني بعض الوقت لتعدَّ ما يليقَ. هوَّنتَ عليها:

- هو شيوعي، وسيأكل أيَّ شئ ..

وبعد الغداء، وبينما نحتسي الشاي، قال طاهر:

- أنا شيوعي، حقاً، لكنني لا آكل أيَّ شئ ..

خجلتُ لأنه سمعني، واستمرَّ هو:

- أنا آكلُ أحسنَ شئ، أمَّا إذا لم يتيسر، فلا بأس ...

استوعبتِ المعنى، وبمزيد من الابتسام، داريتُ خجلي.

وتطرَّقَ الحديثُ إلى أيام معركة ٥٦، حيث علَّقتُ قائلاً:

- لولا الإنذار السوفيتي ما انسحبَ البريطانيون من بورسعيد.

تطلَّعَ إليَّ بإمعانٍ، وقال:

- لولا المقاومةُ الشعبية ما انسحبَ أحد، ومـا كــان للإنــذار أن يصدرَ، أصلاً ..

وقد جاء هذا الإنذار ضمن الرسالة الموجة من بولجــانين رئــيس الحكومة السوفيتية إلى أنتوني إيدن رئــيس وزراء المملكــة المتحــدة " بريطانيا " في ١٥ نوفمبر عام ١٩٥٦، ويصف فيها هذه الحرب أنها:

" موجهة ضد الأمة العربية وهدفها إزالة الاستقلال الــوطني فــي الشرقين الأدنى والأوسط، وإعادة بناء نظام العبودية الاستعمارية، الــذي تأباه الشعوب العربية ".

وفى موضع آخر ينذر المعتدين:

" وماذا سيكون موقف المملكة المتحدة إذا هاجمتها دول أقوي منها، ولديها جميع أنواع الأسلحة المدمرة الحديثة ؟ وتستطيع أمثال هذه الدول في الوقت الحاضر أن تكبح جماح نفسها، وتمتنع عــن إرســال قــوات بحرية أو جوية إلى شاطئ بريطانيا ..

بل تستطيع أن تستعمل وسائل أخرى .. مثل الأسلحة الصاروخية، وإنه إذا استخدمت الأسلحة الصاروخية ضد المملكة المتحدة أو فرنســا،

فإنكم بطبيعة الحال قد تصفون هذه الأعمال أعمالاً وحشية، ولكن في أية طريقة من الطرق يختلف هذا عن الهجوم غير الإنساني الذي شنته القوات المسلحة التابعة للملكة المتحدة وفرنسا على مصر، التي ليست لديها إمكانات للدفاع تقريباً ".

ثم يؤكد عزمه على وقف العدوان بالقول:

" إننا مصممون كل التصميم على سحق المعتدين باستخدام القوة، لكي نعيد السلام في الشرق الأوسط "

* *

أعدَّ طاهرُ كوباً من الشاي، وأخذ يخففُ عني، وسألني عن كيفية القبض عليَّ، ومتى. ولعله لحظ تعبي، فسرعان ما أعدَّ لي فرشة لأنام، دون أن ينتظر إجابتي.

وفي الصباح،سكنوني فى زنزانة أخرى. التفَّ حولي كثيرٌ من الزملاء، يدفعهم الفضولُ لمعرفةِ الوارد الجديد؛ ويسألون عن أية أخبارٍ أعرفها. وكانوا شغوفين بما أقولُ، مع أنها أخبار بائتة، منذ أكثر منِ عام. وأتبعتُ ذلك بما قرأتُه في قسم الشرطة بأسيوط. وشيئاً فشيئاً، انفضَّ السامرُ، بينما تمهّلَ بعضُ الزملاء؛ هذا يسألُ عن أخبار دوري كرة القدمِ، وآخرُ يسألُ عن أخبار السينما والمسرح، وما هي آخر أغنية. وسرتِ مع بعض الزملاء ممن سبق أن التقيتُهم في سجن مصر، أستَكشفُ المكان ..

ثلاثة عنابر مستطيلة، مشيدة من طابق واحد، وهي متوازية، يفصلُ بين كل عنبر وآخر مسافة من عدة أمتار. ويتكون كلُ عنبر من جناحين، بينهما فسحة صغيرة، بها مكتب لضابط العنبر، يواجه بابه. ويحتوي كلُ جناح على عشرِ زنزانات كبيرة، مساحة الواحدة خمسة أمتار عرضاً، وثمانية طولاً، تقريباً. وفي نهاية الجناح من جنبيه دورة مياه بها خمسة مراحيض وثلاثة صنابير مياه فوق أحواض، في ردهة متسعة.

ويسكن في العنبر الأول السجناء الشيوعيون، الذين صدرت ضدهم أحكامٌ تتراوحُ بين ثلاث وعشر سنوات. ويقيم في العنبر الثاني المعتقلون الشيوعيون بأمر من الحاكم العسكري العام، وهو رئيس الجمهورية، أو من ينيبه، كرئيس الوزراء، أو وزير الداخلية، ولم توجه لهم أيه تهم؛ وليست لهم مددٌ محددة.

والجناح الأول من العنبر الثالث مخصص للأخوان المسلمين، الذين صدرت بحقهم أحكامٌ طويلة. والجناح الثاني لسجناء في جرائم القتل، وأغلبه بسبب الثأر، ومعظمهم من الصعيد، ومحكوم عليهم بالمؤبَّد، وهم ليسوا مجرمين بالمعنى المتعارف عليه.

ويحيطُ بالسجن سورٌ أبيضُ، لا يتعدَّى ارتفاعُه مترين، ويضمُّ، إلى جانب العنابر ومبنى الإدارة، والمطبخ والمغسلة، مساحات كبيرة من الأرض الرملية أمام العنابر، وفي أجنابها؛ وله بوابتان، واحدةٌ ناحية الإدارة من الأمام، وأخرى خلفية، تؤدي إلى المزرعة.

هُوَّا صحيح الهوا غلاَّب .. ؟

بعد إغلاق الزنزانات قرب الغروب، يهجع السجناء فترة راحة، يعمها السكون، وكأنها قيلولة، لكن متأخرة. كنا ننامُ ورؤوسُنا لصق حائطين يصنعان زاوية قائمة، والثالث نضعُ به أغراضَنا، والرابع في وسطه الباب. وأحياناً يضع زميلٌ فرشته في منتصف المسافة بينه وبين الحائط، وقد يجاوره آخرُ.

هذا عائدٌ من العمل في المزرعة، وآخرُ من العمل في المطبخ أو المغسلة، وذاك من العيادة، التي كان يشرف عليها صلاح حافظ، حيث كان في نهائي كلية الطب وقت القبض عليه، وأكمل دراسته بعد أن خرج؛ ويعاونه الدكتور حمزة البسيوني، ابن قرية نوسا، بالدقهلية (قرية كامل الشناوي)، ومنشئ التأمين الصحي في الإسكندرية، فيما بعد؛ ويعاونهما أحياناً الدكتور شريف حتاتة، ولم تكن أعراضُ التأليف

الروائي قد ظهرت عليه، وكان يعمل أغلب الوقت في تجهيز السماد للمزرعة؛ وآخرون كانوا ينسخون صفحات للجريدة الناطقة .. وهكذا ...

ولم أكن أهجعُ مثل باقي أفراد الزنزانة، التي تضمُّ ستة عشر فرداً .. أحياناً تزيدُ عدة أفراد؛ وكان من بينهم صلاح حافظ وشريف حتاتة ومحمد شطا، و محمد خليل قاسم وزكي مراد وصنع الله إبراهيم وأحمد مصطفى، وهو مدرس من الإسكندرية، وقد ترجم عن الانجليزية مؤخراً، في عام ٢٠١٠، كتاب "لعبة الشيطان"، لروبرت دريفوس، وهو عن الحركات الإسلامية، من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده حتى الأخوان المسلمين، وكيف ارتبطت بالبريطانيين، ثم الأمريكيين بعدهم، حيث تتبنى هذه الحركات فكرة الإسلام الشمولي في كل الأقطار، الأمرُ الذي يصرفُ الانتباهَ عمَّا يحدثُ فيكل قطر على حدة من جرَّاء الاحتلال، وهذا ما يريده الاستعمار.

كنتُ، بصفتي عمدة الزنزانة، أُعدُّ الطعامَ ليتناولوه حين ينهضون؛ كما كنتُ مسئولاً عن تسيير شئونها المعيشية؛ أشترى كيروسين (للتَوْتَوْ) والشاي وأية ممنوعات من السجناء العاديين، وكان الواحد منهم يأتي إلينا حاملا في يده صفيحة ماء ملأى بالكيروسين، علناً، فمن الذي يستطيع من العساكر أن يتصدى لـ قاتل محكوم عليه بالمؤبد ؟!. كما كنتُ أتسلم الخبز والتعيين اللذين يصرفهما السجن، وأحضر الخضروات من المزرعة .. كوسة وطماطم وفلفل أخضر، وأشترى بصلاً من المقصف، وعلب الحلوى والصابون، وأوزع المناوبة على أفراد الزنزانة، سواء لنظافتها أو لغسيل الأوعية المتخلفة عن تناول الطعام.

أنتقي قطعاً تنطبق عليها صفة لحم، من قطع كاوتشوكية يوزعونها مع اليمك. أجرُدُ الكوسة بالسكين، وأقشر بعض البصل، وأضعه في القروانة، كما هو إذا كان صغيرا أو متوسطاً، وأقطعه قطعتين أو ثلاثاً

إذا كان كبيرا؛ وأرصُ فوقه قطعَ اللحم، وأخرط فوقها الكوسة، وفوقها حلقاتٍ من الطماطم، وأرشُ بعض الملح، وأحكمُ الغطاءَ.

أُشعل (التَّوْ تَوْ)؛ وهو موقدٌ اخترَعه السجناء، مكون من علبتين من علبِ الحلاوة الطحينية والسلمون؛ الأولى يُثقبُ غطاؤها عدة ثقوب، وتُدلَّى منها قطعٍ مبرومة من قماش قديم، بعد ملء العلبة بالكيروسين، والأخرى تتحولُ إلى اسطوانة، بعد نزع غطائها وقاعدتها، ويخرم بمسمار سطحها الأسطواني، ويوضع فوقها على أعمدة صغيرة من الصفيح قمة أقل استدارة، تستوي فوقها القروانة، بعد إشعال القماش، فتتولى الخروم تنظيم الهواء الداخل، وينتج لهبٌ أزرقُ. وقد برع بعضُ الزملاء في صناعته، وكان الواحدُ يباع بعدة سجائر، حيث كان يستخدم كثيراً في الصباح لعمل الشاي.

وأترك الطبخة تنضج في عرقها. وبعد ما يقربُ من ساعة، أرمي القشور التي تخلفت عن الطماطم، حيث تكون الحرارة قد سحبت عصيرها. وكان طعمُ الخضر لذيذاً، دون تسبيك أو إضافة زيت أو سمن؛ يعطي طعم الـ(سوتيه)، ويبتعد في الوقت نفسه عن طعم المسلوق، الذي تجزعُ منه النفسُ.

وبعد أن خرجتُ، صنعتُ طعامي بهذه الطريقة، فأراحت قولوني المثخن بجراح الأميبا، واستساغتها زوجتي، ومن بعدها ابناي، رفعت وإيهاب. ولقد علمني طريقة الطبخ هذه الزميل فؤاد حبشي، وهو من مجموعة سيد سليمان رفاعي ويوسف مصطفى وإبراهيم العطار، الذين كانوا مساعدين فنيين (صولات) في سلاح الطيران، يؤهلهم الجيش، من الحاصلين على دبلوم صنايع. وقامت هذه المجموعة بإضراب للمطالبة بترقيتها إلى ضباط، ولم يكن هذا سارياً وقتها في الأربعينيات، فنفوهم إلى واحة سيوة. وبعد ذلك، فصلوا من السلاح، ونقلتهم الحكومة إلى معتقل الواحات الخارجة، في أواخر الأربعينيات. وكانت هذه المجموعة تلقي بمنشورات (حدتو) من طائرات الهليكوبتر. وكانوا قد احتجوا على

دخولِ مصر حرب فلسطين، حيث كانت حدتو تؤيد قرار التقسيم. ولقد سألتُ رفعت السعيد عندما التقيتُه في سجن القناطر الخيرية عام ١٩٦٠، لماذا قبلت حدتو قرار تقسيم فلسطين بين العرب واليهود، فأجابني أنها فعلت ذلك من باب إنقاذ ما يمكن إنقاذه، حيث كان معروفاً أن العربَ ليسوا جاهزين لدخول الحرب.

وعندما سألتُ طاهر البدري، حين ضمنا (التيارِ الثوري)، السؤالَ نفسه، أجابني أن قيادة حدتو اتخذت هذا القرار فعلاً، وأنه لم يؤيده ولم يعارضه؛ لكن بعد ذلك، وقد حدث ما حدث في فلسطين، فهو يرى أن هذا القرار كان خطأً كبيراً.

* *

وكنتُ أثناء إنضاج الطعامِ أستلقي على فرشتي لأصيبَ شيئاً من الراحة، وبعد فترة أقومُ وأكشفُ الغطاءَ عن القروانة. قد أضيفُ بعض الماء إذا لاح الجفافُ، خشية الاحتراق، ثم أعودُ للاستلقاء، وهكذا ..

ولاحظني صلاح حافظ، فقال، دهشاً:

- تطبخ وأنت نائم ؟!

وحين لا أعودُ إلى الاستلقاء، يعرفُ أن الطعام قد نضج. ينهض، ولم يزل الهدوء مخيماً على السجن؛ يفتح ضلفة شراعة الباب .. مستطيل صغير في وسط الباب، به قضبان حديدية طولية، ويقول:

- قل لي يا زميل طاهر.

يرد طاهر البدري من الزنزانة المقابلة، وقد وضع وجهه في شراعة الباب:

– نعم يا زميل صلاح.

- هوّا صحيح الهوا غلاَّب ؟ (مطلع أغنية أم كلثوم التي لحنها الشيخ زكريا أحمد)

وتتناثر في السكون ضحكات، منفلتة من باقي الزنزانات.

وفي مرة أخرى، يقول صلاح حافظ:

- قل لي يا زميلنا طاهر
- نعم يا صلاح
- قل لي عمل لك إيه قلبي (مطلع أغنية لعبد الوهاب)

والغريب، أنه بالرغم من تكرار الأمر، يرد طاهر البدري، وبنفس الجدية، وكأنه لم يقع في هذا المطب من قبل.

ويكون ذلك إيذاناً بانتهاء القيلولة المتأخرة، وبدء الحياة الليلية.

* *

بعد تناول العشاء، نحتسي الشاي، ويسرد كلٌ منا على باقي الزملاء ما فعله في يومه، أو ما سمعه من أخبار، أو ما دار بينه وبين آخرين من نقاش. ثم ينصرف كلٌ منا إلى مبتغاه ..

أحمد مصطفى، المولع بالشطرنج، يبدأ مبارياته، متحدياً صلاح حافظ.

محمد خليل قاسم يعكف على مراجعة قصة أو مقال؛ وكان قد فرغ من فترة من روايته (الشمندورة)، أول رواية نوبية، وقد رصدت حياة أهل النوبة، وما تعرضت له بعض قراهم التي أغرقتها مياه النيل بعد تعلية خزان أسوان.

ويختلي صنع الله إبراهيم بإحدى روايات الكاتب الإنجليزي المغرم به، رافاييل سباتيني، والذي يميل أسلوبه إلى البوليسية، وقد كتب قصصا عن أشهر المذابح التاريخية.

وقد يجلس زميلان أو ثلاثة في ركن من الزنزانة لمناقشة أمور تنظيمية أو سياسية.

وفي ركن آخر، يراجع زميلان حسابات (بوفيه) صغير، أقاماه في ركن من طرقة العنبر، به (توتو) كبير وبرّاد وأكواب بلاستيكية مشتراة من المقصف، والشاي والكيروسين مهربان من عند السجناء العاديين، ويباع الكوب بسيجارة؛ وكان العائدون من العمل في المزرعة أو مرافق السجن يعرجون عليه لتناول الشاي، وكذا العاملون في العيادة. وكان من

زبائنه في الضحى، بعض الزملاء من مؤلفي القصص والرسامين وكتّاب المجلة الناطقة، حيث كانت تصدر مجلة عن كل تنظيم، واحدة باسم (الطريق)، والثانية لا يحضرني اسمها.

كنا نجتمع في زنزانة، وتجلسُ هيئة تحرير المجلة وكتابها في مواجهتنا، ويقدم رئيس التحرير الكاتبين لقراءة مقالاتهم وتعليقاتهم.

* *

وفي بعض الليالي، وقد سئمت نفوسُنا، وتاقت للترويح، نجتمعُ حول صلاح حافظ، وكان مولعاً بالغناء، وحافظاً جيداً للألحان، وعاشقاً لأغاني عبد الوهاب القديمة.

يستندُ، بعوده النحيل، إلى الحائط؛ ويسرحُ بعينيه الصغيرتين الهادئتين خلف زجاج نظارته السميك، تطالعك جبهته العريضة، يحيطها شعره الكستنائي الرهيف والممشط إلى الخلف، فيظهر رأسه كبيرا، ويشمخ بأنفه الدقيق في دعة وسط وجهه الوسيم، ويلم شفتيه الرقيقتين، وينقر بخفة بأصابعه النحيلة على عصا بين ساقيه، وقد استقر بقدميه على فرشته .. وتنسابُ الأغنيات ..

- خايف أقول اللي في قلبي
- النيل نجاشي .. حليوة أسمر
- في الليل لما خلي

ونحلق معه، وقد نشعت الذكرى بأسىً شفيف على شغاف نفوسنا.

وإذا انفتح صلاح مغنياً، فإنه لا يتوقف. والحقُ أن صوته كان جميلاً، وفي حديثه العادي كان هادئا واثقا. ولقد سألته مرة، ألم تفكر في احتراف الغناء، فأجابني أن الأمر ليس سهلاً؛ يحتاجُ إلى تدريب مستمر على الإلقاء، وتنظيم التنفس أثناء الغناء، ودراية أعمق بالموسيقى؛ ومن أين الوقتُ، والعملُ في الصحافة يلتهمُ أغلبه، وبالكاد أجدُ فسحة للقراءة أو لكتابة عمل فني.

وأري أن موهبته الصحفية الكبيرة، في التحرير والتبويب، وككاتب باب أسبوعي، قد حرمتنا من فنه الروائى والقصصي، فلم يكتب سوي رواية واحدة، هي رائعته "المتمردون " التى قدمها المخرج المقل جداً توفيق صالح فى السينما، ومجموعة قصصية، ومسرحية "الخبر".

الاتفاق

بالرغم من الخلاف بين الفريقين، كان هناك أمران يجمعان أعضاءهما معاً، دون تفرقة.

الأول، عندما يصيح أحد الزملاء في طرقة العنبر.

- واس .. واس

وهو اختصار اسم: وكالة عبد الستار للأنباء؛ حيث أمكنه تهريب راديو ترانزستور. يسرع الجميعُ إلى زنزانته، فيقف أمامنا عبد الستار الطويلة، بقامته القصيرة، ووجهه الأسمر المائل للاستطالة، وشعره أسود قصير، نائم باتجاه جبهته؛ ويأتينا صوته الرخيم من خلال شفتين عريضتين، بأخبار نحن في أشد الشوق لسماعها، وسط صحرائنا المعزولة عن العالم.

كما كان يستقي أنباءه من جرائد ومجلات أمكن تهريبها؛ فكانت تصلنا أحياناً الهيرالد تريبيون والنيوزويك الأمريكيتان، وكذا جرائد وكتب ومجلات بالعربية والإنجليزية والفرنسية، سياسية وأدبية، كما أمكن تهريب أدوية تبرعت بها منظمات أجنبية. وكان التهريب يتم عن طريق الأهل الذين يزورون ذويهم، وهذا قليل؛ أما الغالب، فعن طريق فصيلة عساكر الهجانة التي تخيم مجاورة لسور السجن الغربي، ويتناوب أفرادُها حراسة السجن. وعندما يحصل أحد أفرادها على إجازته، يذهب إلى أسيوط أو القاهرة، حيث يقابل من نعطيه عنوانه، يسلمه طلباتنا، ويحضر ما يعطيه له. كما كان يقوم بشراء طوابع وإلصاقها على

رسائلنا إلى أهلنا وإلقائها في صناديق البريد، بدلاً من إرسالها عن طريق إدارة السجن، حيث تراقب من قبل ضباطه وضباط أمن الدولة.

وبالطبع، يكافأ الرجل مالياً، فهم أغلب من الغلب.

وكان عبد الستار الطويلة صحفياً بدار (روز اليوسف). ومن عجائب الأمور فيما بعد أنه تقرب من السيدة جيهان السادات وأجرى معها الأحاديث، وحرر لها كتاباً.

أما الأمرُ الثاني، فعندما يصيح أحد الزملاء:

- حميدة .. حميدة ..

نسرعُ جميعاً، تسبقنا ابتساماتنا، إلى زنزانة في أول العنبر الأول، ويأتي صلاح حافظ من حجرة العيادة القريبة منها، وكان يقضي فيها أغلب أوقاته؛ فبعد أن يعود المرضى صباحاً، مع زميله حمزة البسيوني، يقفل باب العيادة عليه، ليقرأ أو يكتب؛ وفي القيلولة ينام على دكة خشبية بداخلها.

وصلاح هو المحرر الوحيد لهذه الجريدة، التي أطلق عليها اسم "حميدة".

يلقي ما ابتكره من نكات، وما صادفه من قفشات أو مواقف مضحكة صدرت عن بعض الزملاء، ويسخر من حياتنا في السجن، ومن مناقشاتنا السياسية وما يعتريها من تشدد ليس في محله أحياناً، ومن أشخاصنا ومن سلوكنا، ومن أي شئ يعن له، دون إهانة أو تجريح أو تحامل. وأتذكرُ ذات مرة قوله: هناك من ينظر بعين العطف، وهناك من ينظر بعين الحب، وأنه من الآن سينظر بعين ف. فانفجرنا جميعاً ضاحكين؛ أي أنه سينظر بتشدد ويسارية، كما اشتهر عن تنظيم طليعة العمال والفلاحين، والذي كان معروفاً بيننا بتنظيم ع.ف.؛ فكان ينتزع ضحكاتنا من أعماق صدورنا المكلومة، المتعطشة لما يفرج عن كرب حبس أصحابها، وبعدهم عن الناس. ونظل عدة أيام نتداول هذه النكات،

ونضيف إليها، ونحورها، حتى يخفت تـداولها، ونكـاد ننسـاها، وإذا بالمنادي: حميدة .. حميدة ..

* *

وبعد أن خرج الفريقان إلى الحرية، جمعهما أمرٌ واحدٌ أيضاً: حـل التنظيم. بالرغم من أن خطيهما السياسيين على طرفي نقيض. "الانقسام" برر موقفه أن التنظيم تهرًّأ، بعد أن سـارع أعضـاؤه – دون إذن مـن القيادة – إلى الانضمام إلى التنظيم الطليعي الذي أنشأه عبد الناصر فـي عام ١٩٦٣. و "التكتل"، برر موقفه بأنـه غيـر خطـه السياسـي وأن أعضاءه يريدون تقديم طلبات للانضمام للتنظيم الطليعي.

وكان هذا التنظيم سرياً، وعلى صلة بالاتحاد الاشـتراكي، حـزب السلطة.

ولست أفهم، لماذا ينشئ رجلٌ في قمة السلطة تنظيمـاً سـريـاً، وممَ يخاف، وهو الحاكم، الآمر الناهي، في كل شئ ؟!.

المكـافـأة

أقامَ زملاؤنا مدرسة للثقافة العامة، أُلقيتْ فيها محاضرات فى شتى فروع المعرفة؛ في الاقتصاد، والسياسة، والطبيعة، وتاريخ العلم؛ بلغـة يفهمها من لم يصب حظاً من التعليم، مثل كثيرين معنـا مـن العمـال والحرفيين والفلاحين والمهنيين والموظفين، وبعمق يرضـي المتعلمـين والمثقفين والحائزين على شهادات عليا، مثل كثيرين معنا مـن أسـاتذة الجامعات واختصاصيين في مجالات مختلفة.

وبالإضافة إلى ذلك، مارس الفنانون التشـكيليون عملهـم. كـان بعضهم يزاولُ النحتَ بين شجيرات الخروع، بالقرب مـن مبنـى إدارة السجن ؛ وأقيم مرسمٌ بإشراف الفنان داود عزيز، الذي كان يعمل بجريدة الأهرام.

كما أُقيمتْ ندوات شعرية، ومسابقة للقصة القصيرة، اشتركتُ فيها بقصتي (الشقة الجديدة)، وقد نشرتُها بعد ذلك في مجلة (آخـر سـاعة)، وضمنتها مجموعتي القصصية (كراكيب)؛ وقد فازت القصـة بـالمركز الأول، مناصفة مع قصة (القط مشمش) لقدري شعراوي، وهـو نجـار، عمل بعد خروجه من السجن في مجلة (صباح الخير)، بوسـاطة مـن "حسن فؤاد"، الذي جعله يحرر حكايات كانت تصدر في كتيب صـغير، يوزع مجاناً مع المجلة، دون ذكر لاسمه. وفازت قصة (الثعبان)، لصنع الله إبراهيم، بالمركز الثاني؛ وكانت لجنة التحكيم مكونة مـن: صـلاح حافظ، ومحمود أمين العالم، والدكتور عبد العظيم أنيس ومحمد صدقى.

وقد أفدتُ كثيرا من هذه المحاضرات؛ ففي محاضرة للزميل جمال غالي، قال: إنه بالرغم من ضرورة توجيـه البحـث العلمـي لتطـوير وارتقاء المجتمع، إلاَّ أنه من الضروري أيضاً الاهتمام بالبحث العلمـي المجرَّد؛ أي دون انتظار منفعة مباشرة؛ وأن هذا يوسع مدارك الإنسان، ويزيد وعيه بما حوله؛ وأنه مع تقدم المجتمع، سوف يأتي الوقت الـذي يفيد فيه من هذه الأبحاث.

وفي محاضرة لصلاح حافظ، تكلم عن عـدم أحقيـة المختـرعين والمكتشفين للمبالغ الطائلة التي يجنونها بسبب احتكارهم لبراءة الاختراع والاكتشاف، لأن ما توصلوا إليه هو الحلقـة الأخيـرة لجهـود علمـاء ومكتشفين سبقوهم إلى البحث والكشف، ومهدوا الطريق، جيلاً بعد جيل؛ فلماذا يستأثرون وحدهم بعائد مادي كبير. إن هـذا العائـد مـن حـق المجتمع، وإن كان – بالطبع – سوف يصيبهم منه جانب.

وفتحت هذه المقولة عينيَّ على خبايـا الاسـتغلال فـي المجتمـع الرأسمالي، ونهب جهد أجيال، ومجتمعات، تحت مسميات عـدة. كمـا أفدتُ من هذه المقولة عند كتابة قصة للأطفال بعنوان (المكافأة)، ضـمن مجموعتي (الأسد ينظر في المرآة)، التي فازت بجائزة الدولة التشجيعية في أدب الطفل، عام ١٩٩٢.

وإلى جانب هذه المحاضرات، دعا الزملاء إلى نوع آخر منها، ينقل فيها كل صاحب خبرة في مجال عمله خبرته إلينا. وعندما دُعيتُ لإلقاء محاضرة، اعتذرت، فليس عندي ما أقوله؛ وكان الردُّ، انقل لنا خبرتك من العمل في الوحدات المجمَّعة. وبعد عدة أيام، تحلَّقَ الزملاءُ حولي، وكلي خجل، أكادُ أشرُ عرقاً، ولعلها المرة الأولى التي أواجه فيها جمهوراً، خاصة وفيه الكاتب المشهور، والصحفي، والناقد، والأستاذ الجامعي. تماسكتُ، وشرعتُ أحكي.

أقيمت الوحدات المجمعة للنهوض بالقرية المصرية؛ فالمستشفى منوطٌ به، إلى جوار الخدمة العلاجية، المساهمة في نشر الوعي الصحي. والمدرسة تؤدي إلى جانب دورها التعليمي دوراً تنويرياً. والمركز الاجتماعي الزراعي، به اختصاصي اجتماعي، يجري أبحاثاً عن مستحقي الضمان الاجتماعي، من أرامل وأيتام، وكان يصرف مساعدات لعدد كبير من خمس قرى واقعة في اختصاص وحدة طناح. كما أقام المركز مشروعا لمكافحة الحفاء، واشترى الأدوات والخامات اللازمة، وأحضر عمالاً قاموا بالتصنيع، وبيعت بعض الأحذية بسعر التكلفة، مع هامش ربح بسيط. وبالمركز مهندس زراعي، تحت إمرته عدة أفدنة، لعمل حقل إرشادي، لإفادة الفلاحين؛ وأنشأ برج حمام، وعمل مشروع ناصر لتمليك الجاموس للفلاحين. تشتري الوحدة الجاموسة، وتبيعها بالتقسيط. واستوردت الحكومة من هولندا أبقار فريزيان، بعضها مُدرّةٌ للَّبن، وأخري تكوِّنُ لحماً كثيراً. وقام كلاَّفُ الوحدة بتعشير البقرَ البلدي للأهَالي، لتحسين السلالة، في حظيرة الوحدة.

كما استوردت الحكومة دجاج "رود آيلاند"، من أمريكا، للتهجين مع الدجاج البلدي، لينتج نوعاً أكبر حجماً؛ كما أقيم منحلٌ، جلبوا له ملكات نحل"كرنيولي"من يوغوسلافيا، لتحسين سلالة النحل المصري، وجعلها أكثر نتاجاً؛ وكان النتاج يباعُ بسعر رخيص، لا يتجاوزُ أربعة عشر قرشاً لكيلو العسل. وبالطبع، يساهم النحلُ في إخصاب الزرع في الأراضي المحيطة بالوحدة.

ونموذج الوحدة المعماري مستورد من "بالم بيتش"(شاطئ النخيل) في أمريكا، حيث ساحة كبيرة مبلطة، بين الأقسام الثلاثة، تتصدرها مدفأة لم تشتعل أبداً، ولستُ أدري كيف لم ينتبه المهندس الذي أقام الوحدة إلى أن الشمسَ ساطعة طوال العام. وفي الساحة طاولة للتنس، لم يستخدمها سوى طبيب المستشفى وأحد أصدقائه.

أما المكتبة، فلم أر أحداً من القرية يستعيرُ منها كتاباً، ولم تزود بأي إصدار جديد؛ وكان التلاميذ يأتون إلى الوحدة، إما لمعاكسة الممرضات، أو لطلب شهادات للجامعيين منهم، لتقديمها لجامعاتهم، تفيد بأنهم محوا أمية كذا فلاح، فيحصلون على درجات تفيدهم؛ فنعطيها لهم نزولاً عند رجاء آبائهم، ولأن عندنا ختم النسر، وليس لأنهم محوا أمية أحد.

ويشرف على نشاط الوحدة مجلسٌ مكون من ناظر المدرسة وطبيب المستشفى والمهندس الزراعي، وعضوان من كل قرية من القرى الخمسة التابعة للوحدة، ويتولى السكرتارية الاختصاصي الاجتماعي؛ ويرأسه رجلٌ معيَّن من قبل المحافظة، بمكافأة شهرية قدرها اثني عشر جنيها. ولا أدري كيف يُختار. وفي حالتنا، كان الرئيس موظفاً في الشئون الاجتماعية بالمنصورة، ويحضر مرة كل شهر أو شهرين، للتوقيع على مذكرات الصرف من السلفة لشراء لوازم المستشفى والمركز الاجتماعي الزراعي، واستمارات رواتب الموظفين، والرد على البريد، الذي كثيرا ما كان يحمله موظفٌ إليه في مكتبه بالمنصورة. وكان يحضر يوم اجتماع المجلس للنظر في المشروعات التي تقيمها الوحدة ومشاكل القرى المختلفة، من ردم ترعة يرمي فيها الأهالي القمامة، أو نقل مصرف أصبح معطلاً، أو المطالبة برصف طريق، أو إنشاء مدرسة إعدادية أو ثانوية تريح أبناء القرية من الذهاب إلى المنصورة.

ومن المشروعات التي نجحت، ووجدت صدىً، إنارة قرية طناح من مكنة الإنارة الخاصة بالوحدة، حيث أقيمت أعمدة خشبية للإنارة في شوارع القرية، تضاء مصابيحُها من بعد المغرب، حتى منتصف الليل. وكم عانينا من شكاوى الأهالي من انقطاع الكهرباء قبل أن ينتهي فيلم في التليفزيون؛ ولم يكن بيدنا حيلة، فنحن مرتبطون بميزانية محددة لشراءِ سولار لتشغيل مولد التيار الكهربي، وكان الوقود ينفد مبكراً أحياناً، فينقطع التيارُ قبل الموعد المقرر.

ولم يكن أحدٌ من العاملين في الوحدة يبيت بالقرية، إلا فيما ندر، بالرغم من وجود سكن للعُزَّاب، وثلاث فيلات للطبيب والاختصاصي الاجتماعي والمهندس الزراعي. والمدرسون الذين سيوعون الناسَ، لم يقرب أحدهم سكن العزاب، إلا من كان من محافظة غير الدقهلية.

وموظفو المركز الاجتماعي الزراعي، أغلبهم لا يحضر إلى الوحدة سوى يوم في الأسبوع، بما فيهم الاختصاصي الاجتماعي والمهندس الزراعي، وكذا الطبيب. الوحيدات اللائي أقمن في الوحدة، هنَّ الممرضات ومساعدات المولدات، وقد قمن بواجبهن نهاراً وفي عز الليل، حيث كنَّ يُستدعين للتوليد. ولم يمض وقت طويل حتى كانت أدوات صناعة الأحذية ملقاة بإهمال في مخزن الوحدة؛ وسُرِّحَ العمال، فالفلاح ليس في حاجة إلى من يصنع له حذاءً يسير به في طرقات القرية، فلديه (المركوب)، أو حذاء خفيف (بانس)؛ وهو لا يستطيع الغوص بحذائه في الترعة أو طين الحقل، لنقيه شرَّ البلهارسيا، كما زعمنا؛ لكنه في حاجة إلى حذاء من الكاوتشوك برقبة طويلة؛ وإذا استطعنا توفير ذلك له، فماذا عن يديه ؟!، هل سنحضر له قفازات، مثل الجراحين ؟!.

إن القضاء على البلهارسيا لا يتم إلا بالقضاء على دورتها؛ فإما أن نترك الأرضَ خالية من الزراعة عاماً، وهذا ترفٌ لانستطيعه؛ وإما بحرق مخلفات الزراعة من حطب وخلافه، وهذا نستطيعه، ثم المقاومة الكيماوية والبيولوجية للقواقع، دون توقف.

وفي هذا الشأن، لم يقدم طبيب الوحدة أية توعية للفلاحين بـدورة البلهارسيا، وكيف السبيل إلى قطعها؛ وانصرف وممرضوه إلى الكشف الخاص، خارج العيادة الحكومية، وبيع الأدوية للفلاحين مـن صـيدلية الوحدة، بعد إضافتها إلى تذاكر المرضى، غـداة انصـرافهم، أو عمـل تذاكر بأسماء أناس لم يحضروا إلى الوحدة يوماً.

ولفظ مشروع ناصر للجاموس أنفاسه بعد شـراء الدفعـة الأولـى وتسليمها للفلاحين، لتعثرهم في السداد.

وبرج الحمام، تناقصت أعداده تدريجياً؛ وهناك مـن كـان يـتعلم الصيد بالرش في حمامه، في العصاري؛ وناب الموظفون مـن الصـيد جانباً.

والأرض الزراعية، زرعت كما يزرع الفلاحون، ولم ترشد أحداً، وبيع النتاج لمن يريد.

* *

وبعد الانتهاء من الحديث، أقبل الجميع يسلمون عليَّ ويشـكرونني، لأنهم عرفوا تجربة لم يسمعوا عنها من قبل؛ وأنا متعثر فـي خجلـي، دهش لأني وجدت ما أقوله، ولأني استطعت أن أقول ما قلته، وكثيرٌ منه لم يكن في حسباني عندما شرعت في الكلام.

خليك شوية

بعد وصولي إلى سجن الواحات الخارجة بعدة شهور، حـلَّ عيـدُ الفطر. فوجئت باستعداد الزملاء. خلعـوا ملابـس السـجن الزرقـاء، وغسلوها؛ وبعد أن جفت، طبقوها، ووضعوها تحـت الفرشـة، وفـي الصباح ارتدوها، كأنها مكوية. وحلـق الجميـع ذقـونهم، واسـتحموا، وغيروا. وفي الضحى، زار الزملاءُ بعضُهم بعضـاً فـي الزنزانـات، مهنئين بحلول العيد.

ووزعت إدارة السجن فطيراً باللحم، في قطع مستطيلة، وفطيراً محشواً بالزبيب والفول السوداني، وقد سُقِيَ بشراب سكري. ولست أدري، هل صنعوا الفطير في مطبخ السجن، أم أحضروه من أسيوط. وتحلقت مجموعات من الزملاء، يتناولون الفطير، ويسمرون.

وفى زنزانتي، جلس محمد شطا ومبارك عبده فضل، ومعهما بعض الزملاء. ولم أشأ الانضمام إليهم.

في الخارج، سمعت عن شطا كزعيم عمالي صلب، حيث كان سكرتيرا للجنة النقابية لعمال النسيج بشبرا، التي يعمل بأحد مصانعها؛ وقد حدثني مثنياً عليه ابن بلدي بدير النحاس، الذي زامله في السجن. وكان شطا قيادياً في اللجنة الوطنية للطلبة والعمال، عام ١٩٤٦، مع جمال غالي ولطيفة الزيات وشريف حتاتة، وغيرهم.

لحظت فور سكنى بزنزانته أن فرشته تضم بطاطين أكثر منّا، حيث كان لكل منا بطانيتان. ومع الوقت، وجدته يحصل على طعام من المقصف أو مما يأتي في زيارات العائلات، أكثر منّا. عنده علب شاي من الصفيح، مشتراة من جروبي. علبة عسل أبيض. علبة طحينة بيضاء، وعلبة من الحلاوة الطحينية، من المقصف. وكثيرا ما عزمني لتناول العسل الأبيض بالطحينة؛ وهي أكلة من بنات السجن؛ ففي الخارج، عادة، يكون تناول العسل مع القشدة. لكن، من سيحضر لك قشدة في جوف الصحراء ؟!. وكنت أحب العسل بالقشدة، لذا لم أستسغ في البداية العسل بالطحينة، ولكني اعتدت هذه الأكلة، ووجدتها مشبعة.

تحدثت فيما لاحظته مع زميل قيادي، فقال لي:

- الرجل محكوم عليه بعشر سنوات سجناً، وأمضى مدة كبيرة، وفي حاجة إلى غذاء وغطاء أكثر من أي سجين حديث، أو حكمه سنوات قليلة.

عقلياً، تبدو الحجة مقنعة، لكني لم أتقبل الأمر نفسياً. ومع احتفاظي بعلاقة عادية معه، لم أستطع أن أحبه أو أرتاح إليه.

أما مبارك، هذا النوبي دمث الخلق، والذي يحبه الجميع ويثنون عليه، فقد حدث مرة أن جاءت دفعة من الكتب، وتصادف أنني كنتُ أول من قلبها بين يديه. وجدتُ بها عدة روايات لمكسيم جوركي، فاستأذنتُ الزميل الذي بعهدته الكتب، أن أقرأها، فسمح لي. وبعد عدة أيام، سمعتُ من زميل أن مبارك علّق على ما فعلتُه أنني قليل الذوق. دهشتُ لهذا الوصف. هل لأنني قرأتها قبله ؟. وهل لابد أن يضع خاتم يده على أي كتاب يأتي، بصفته عضوا في سكرتارية اللجنة المركزية، قبل باقي الزملاء ؟.

ومن يومها وأنا أجزعُ منه، بالرغم مما يتشدقون به عنه.

وكانت نفسي تستريح بالحديث مع كمال القلش وصنع الله إبراهيم وسعد الساعي، ابن بلدي، بطل الجمهورية في الملاكمة، والشاعر، وإن لم ينشر شيئاً من شعره، والمترجم، والمغرم بأدب الأطفال. وكثيرا ما كان يقص علينا ما قرأه منه. أتذكرُ حكاية مترجمة، لا يزال اسم بطلها الفأر "دي كارنا" عالقاً بذهني. وعندما كنتُ أناديه به ممازحاً، يضحكُ ويتقافزُ في الهواء، وقد دارت عيناه الصغيرتان في محجريهما بمرح. وبعد أن خرجنا، كان يزورني كلما جاء من الإسكندرية حيث يقيم إلى المنصورة لزيارة أبويه، لنتبادل الحديث.

ويوم العيد إجازة في السجن، فلا عمل في المزرعة أو المغسلة؛ فقط ما له علاقة بإعداد الطعام. إلتقيتُ القلش، وزرنا على الشريف في زنزانته. كانت مواهبه التمثيلية قد تجلت في السجن حين مثّلَ في مسرحية "الخبر" لصلاح حافظ على مسرح بنوه من الحجارة. وبالرغم من نجاح المسرحية في السجن، فإنها لم تنجح في الخارج؛ وقد أتيح لي أن أشاهدَ عرضاً لها في مسرح الجمهورية بالقاهرة. كان الحضور قليلا، وقابلتها الصحافة بفتور.

وبعدها، مثّلَ الشريف في مسرحية عيلة الدوغري لنعمان عاشور؛ وسطع نجمه في السينما بعد ذلك عندما لعب دور الفلاح "دياب" في فيلم

الأرض، ليوسف شاهين؛ كما لعب شخصية "الشيخ أحمد" في فيلم "العصفور"، لشاهين أيضاً .. وبعدها، توالت أدواره، وقد حصره المخرجون في دور شرير من نوع جديد، فملامح وجهه قاسية، لكن قلبه مفعم بالطيبة، وصوته يعبر عن لوعة متهافتة.

وكان الشريف يعمل محاسباً في مصرف بالزمالك، فهو حاصلٌ على بكالوريوس تجارة؛ ولما كان العملاء يحملقون فيه دوماً، فقد ترك العمل، مع أنه في حاجة إليه. ولقد ظلّ، حتى وفاته، لا يملك شيئاً يذكر، ولم يملك عربة خاصة. زرته كثيراً في بيته بالعجوزة (الحي القديم منها)؛ وكثيرا ما حدثني عن آماله في عمل فيلم على مزاجه. طبعاً أنا في الصورة .. أكتب قصته، وأسهم في السيناريو. وكلما التقينا في بيته أو على مقهى بلدي بالقرب منه، لايمل الحديث عنه. وحتى عندما كنت ألتقيه في الإسكندرية صيفاً، حيث كان يعمل على أحد مسارحها التجارية، آخذه ونذهب إلى شقة شقيقتي زينب في (سيدي جابر الشيخ)، ونواصل الحديث؛ ولكنه ظل حتى وفاته لا يملك القدرة المالية لينتج فيلماً. وفي تلك الفترة، أصابته أعراضُ التصوف؛ ولم يكن مؤمناً بتحديد النسل، حتى رزق بطفل أصيب بمرض السكرى، وأصابه ذلك بحزن بالغ، طبع نظرته حتى النهاية.

وبخلاف شخصيته الشريرة في السينما، كانت روحه مرحة. وما زلتُ أتذكرُ دعاباته مع سائقي التاكسيات .. ففي عز أزمة التاكسي في القاهرة، ما إن يشير إلى أحدها حتى يقف السائق لنا، وسرعان ما يؤتيه دفتراً صغيراً، كأنه أعده سلفاً، ليكتب كلمة ويوقع. وطوال الطريق، يتبادلان الحديث والنكات. وأحياناً يجدنا السائق واقفين في جنب من الشارع، أو بالقرب من محطة الباص، فيميل بعربته نحونا؛ وسرعان ما تجلجل الضحكات، كأنهما صديقان من زمن طويل، وسرعان ما يبرز الدفتر، إياه !. وبالرغم من تمنع السائقين في أخذ الأجرة، إلا أنه كان يصمم على دفعها، وبسخاء.

* *

نغادره ونلتقي صنع الله إبراهيم، نتمشى في حوش السجن الرملي. يأخذنا حديث الذكريات إلى آخر الألحان التي سمعناها قبل السجن. وكان صنع الله مغرماً، وكنت معه، بمقطع من أغنية لعبد الحليم حافظ، يقول: " ياما قالت لي عينيه، ساعة الفراق، خليك شوية .. ياما ناداني دمعه، ساعة الفراق، واترجى فيَّ".

ولا يجدي الهروب من أسى العيد في الصحراء. يشتد الأسى، وتدمع عيوننا، وندعي – لأنفسنا – أنها من شدة الضحك والذكرى.

* *

وما إن عدنا إلى العنبر، حتى وجدنا قزانات الفول والعدس في انتظارنا. ظننا أننا استرحنا منها في هذا اليوم. على أية حال، لم يقترب منها أحد. وبعد قليل، وعلى استحياء، نادى المناوب: من يريد ؟. إكتفى بعضُهم بالزيت العائم على وش القزانات؛ وكان فى جوارها قزانات اليمك، وجبة العشاء .. عيدان من نبات مجهول الهوية، في ماء ثقيل القوام من أثر حبات أرز بائسة عائمة.

ذهبنا إلى الزنزانات دون أن يعنى أحد بملء قروانته.

وفي مساء اليوم الثالث من العيد، فتحوا علينا الزنزانات، ولم يسبق أن فعلوا ذلك. خرجنا جميعاً نستطلع الأمر. وجدنا قزانات مليئة بأرز بصلصة، مدسوس فيه قطع لحم صغيرة. ورقيب ينادي المناوبين لتوزيع الترفيه.

تزاحم السجناء حولهم، وقد انبسطت أساريرهم؛ وساروا جماعات ووحدانا في الطرقة، على مهل، يتناولون الطعام، ويتبادلون الحديث.

أحسستُ فجأة بمن يجاورني. التفتُ. كان شريف حتاتة، يتأمل منظر الزملاء، الذي يبدو أنه جذب انتباهه مثلي. علَّق قائلاً:

- الشعب المصري أقل شئ يرضيه ...

الغيــاب

عند عودتي من المزرعة، في بعض الأحيان، كنتُ أســلك طريقــاً موازية للطريق المؤدية إلى بوابة السجن الخلفية، حيث تقع فيلات ضباط السجن. ولم يحدث مرةً واحدة أن رأيتُ نافذة مفتوحة، أو بــاب شــرفة مواربا. ومهما تلكأتُ، وأرهفتُ السمعَ، لا أسمعُ صوتاً. كنتُ على يقــين من وجود زوجات وأطفال، فلماذا الصمت مخيم دائماً ؟.

وذات يوم، حضرت أسرة زميلنا أحمد طه لزيارته، وهــو شــقيق الشهيد عبد القادر طه، الضابط الملقب بالضــبع الأســود، والــذي دوَّخ الإسرائيليين إبان حرب ١٩٤٨.

فوجئنا بابنه في العنبر.

طفلٌ في الثامنة أو التاسعة من عمره ..

أحاطَ به السجناءُ، وسرعان ما تســرَّبَ الخبرُ إلى عنبر المعتقلين، فحضرَ بعضُهم، وقد سارع كلٌ منهم إلى المقصف. ولم يمــض وقــتٌ طويل حتى كان أمام هذا الطفل تلٌ من البســكويت، بمختلــف أحجامــه وأنواعه؛ بالشيكولاتة، وبالكريمة، وسادة؛ وعينا الطفل تلمعان زهواً.

ونحن جميعاً، لاتسمع بيننا دبة النملة، من فرط إصغائنا لــه وهــو يحكي بصوته الطفولي عما يحدث له في المدرسة والشــارع، وأعيننــا تتابعُ تعبيراته، من ضحك وعبوس ودهشة، وهو مأخوذٌ بإقبالنــا عليــه، وقد رفتْ بسمةٌ ماكرة في جانبي شفتيه. وقد وصفتُ هذا المشهد تفصيلاً في روايتي (القرفصاء).

وعندما كنا نذهبُ إلى المزرعة، ونجالسُ مزارعي الواحــة فــي أرض الإصلاح المجاورة لنا، كنا نتنسمُ سماع أو رؤية طفل أو امــرأة، فيخيبُ مسعانا. وإذا تصادفَ ولمحنا إحــداهن، وجــدناها مكلفتــة فــي ملابسها، لا يبين منها سوى وجه لا يفصح عن أيــة أنوثــة؛ ومحاولــة الكلام معها ضربٌ من العبث.

كان الشوقُ إلى المرأة يقتُلُنـــــا، بعيداً عن المتعة الجنسية أو نقــل (المادة)؛ فالجسدُ يصنعُ المنيَّ، مادة الحياة؛ ولنقل المـــادة إلـــى الأنثـــى الحاضنة، يلجأ المخ إلى ألاعيبه. يدفعك إلى تخيُّل المرأة فـــي صـــورة فاتنة، ويزين لك حلاوة الحب والغرام، لتلقى إحـــداهنَّ؛ ويظـــل وراءك حتى تؤدي واجبك في استمرار النوع، بإيصال المادة إلى مستقرها.

وليس معنى هذا استغناءك عن المرأة، حتى دور آخر من توصيل المادة. تظل الحاجةُ قائمة لها، كإنسانة تغمرك بحنانها ومودتها، وتظـــل في توق إلى مغازلتها والتملي برؤيتها. تأسرك جاذبيتها، وترتاح لنعومة صوتها، وتتمتع بلفتاتها، وانسياب تقاطيع جسدها، ولا تشبع أبـــداً ممـــا تعبق به من صفات أنثوية.

وما زلتُ أتذكرُ رؤيتنا لسجانة تقطع الحوش في ســـجن القنـــاطر الخيرية، في طريقها إلى أحد المرافق، كالمطبخ أو المخبز، لتقـــوم بمـــا يلزم لسجن النساء المجاور لنا. كانت طويلة، نحيفة، ذات وجه قمحـــي، يشع بالطيبة، تطل نظرة ودودة من عينين عسليتين، تميلان إلى السواد؛ ويأكل ال (بيريه) الكموني من قورتها حتة. تعبر الحوش، وكأننا كائنات غير مرئية؛ يتطامن ثدياها الصغيران خلف بلوزتها الصفراء، وخطوهـــا يتكئ على وجيب قلوبنا، وجيبتها الكاكية تكاد تطول قدميها. كنا جميعـــا نتطلع إليها ونحن في شوق إلى المرأة، بعيدا عن نقل (المادة).

وغنيٌّ عن القول أن ممارسة العادة السرية لا يحل المُشكل. إنهـــا، بالرغم من اللذة التي تصحبها، مجرد تخلص من (المادة).

وأستطيع قول الشئ نفسه بالنسبة للمرأة؛ فليس معنى أنها أراحـــت نزوعها الجسدي في الارتواء، والحصول على اللذة، الحافز، وإرضـــاء تطلعها إلى الأمومة، أنها ليست في حاجة إلى حنان الرجل ومودته وحبه والإحساس بالأمان ونفي الغربة، عندما ترتبط به.

وكثيرا ما طالعتني مشاعر مبهمة من أعين السجينات اللائي كنـــت ألقاهن مصادفة في مستشفى السجن، عندما يأتين من سجن النســـاء، أو

حين أراهن في إحدى جلسات المحكمة، ويترسب في نفسي حنينٌ ينبعثُ من نظراتهن، يتخلل شغاف الحياء، ويطبع حواف ابتسامات نتبادلها، وكلمات نختلسها.

والمسنون، ومن انقطعت الأسبابُ بينهم وبين الاتصال الجنسي، يشتاقون دائماً إلى المرأة الأنثى، ويوثقون العلاقات الإنسانية معها.

واولئك الذين لم ينجبوا، يحدبون على أطفال أقربائهم وأصدقائهم، ويحضرون لهم الهدايا، بعيداً عن أية منفعة، ويشبعون أبوتهم، أو رغبتهم في العطاء؛ ويتحققون إنسانياً بمداعبتهم للأطفال والتسري ببراءتهم وأصواتهم الطفولية، والاستمتاع بشقاوتهم، وتغمرهم السعادة وهم يراقبون مراحل نموهم، من الحبو حتى تعلم المشي؛ ومن الثغثغة حتى النطق بأول حرف؛ وقضاء وقت طيب في الممازحة واللعب.

إن خلوَّ فضاء السجن المعيشي من صوتي المرأة والطفل يعمق في النفس الإحساسَ بحرمان لا يمكن تعويضه، ينتقص من الإنسان إنسانيته.

الأشباح

عندما وقع انفصالُ سوريا عن مصر، في سبتمبر ١٩٦١، أحسسنا بالأسى لانهيار دولة الوحدة، التي كانت تطبق مثل الكماشة على إسرائيل؛ واستشعرنا خطورة الموقف.

تدارس تنظيمُنا (الانقسام) الموقفَ، وكان على رأسه في سكرتارية اللجنة المركزية، محمد شطا، والمحاميان زكي مراد وأحمد الرفاعي السيد، والأخير من قرية طناح، ويقيم بالقاهرة.، وطالب الأزهر السابق مبارك عبده فضل. ومن الأعضاء البارزين، طاهر البدري وصلاح حافظ ومحسن الخياط وأحمد القصير، وعادل حسين، الذي أصبح فيما بعد من زعماء الأخوان المسلمين، وشريف حتاتة، وأحمد مصطفى

ورفعت السعيد وفؤاد عبد الحليم وأحمد سويلم وجمال غالي وأحمد طه/ نائب روض الفرج بالقاهرة فيما بعد، وإبراهيم عبد الحليم، والقاص محمد صدقي، ومن الشباب كمال القلش وصنع الله إبراهيم وصلاح هنداوي، وغيرهم.

وطلب التنظيمُ من الإدارة إرسالَ مندوب من الحكومة لنعلنه بموقفنا. وفي عصر أحد الأيام، وقفنا في طوابير تحت أشعة شمس الواحات الحارقة، وأمامنا ضابطٌ من الجيش، أرسله الرئيس عبد الناصر ليسمعنا.

وقع الاختيار على صلاح حافظ ليقرأ ما استقرَّ عليه الرأي، فتلى بياناً يعلنُ مساندتنا في هذه الظروف الصعبة لحكومة عبد الناصر الوطنية، واستعدادنا لفعل أي شئ لدرء أي خطر محتمل من إسرائيل وأمريكا، المستفيدين الوحيدين من الانفصال.

شكرنا المندوبُ، وأخذ البيانَ وانصرفَ. ومضت الأيامُ، دون أية استجابة أو رد فعل، وكأننا أشباحٌ اجتمعت بشكل غير مرئي، وأن الكلمات التي تلاها صلاح حافظ كانت من فم لاصوت له.

حارسٌ على الباب

عقد تنظيمنا مؤتمراً (كونفرانس) في الزنزانات التي يقيمُ فيها زملاؤنا، لعدة أيام، من الصباح حتى العصر؛ وعُيِّنتُ حارساً على باب زنزانتي، أمنعُ الدخولَ إلى المجتمعين. ولم أكن أدري بما يدور. وعلمتُ فيما بعد من الدكتور أحمد القصير أن المؤتمر ناقش تقريراً كتبه محمد شطا عام ١٩٦١، يستعرض تاريخ حدتو السياسي ونشاطها بين العمال وفي الريف، حيث رفعت شعار: الأرضُ لمن يفلحها. كما ناقش دورها في محاربة الصهيونية، وفضح ارتباطَها بالاستعمار.

وتحدث التقريرُ عن دور حدتو في الحركة الوطنية، واشتراكها في لجنة الطلبة والعمال عام ١٩٤٦، التي قادت هبة شعبية، انتهت بجلاء

البريطانيين عن المدن الكبرى، والتمركز في مدن قناة السويس. وأسقطت الهيئةُ مشروع اتفاقية صدقي – بيفن، التي كانت تود تكريس الاحتلال البريطاني.

وأقرَّ هذا المؤتمرُ التقريرَ، بعد إجراء بعض التعديلات عليه، كما أقرَّ لائحة جديدة للتنظيم، وحدد أن أهدافه هي: إقامة نظام اشتراكي، ويلزم لذلك تحريرُ مصر من الاستعمار البريطاني، وإقامة ديمقراطية شعبية، ويساعد على ذلك تكوين جبهة من كافة القوى الوطنية.

وانتخب المؤتمرُ لجنة مركزية مصغرة من ستة أعضاء. وقد أحسستُ بالضيق لعدم حضوري هذا المؤتمر، الذي اقتصرَ على القيادة وعدد محدود من الكوادر، ووجدتُ صديقي الصحفي والأديب، المرحوم كمال القلش، يشاركني نفس الإحساس. ومؤخراً، طالعتُ في كتاب صنع الله إبراهيم (يوميات الواحات)، الصادر عن دار المستقبل العربي، في طبعته الأولى، الغفل من تاريخ الصدور ورقم الإيداع، أنه ربما كان يحرس البابَ لتأمين الموتمر، بالتواجد قرب الزنزانة التي عقدِ بها وتحذير المجتمعين عند اقتراب أحد الحراس (ص. ٢٨٤). ويقولُ صنع الله أيضاً، إن المؤتمر انعقد بعد صدور الميثاق الوطني، في مايو ١٩٦٢، الذي أكد على الدور الطليعي للطبقة العاملة، وأشار إلى أن الاشتراكية (العلمية) هي الطريق الحتمي للتقدم. ويقول أيضا أن قادة حدتو رحبوا بهذا، وإن اختلفوا في تفسيره، وتناقشوا حول الوحدة مع هذه المجموعة (التي قالوا في تقرير سابق أنها اشتراكية، وأنها على رأس السلطة)، أم يحتفظون بوجودهم المستقل.

وأرى أن صنع الله قد اختلطت عليه الأمورُ، أو خانته الذاكرة؛ فقد عاصرتُ هذا المؤتمر، كما ذكرتُ، وغادرتُ الواحات في ١٩ أبريل عام ١٩٦٢، أي قبل صدور الميثاق في مايو ١٩٦٢. أما (الاشتراكية العلمية) التي وردت في الميثاق، فليست بمعنى الماركسية، كما هو معروف في الأدبيات السياسية والاقتصادية، ولكنها كما قرأنا لشراح الميثاق وردت بمعنى الاستفادة من الإنجازات العلمية.

ولا أنسى سخرية العامة عندما كان يذكرُ أحدٌ في أي نقاش أن ذلك ورد في الميثاق، فيأتي الردُّ: قرآن، يعني ؟.

أما التقرير الذي أشار إليه صنع الله، ويتحدث عن مجموعة اشتراكية على رأس السلطة، فقد تم وضعه في سجن القناطر الخيرية عام ١٩٦٠، بعد عودة القيادة من المحاكمة العسكرية في الإسكندرية. وبالرغم من أني كنت مسئولاً عن التنظيم في السجن أثناء غيابهم، فلم أشارك في مناقشة فحوى التقرير، حيث اقتصرت المناقشة على القيادة وكوادر محدودة؛ ولم أعرف بفحوى التقرير إلا بعد أن تمت صياغته، وعرض على باقي الأعضاء لإبداء الرأي. وقد ذكر التقريرُ أن نظاماً على رأسه مجموعة اشتراكية من الممكن أن يقيم الاشتراكية. واستند واضعوا التقرير إلى ما ورد في تقرير المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي، من إمكانية الانتقال إلى الاشتراكية سلمياً، دون ثورة، عن طريق صناديق الاقتراع. وتناسى هؤلاء الزملاء أن عبد الناصر قد ألغى الاقتراع الحقيقي. كما استندوا إلى قيام عبد الناصر بتأميم البنوك الأجنبية والشركات الصناعية الكبيرة، وتحديد الملكية الزراعية، وتحديد الحد الأقصى لها مرة تلو أخرى. وتناسى هؤلاء أن ما تم طبقاً لما جاء في مذكرات خالد محيي الدين، وكما أنبأت به الشواهد، كان بسبب احتياج ناصر إلى رأسمال لمشروعات التنمية الاقتصادية، ففعل ما فعل من أجل ذلك، وليس من أجل بناء أية اشتراكية.

وفي هذا الوقت، أدى عدم نضوج فكرنا السياسي، أو قلة خبرتنا، وحداثتنا نحن الشباب إلى قبول ما جاء في هذا التقرير عن المجموعة الاشتراكية، ولم ننتبه إلى المفارقة الصارخة: كيف يبني عبد الناصر وعبد الحكيم عامر، ومَنَ حولهما، الاشتراكية، وفي الوقت ذاته يسجنون ويعتقلون الاشتراكيين، وكل ألوان الطيف السياسي، ويموتُ بعضُهم من التعذيب ؟.

ولقد عارض هذا التقرير محمد عباس فهمي، واعترض عليه أيضاً طاهر البدري عندما علم به، فلم يكن معنا في السجن وقتها.

وتجرُّ المفارقةُ إلى أخرى سبقتها، أشد إيلاماً. فحدتو، بأيديها، لا بأيدي غيرها، ساعدت في وصول العسكر إلى السلطة. وبعد أن وصلوا إليها عام ١٩٥٢، طالبتهم بالديموقراطية عام ١٩٥٣. أية ديموقراطية توقعوها من الحكمِ العسكريِ .. ؟!. وعلى مدى التاريخ، هل أقام العسكرُ، مرةً واحدةً، حكماً ديموقراطياً.

يقول الدكتور أحمد القصير، في كتابه (حدتو ذاكرة وطن)، الطبعة الثانية عام ٢٠٠٩، في صفحتي ١٩ و ٢٠: " وكانت حدتو قد قامت بدعم تنظيم الضباط الأحرار، سواء بوضع برنامجه أو طباعة منشوراته. وغنيٌ عن القول أنها لم تكن بعيدة عن تأسيس الضباط الأحرار؛ فقد كان خالد محيي الدين، أحد الضباط الخمسة المؤسسين لهذا التنظيم؛ كما تحمل هو وأعضاءٌ آخرون في حدتو من الضباط الدور الأساسي في نشاط ذلك التنظيم، وفي كتابة المنشورات وتوزيعها؛ وكان يكتب تلك المنشورات عادة ثلاثة من حدتو، هم أحمد حمروش، المسئول السياسي لقسم الجيش التابع لحدتو، وأحمد فؤاد، مسئول التثقيف لنفس القسم، وخالد محيي الدين؛ وكان عبد الناصر يشارك أحياناً في كتابتها ..

إلى أن يقول: " وفضلاً عن ذلك، فإن تنظيم الضباط الأحرار لجأ إلى حدتو لحماية وتشغيل جهاز الرونيو الذي يستخدم في طباعة تلك المنشورات. وخلال الشهور السابقة على قيام الثورة، تولت حدتو طباعة منشورات الضباط الأحرار في جهازها الفني الخاص، وذلك حماية لأمان الضباط".

ويقول في صفحة ٢١: "اشتركت حدتو بدور ملموس وحاسم في قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢؛ فقد شارك في قيامها عددٌ من المنتمين إليها في أكثر من سلاح من أسلحة الجيش؛ كما كان بعضُ المنتمين إليها أعضاء في نفس الوقت في تنظيم الضباط الأحرار، وفي قيادات التنظيم

ببعض أسلحة الجيش؛ وعلى سبيل المثال، كانت قيادة تنظيم الضباط الأحرار بسلاح الفرسان (المدرعات) تتكون من أربعة أشخاص، برئاسة خالد محيي الدين، وعضوية عثمان فوزي وحسين الشافعي وثروت عكاشة. وكان عثمان فوزي من كوادر حدتو، ولعب دوراً أساسياً في تجنيد ضباط السلاح لتنظيم الضباط الأحرار؛ كما كان ينتمي إلى حدتو عددٌ آخر من ضباط الفرسان.

وغنيٌّ عن التنويه أن كوادر أساسية من حدتو اشتركوا بأدوار قيادية في قيام ثورة ٢٣ يوليو، وفي مقدمة هؤلاء، أحمد حمروش، وخالد محيي الدين، ويوسف صديق الذي استولى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ على قيادة الجيش، وحسم نجاح الحركة. أما أحمد حمروش، فقد تولى ليلة ٢٣ يوليو مسئولية تأمين حامية الجيش بالإسكندرية، بتكليف من عبد الناصر. ولذلك، انفردت حدتو بتأييد الثورة منذ قيامها".

وهناك فارق، أن يكون لحزبك أو تنظيمك ضباطٌ في الجيش، يدعمونه (الحزب أو التنظيم) حال وصوله إلى السلطة، وأن يكون ضباطك في خدمة تنظيم عسكري يسعى للوصول إلى السلطة. ما أن يفعل، حتى يدهسك عند أول منعطف !.

وكان مصطفى النحاس، زعيم الأمة وحزب الوفد، أكثر حصافة من القادة الماركسيين؛ فعندما علم في أثناء إجازة له في أوربا باستيلاء الجيش على السلطة، أسرع بالعودة، غير مصغٍ لنصيحة بالتريث، قائلاً:

- الجيش دا بلدوزر ..

ولقد دفعت حدتو ثمنا غالياً، فلم يقتصر اضطهادُ أعضائها على السجن والاعتقال والتعذيب والموت، بل تعداه إلى الفصل من الوظائف، والتشريد، والمطاردة؛ ثم حل التنظيم فيما بعد. وعلى المستوى القومي، إلغاء الدستور في يناير ١٩٥٣، وحل الأحزاب في العام نفسه، ورفض قيام حياة نيابية.

أبو عفان

ساعة العصاري، أذهبُ أحياناً، برفقة بعض الأصدقاء إلى السور الجنوبي، ونجلس رملاً، مستندين بظهورنا إليه؛ تمتدُ أمامنا باحة السجن، عن يسارنا العنابر، وعن يمينها مبنى الإدارة، وتم تعبيدُ مساحة صغيرة أمام عنبرنا، وسطها شبكة عريضة، للعب كرة المضرب؛ وعلى يسار الباب صُفّت أزيارٌ لتسقيع الماء.

وذات يوم، قدم لنا صديقٌ شاباً من عنبر المعتقلين، اسمه عثمان فهمي، وأخذ يمتدح صوته، ويناديه باسم التحبب (أبو عفان)، ليغنينا شيئاً. استجابَ للرجاء، وجاءنا صوتُه رائقاً، هادئاً، دافئاً، يطربنا بـ (شفت حبيبي وفرحت معاه). وكانت أول مرة أسمعُ فيها هذه الأغنية. انتشيتُ من لحنها، ومن كلماتها التي تبث الفرحة والبهجة، خلافاً لما اعتدناه من اللوعة والهجر، في أغلب الأغنيات.

وعندما خرجت،حين كنتُ أستمعُ إليها بصوت محمد عبد المطلب، تنتابني حالة النشوة التي انتابتني أول مرة سمعتها فيها، وأتذكرُ على الفور زميلنا (أبو عفان).

وحين كنتُ أقضي باقي مدة تجنيدي، في عام ١٩٦٦، بمقر القيادة العربية الموحدة بمدينة نصر، كنتُ أذهبُ إلى حي السيدة، ألاقي بعض أصدقاء يسكنونه، نروِّحُ عن أنفسنا بالتمشية، أو الجلوس في مقهى. وذات مرة، وجدتُ (أبو عفان) أمامي. أخذني في حضنه، وعزمني لتناول الشاي في بيته القريب. ذهبتُ معه، وحكي لي عن أمه المريضة التي يعولُها، وأنهم رفضوا عودته للعمل، رغم صدور قرار من الرئيس عبد الناصر بالعفو عن الشيوعيين. وإذا كنتُ قد استفدت من هذا ورجعتُ إلى وظيفتي الحكومية، وأخوض معركة لاسترداد أقدميتي، فإن القطاع العام، الذي كان يعمل به (أبو عفان) لم يطبق القرار، ولم يستجب له القطاع الخاص. وكان أبو عفان مديراً لدار عرض، تتبع المؤسسة العامة للسينما.

طيبتُ خاطره، وساعدتُه قدر ما سمحت ظروفي، فراتبي الـوظيفي موقوف طوال فترة التجنيد.

والتقيته بعدها عدة مرات؛ وفي كل مرةٍ، لا جديد، سوى الشـكوى والألم يعتصر وجهه الأبيض، وقد انغرز شقٌ في ذقنه، واختفت الوداعةُ من عينيه، وحلت محلها غبشة، ونشعتا بدمع.

كلمت الصديق طاهر البدري بشأنه، فأخبرني أنـه سـاعده عـدة مرات، لكنه لا يستطيعُ مجدداً، طالما لم يقلع عن الهيروين، بالرغم مـن وعده بالإقلاع أكثر من مرة.

أنهيتُ مدة خدمتي، وغادرتُ القاهرة، وافتقدتُ أخبـارَه. ويومـاً، كنتُ أعبثُ بمفاتيح الراديو، فسمعتُ عبد الحليم حافظ في حديث إذاعي، يذكرُ للمذيعة أنه عندما سمع أغنية "شفت حبيبي وفرحت معاه .. كـان وصل جميل .. حلو يا محلاه"، أول مرة، كـاد يُجـنُّ مـن الطـرب اطمأننت إلى ذوقي، وتذكرتُ على الفور الزميل عثمان، واعتراني أسفٌ شديد.

حمارة الإصلاح

حمارنا يحب حمارة في أرض الإصلاح الزراعي؛ مـا إن يسـمع نهيقها حتى يطيحُ بمن يكون على ظهره، ويعدو قفزاً، فوق جسر صغير محاذٍ لترعة، متصلة بحوض له سورٌ مستديرٌ من الأسـمنت، بارتفـاع متر، ماؤه زلالٌ شفاف، نابع من الأعماق.

ويأتيها ردُّه، فتقفزُ، ملقيةً أية حمولة على ظهرها، أو قاطعـة أيـة مهمة تقومُ بها، وتسرعُ إلى الغرب من أرض الإصلاح، حيـث نمـت بعضُ الأشجار، وسرعان ما يوافيها هناك. وعبثاً يجري أحدٌ من عندنا، أو من عندهم، ليلحق بها أو به. وبعد التعب، نجلـسُ، عـادةً عنـدهم، ونضحكُ مما جرى، ويتشعب الحديث ..

والحقُّ أن حمارنا لم يكن يطيحُ بمن فوقه عند سماع نهيق الحبيبة، فقط، لكنه يفعل ذلك إذا أحسَّ أن راكبه غشيم. وكثير من السجناء السياسيين أفندية، ولم يسبق لهم ركوب حمار، فكان اللعينُ يجري اختباراً عند قطعٍ في الجسرٍ، بعد حوض الماء بقليل، يستدعي قفزة، يفاجئ بها راكبه، فإذا اختلَّ توازنُه، تقافز في شيطنة، وأوقع به، وانطلق جارياً نحو أرض الإصلاح، بينما تتصاعدُ ضحكاتنا، ونسرع إلى فلاحي الإصلاح، منتهزين الفرصة لمجالستهم وشرب الشاي.

وهم من سكان الواحة، وكنا نهديهم ما يفيض من خبزنا. أرغفة كبيرة من دقيق القمح، وليست ناضجة تماماً، ولا تقب. كانوا يفرحون بها، لست أدري لماذا .. هل لأن الخبز غير متوفر عندهم، أم لأن خبزهم مصنوع من دقيق الشعير، والقمحُ يفوقُه طعما؟. وكانوا يعطوننا -أحياناً- قليلاً من لبن الماعز، أو عدة بيضات. وعرفنا منهم أن الفدان يتكلف إعدادُه للزراعة عشرين ألف جنيه؛ والموظفون مجلوبون من الوادي، وتوفر لهم الدولة المساكن؛ في حين أننا أعددنا عشرين فداناً للزراعة، دون كلفة تذكر؛ فقط بسواعدنا.

كنا قد سعينا للعمل في المطبخ، في جوار السجناء العاديين، لتحسين الطعام، فاكتشفنا وصول الخضروات ذابلة، أو على وشك الذبول، حيث كانت عربات النقل تحضرها مرة أسبوعياً، ومعها الدقيق واللحم، من أسيوط، على بعد حوالي ٤٠٠ كم؛ فاقترحنا عمل مزرعة للسجن، ووافقت الإدارة.

مُهِّدت الأرضُ، وأقيمت الأحواضُ والترع. وكانت مراحيض السجن تصرفُ غير بعيد من سوره الغربي، وقد أحالت الأرض الرملية إلى مستنقعات. حوّل بعضُ الزملاء ماء الصرف إلى حفر عميقة جهزوها، وأضافوا إليها قمامة السجن .. مخلفات المطبخ ومخلفاتنا، كقشر البرتقال واليوسفي والخضروات، والورق بعد حرقه؛ وغطوا الحفر بالرمال. وبعد خمسة عشر يوماً، يفتحونها. وحصلنا من التفاعل

بين ماء الصرف والقمامة على سماد أزوتي طبيعي، أفاد النبات كمكون رئيسي للبروتينات، ونتيجة للتفاعل تم التخلص من العناصر الضارة، وانبعث غازُ الميثان.

وأينعت المزرعة .. بازلاء طعمها سكري، كثيراً ما قطفت قرونها، ومعي المرحوم كمال القلش، وأكلناها نيئة. وزها الباذنجان بلونه البنفسجي وكبر حجمه، وفي جواره الكوسة والطماطم والفلفل والبصل والفول الحراتي. وطوال حياتي لم أتذوق مثل جرجير المزرعة المزز، وفجلها الريان.

وتحيط بالمزرعة أشجارُ الخروع، تصدُّ عنها الرياح المحملة بالرمال؛ وغير بعيد من سور الحوض المائى، مستطيلات زرعت بالزهور؛ بنفسجية مطرزة بحواف سوداء منقطة بالأصفر، وبعضها حمراء ذات ملمس قطيفي، وأخرى صفراء بنقط بنية؛ وغيرها مما لا حصر لتنويعاتها وتدرج ألوانها، تحيطُ بالمستطيلات زهورُ عباد الشمس، عيدانُها طويلة، وأوراقها الصفراء كبيرة، تحيط بقرص بني.

وكان يحلو للأديب إبراهيم عبد الحليم أن يتكئ بمقعدته على سور الحوض، ويسرحُ في تأمل تلك الزهور.

ولم يمض وقتٌ طويل حتى أمددنا مطبخ السجن بالخضروات، كما كنا نحضر بعضها، ونوزعها على الزنزانات بالدور. وكنتُ أذهبُ إلى المزرعة يومياً، مع أني لم أكن ضمن العاملين فيها، للترويح عن نفسي؛ وكان يشرفُ عليها اختصاصي زراعي من الزملاء في (التكتل)، وعين للعمل فيها زملاءً من التنظيمين. وكان الاختصاصي يحدد ما يريده من أنواع البذور، فيحضرها الأهالي في الزيارات .. طبعاً الأهالي القادرون على كلفة الحضور إلى قلب الصحراء الغربية، والتي لا تستطيعها الأسر الفقيرة، ولذا حُرِمَ أغلبُنا من الزيارة؛ ناهيك عن المشقة التي كانت تتحملها الزوجات، وحيدات أو برفقة أطفالهن، حيث المبيت في قطار الصعيد، وتعرضهن للمضايقات والتحرش.

وفي طريقي للمزرعة، أشاهدُ شريف حتاتة، الذي لا أدري لماذا أخذ على عاتقه الاضطلاع بحفر السماد .. أراه مشمراً ذراعيه، كاشفاً نصفه السفلي إلا مما يستر عورته، غارزاً رجليه في حفرة يخرج حشوها بفأسه ويضعه في مقاطف سوداء من الكاوتشوك، تمهيداً لإرسالها إلى المزرعة. وأحياناً أراه في المستنقعات المحيطة، يشق مجرىً للماء لينزلق إلى إحدى الحفر، ويغطيها بالرمال.

وكنتُ ألتقي صديقي كمال القلش في المزرعة، حيث خبّأ في حظيرتها التي تضمُّ بعض الثيران، إلى جانب الحمار الحبيِّب، بعض أوراقه، يستخرجها لينقح ما سبقت كتابته، أو يضيف إليها، وكثيراً ما صادفتُ صنع الله برفقته، وكانا صديقين حميمين.

وكان من المناظر المألوفة، والتي تجعلني لا أكف عن الضحك، منظرُ زميلنا صلاح هنداوي، وكان يعملُ سكرتيراً لشيخ شيوخ الطرق الصوفية بالقاهرة، وقد أمسك بفأسه يعزق الأرض في حوض خاص به، أقامه بعيدا عن المزرعة؛ ولسوء طالعه، كانت أرضه صلصالية. وبالرغم من تريقتنا عليه في غدونا ورواحنا، إلاَّ أنه واظب على العمل؛ فتارة يغرقها بالماء، وأخرى ينتزع طبقة من تربتها، ومرة يضيفُ رملاً إليها ..

- يا صـــــلاح صلصـــــال ...

لا يلتفت إلينا، غير عابئ بسخريتنا. وحتى آخر عهده بالسجن، لا الأرض أنبتت، ولا صلاح أقلع.

* *

وأعودُ آخر النهار ...

ألمحُ شريف حتاتة يشطف جسده في حوض الماء، ومعه بعض الزملاء يبلبطون، وقد يحاول أحدهم العوم، لكن عدم اتساع الحوض لايسعفه بأكثر من ذراعين أو ثلاث.

وأتلكأ في المسير ..

فالسجنُ مفتوحٌ؛ خالٍ من حراسٍ على أبوابه طوال النهار؛ نخــرجُ وندخلُ حتى وقت الغروبً، موعد إغلاق الزنزانات وعمل (التمـــام)؛ لا يستطيع أحد الهروب. من الشرق، أسيوط ؛ ومن الغرب حوالي ٨٠٠ كم حتى الحدود الليبية .. لا بشر، ولا زرع، ولا ماء.

وذات مرة، أفاد (التمام) بهروب سجينين عاديين، فانزعج الضباط. هدأهم المأمورُ، وطلب منهم الانتظارَ حتى ينقضي الليل. وفي الصـــباح، استقل عربة جيب، وبرفقته بعض الضباط والعساكر، وانطلقوا في اتجاه الحدود الليبية. ولاشك أن المأمور أدرك أن الهاربَ لن يســلكَ الطريــقَ المسفلت إلى أسيوط، أو يركب الباص الذي يمرُّ مرة واحدة، أســبوعياً، وكمائن الشرطة على الطريق، ولا يستطيع أن يسلك داخل الصـــحراء، حيث بضعة نجوع، لا تساعد الأسرُ القليلة في كل منها الغريــبَ علـــى الاختباء.

في الضحى، وجدوا الهاربيـــن وقد خــرَّا تحت أشعة شمس قاتلة، وفي عرض نقطة ماء، فقال لهما المأمورُ: هــــا .. أتركَكما أم تأتيان معنـــــا ؟.

فرجواه أن يأخذهما.

الإفـــراج

كان انتقال السجين الشيوعي، بعد انقضاء مدة سجنه، إلـــى عنبـــر المعتقلين، يكلفه رحلة إلى القاهرة، يزورُ فيها مبنى المباحث العامة فـــي لاظوغلي، وتجرى له مقابلة، سرعان ما يعود بعدها ومعه أمرُ اعتقال.

وعندما أنهيتُ ثلاث سنوات، مدة الحكم بسجني، ودعني الـــزملاء، على أمل ألاَّ أعود. كانت أخبارٌ قد انتشرت أنهم بـــدأوا يفلتـــون بعـــض الزملاء؛ لذلك سافرتُ يداعبني بعضُ الأمل.

وفي مبنى المباحث العامة، لطعـــوني علـــى دكـــة أمـــام إحـــدى الحجرات، والضباط رائحون غادون، لا يلتفتُ إليَّ أحد؛ وقد نال منـــي

تعبُ الرحلة الطويلة، ولم أدخل إلى حمام، ولم أتناول أيَّ طعام، والقلقُ يعبثُ بي: أمر إفراج، أم أمر اعتقال ؟!.

وبعد العصر بقليل، وأنا الواصلُ في العاشرة صباحاً، استدعاني أحدُهم. قرأ من ورقة أنني حررتُ في مجلة (الشِّراع)، وهي مجلة ورقية أصدرناها في سجن مصر، وأنني زاملتُ فلاناً وفلاناً في زنزانة رقم كذا؛ وأنني قلتُ لطالب في الجامعة الأمريكية كذا وكذا.

معلومات صحيحة وهايفة. يود أن يدخل في روعي معرفته بكل كبيرة وصغيرة عني؛ وبالتالي فلا داعي للكذب إذا ماسألني عن شئ. واستطرد:

- نريدُ منك كلمتين، وتخرج على الفور ...

تطلعتُ إليه مستفهماً، فقال:

- الشيوعية لا فائدة منها .. كلمة تدلُّ على ذلك ...

وأخذ يسهل الأمر:

- مجردُ إجراء روتيني ...

وتذكرتُ ما سمعته عن بعض المفرج عنهم بعد استنكارهم للشيوعية. أي أنه يطلب مني استنكاراً بأسلوب مهذب.

وفيم كان السجن، إذن ؟

وفيم كان الفصلُ من العمل، إذن ؟

وفيم كان موتُ أبي وأنا في الواحات، إذن ؟

وفيم .. وفيم ..

وكيف أحترمُ نفسيَ فيما بعدُ، إذا استنكرتُ ما آمنتُ به عن اقتناع؟.

أيقنتُ أنني عائدٌ للمعتقل، لا محالة. وجلستُ ساهماً، دون أن تمتدَّ يدي إلى قلم وضعه على ورقة أمامي. قال يشجعني:

- أنت من فصيل يؤيد الرئيس عبد الناصر .. أكتب هذا مع كلمتين عن نبذ الشيوعية.

أخيراً، نطقتُ:

- تأييد حكومة عبد الناصر الوطنية نعم، أما غير ذلك، فلا ...

قال :

- أكتب هذا، مع كلمتين، كما قلتُ لك، بالطريقة التي تعجبك ..

ظللتُ جامداً، فتركني وانصرفَ.

تبينتُ أنني غارقٌ في عرقي، وفجأة، غـادرتني رهافـة حواسـي المتوجسة؛ وبدأتُ أسترد جأشيَ، وأردد في نفسي: اعتقـال، اعتقـال .. وأمري لله.

عاد الضابطُ وجلسَ. تطلّـعَ إليَّ برهة، ثم غادرني. وجـاء بعـد قليل، وعبث في أدراج مكتبه، وخرج لما يقربُ من نصف ساعة. وحين عاد، قال في دهشة مفتعلة:

- لم تكتب شيئاً ..

تطلعتُ إليه صامتاً، فقال:

- أكتب ما تريد ...

قلت:

- فقط، تأييدي لحكومة عبد الناصر الوطنية المعادية للاستعمار...

فأومأ بالإيجــــاب.

قلتُ في نفسي، هذا خطنا السياسي، فلا ضير في ذلك، وهو معلــن للكافة.

وبعد أن كتبتُ ذلك، حاول أن يجعلني أضيف كلمتين، فالــدنيا لــن تنهد إذا ما كتبتهما، دون جدوى.

أخيراً، أخذ الورقة، وطلب مني أن أنتظرَ أمام حجرته، على الدكة الخشبية إياها.

جلستُ باسترخاء، لا أدري ماذا يُدبَّــرُ لي. وودتُ لو أمدد علــى الدكة وأنام، وأنسى العالم بمن فيه. وبعد ما يقربُ من ساعة، اســتدعاني وأعطاني ورقة أخرى، وطلب مني كتابة عنواني وعناوين أقاربي. قلتُ في خاطري، عنواني ممكن، فهم يعرفونه جيداً، أما أقاربي، فلماذا أسبب

لهم الإزعاج، وربما الإهانة، في حال إذا ما تغيبتُ يوماً عن أعينهم، أو أرادوني لأيٍ سبب ولم يجدوني، وذهبوا يسألونهم.

كتبتُ عنواني، وقلت:

– أقاربي أستطيعُ الذهاب إليهم، ولكني لا أحفظُ أسماء الشوارع وأرقام البيوت ..

قال:

- أكتب ما تتذكره .. ياسيدي، أخوك .. أخواتك .. ألا تعرف عناوينهم ؟.

كيف أخرجُ من هذه الورطة ؟!. هداني تفكيري إلى أن أكتب أية عناوين، والسلام. وحين أخذ الورقة وذهب إلى حجرة أخرى، ضحكتُ في سري .. أكيد، انكشفتُ وهو يراجعُ ماكتبتُه على ما عنده. على الأقل يعرفون عناوين أخوتى.

دخل الضابطُ، وقد رسمَ ابتسامة على وجهه، وقال:

- خلاص .. ستخرج ...

تعجبتُ. بالتأكيد يعرف الحقيقة؛ ولكن يبدو أن الإفراجَ كان قد تقررَ، بالرغم من أيٍ شئ.

ولم أصدق، إلاّ عندما حضر ضابطٌ من الترحيلات، وبرفقته عسكريان.

أنا مفرجٌ عني، فلماذا الحارسان، والقيد الحديدي ؟!

علمتُ أنني مُرحَّلٌ إلى سجن القناطر الخيرية. كان الحكمُ الذي صدر بحقي ينصُ على دفع مئة جنيه غرامة، إضافة إلى مدة السجن. ومن لا يستطيع السداد، يحِجز لإكراهه على الدفع، وبحد أقصى ثلاثة شهور. وفي حالتي، حمدتُ الله أنه سيتم حجزي في سجن القناطر الخيرية، بدلاً من حجز قسم أول المنصورة، كما هو متبع مع المجرمين العاديين.

وبعد الإفراج عني، كان ينط لي مُحضر كل شوية من قسم المطالبات بالمحكمة، يطالبني بدفع الغرامة. حسبوا مدة الإكراه بـ ٩ جنيهات؛ اليوم بعشرة قروش؛ وأصبح في ذمتي لهم ٩١ جنيها.

وعلى أي حال، فقد أفدت كثيراً في هذه الشهور الثلاثة. كانت زمتة الحبسة الأولى في السجن نفسه قد خفت، وسُمحَ للسجناء بقراءة الكتب، ولم يعد الجوُّ مشحوناً بعداء حملة القبض عام ١٩٥٩ .. كنا في أبريل ١٩٦٢. وجدت مع الزملاء ثلاثية نجيب محفوظ، فقرأتها، وكذا مجلدات تاريخ الحضارة لتوينبي. واهتممت بالحضارة الإسلامية؛ أود أن أعرف طرائق الحياة التي كانت تعيشها المنطقة وقتها؛ وعرفت مدى تقدمهم .. أقاموا الحدائق العامة، وأنشأوا المستشفيات، واستخدموا نظاماً فريداً للصرف الصحي.

وبعد أن خرجت بفترة، كنتُ في الإسكندرية، وانتهزتُ الفرصة وذهبتُ إلى رشيد لأرى بيوتاً باقية من أواخر عصر المماليك، وبها صرف صحي في أنابيب من الفخار. وأدهشتني عمارة البيت من الداخل؛ دورتا مياه متجاورتان، واحدة للرجال وأخرى للنساء، ومنفصلتان. ثمة حائط يسد بين البابين في الطرقة، واحد تدلف إليه من جهة الحريم، والآخر من جهة حجرات الرجال؛ وفي كل دور فسحة في صدرها مندرة مرتفعة، تشبه السندرة، وتحيط بالفسحة حجرات مرتفعة عنها بمقدار سلمتين. وتستطيع النساءُ في أية حجرة سماع ورؤية من في الفسحة أو المندرة، لكن الرجال ليس بوسعهم رؤيتهن.

أى الاتصال والانعزال في آن.

وفي جدران البيت ذي الأدوار الثلاثة، من الخارج، المشربيات، ذات الثنيات الكثيرة فيها وفي الجدران وفي خشب النوافذ، مما يخفف من تعامد الشمس عليها، فلا يسخن الهواء في الداخل.

وقيل لي أن هذا البيت بنيَ في وقت قريب من العصر الذي عاشت فيه زبيدة، زوجة مينو، أحد قادة حملة نابليون. وسألتُ عن بيت عائلتها، فلم أجده، وإن أكدوا لي أنه لم يكن يختلف عن هذا البيت.

وبعد أن غادرتُ، وكنا في الضحى، دخلتُ مطعماً لتناول الطعام. رأيتُ المقدم، وهو غالباً صاحب المطعم، يرتدي سروالاً أبيض فضفاضاً، ويلف شالاً حول بطنه، وشالاً آخر حول رأسه، كالعمامة. ونظرتُ إلى الطبق أمامي .. حبات فول كبيرة، في صحن غويط من الصاج، وعلى الطاولة زجاجة زيت، وأخرى فيها (دقة).

عاودتُ التطلع إلى الرجل، وخُيِّلَ إليَّ أنني أعيشُ في العصر الإسلامي.

* *

وسرعان ما مرت الشهور الثلاثة. وفي قسم شرطة أول المنصورة، سلموا أوراقي لملازمين في حجرة بها حجزٌ مؤقت، وتركوني. نظر أحدهما في الأوراق، وقال:

- يضحكون عليكم ..

يقصد زعماء التنظيمات الشيوعية. ولما هممتُ بالرد عليه، شخط ونطر، وأشار إلى حاجز خشبي طوله حوالي مترين، لأجلس في جواره. ذهبتُ حانقاً.

لمحتُ أمي في حوش القسم، ومعها حقيبة، خمنتُ أن بها ملابس نظيفة. تطلعتُ للضابط الآخر، لأطلب منه السماح لها بإعطائي الحقيبة، فتجاهلني تماماً. وعلمتُ فيما بعد أن اسمه إبراهيم، وأنه ابن الممثل المشهور، محسن سرحان. وكان قطعة منه.

أرسلني القسمُ إلى مبنى تابع للمباحث الجنائية، في توريل. بصَّموني، وصوروني من مختلف الزوايا، وأعادوني.

وفي مباحث القسم، أخذوا عنواني، وتنبه عليَّ بالحضور كل يوم اثنين، ليوقع الضابط المسئول في دفتر المراقبة، وذلك تنفيذاً لقانون من أيام الاستعمار الإنجليزي، يلزمك بالبيات في منزلك، من المغرب حتى صباح اليوم التالي، مدة مماثلة للمدة المحكوم بها عليك، بحد أقصى خمس سنوات، وذلك في القضايا الجنائية. وليلاً، يمرُّ عليك مخبرٌ، أو ضابط الدورية، ليتأكد من وجودك، ويوقع في الدفتر.

وبعدها، عندما واظبتُ على الحضور كل يوم اثنين، كان الضابطُ لا يدعني أنتظر في طابور يضمُّ القوادين وتجار المخدرات واللصوص؛ فما إن أرسل له الدفتر عبر مخبر ببابه، حتى يوقع، دون أن يتجه بوجهه ناحيتي؛ ولم يحدث مرة أن تلاقت أعيننا، أو تبادلنا كلمة أو تحية.

* *

خطوتُ في الشارع، برفقة أمي،أطوِّحُ ذراعيَّ الخاليتين من أي قيدٍ، غيرَ مصدِّقٍ أنني أسيرُ بين الناس.

حليمو

بعد الإفراج عني بعدة أيام، كنت فى شوق لممارسة الحرية .. أمشى فى الشوارع أتملى البيوت والمحال التجارية والوجوه .. هل ضاقت الشوارع .. ولماذا بدا لى ميدان جامع القاضى صغيراً .. وكنت أمرح فيه وراء الكرة " الشراب " .. أتصبب عرقاً وتتقطع مني الأنفاس. ولحظت تغيراً فى وجوه معارفى القدامي .. هل كبروا فجأة .. ؟ أجلس على أي مقهي ألقاه .. أدخل دار عرض دون تفكير فى نوعية الفيلم أو من يمثله. وتصادف أن ارتدت سينما أوبرا وكانت تعرض فيلم " الخطايا " لعبد الحلم حافظ .. انتشيت من أغنياته .. وخاصة الأغنية التى وشت بظرفه وخفة دم ناديه لطفى " مغرور " والتى كلما رددها " كلمة مغرور " أشاحت بوجهها فى لفتات غاضبة تقطر دلالاً .

ومع توالى الأيام، ومهما كنت منخرطاً فى زحمة الحياة، فما أن تتناهي إلى سمعي إحدي أغنيات هذا الفيلم، حتى أنجذب إليها بكل حواسى، مستشعراً طعم الحرية الذى رشفته وقتها بعد غياب طويل.

وبعدها، أثناء فترة تجنيدي بالقاهرة، سمعت عن إقامة حفل لـ " أضواء المدينة " فى سينما ريفولى بحي التوفيقية، سيشارك فيه عبد الحلم حافظ.

واعتزمت الذهاب .. ولكن كيف .. وبى شوق .. وبالجيب إملاق..
وحل المُشكل صديق لى والده يعمل فى بوفيه هذه الدار. ذهبنا مساء اليوم الموعود. الشرطة بالباب .. والزحام فى الشارع ..
وأخذنا نفكر فى طريقة لدخولى.
فجأة سمعنا من ينادي فى الزحام، ليفسحوا طريقاً لدخول الفرقة الموسيقية. شقوا طريقهم بصعوبة، وهم يرفعون أيديهم أعلى رؤوسهم بآلاتهم الموسيقية فى أغطية قماشية وعلب خاصة بها.
تبادلنا النظرات .. وانبثقت الفكرة فى رأسينا فى لحظة واحدة.
كان يقف مع الشرطة أحد العاملين فى الدار ويعرف صديقى، أدخله، وسرعان ما عاد ومعه عود فى كيس قماشى، أعطاه لى فى شارع جانبى وعاد.
وبعد قليل كنت أرفع العود فوق رأسى، وأرجو المتزاحمين أن يوسعوا طريقاً ..
ولجت بصعوبة، وإذا بيد شرطي تشدني من يدي، لتسمح لى بالمرور عبر الباب.
وتلقفني صديقى ضاحكاً ..
ولما يئسنا من العثور على مقعد في الصالة، صعدنا إلى البلكون. ولم يمض وقت طويل حتى ازدحم أيضاً. وأطفال وصبية يلعبون فى الممرات،ونسوة يتحدثن .. وغاغة يتقافز نشازها فى القاعة.
وبدأت تتوالى فقرات الحفل .. وبدلاً من خفوت الغاغة .. اختلطت بها ضحكات وقفشات ..
وفى الثانية بعد منتصف الليل، صعد عبد الحليم حافظ على خشبة المسرح، استقبله الحضور بتصفيق وتهليل .. وحين شرع فى الغناء .. عادت الغاغة ثانية.
وأكذب لو قلت أنني طربت لغنائه .. ونويت ألا أحضر مثل هذه الحفلات مستقبلاً .. ولكن تشاء الظروف أن ألتقيه مرة أخرى.

بعدها بعدة شهور، كنت فى المركز الثقافى السوفيتي، وكان وقتها فى شارع زكريا أحمد، بالقرب من مبني جريدة "الجمهورية " القديم.

جلست فى المسرح أتصفح بعض المجلات، فى انتظار صديق كان يبحث عن كتاب فى مكتبتهم بالدور العلوي.

فجأة صعد إلى خشبة المسرح بعض الموسيقيين،ورأيت على بعد خطوات مني، الرجل الذى طالما أشجاني، والذى طالما رأيت صوره فى ميدان رمسيس، أعلاها " حليمو " وقد فرق أغلب شعره على جانب.

وكان واضحاً أنه جاء لعمل تجربة لأغنية جديدة على هذا المسرح، حيث القاعة مكيفة الهواء، ومجهزة ضد الصدي. وقد تحول هذا المسرح إلى حظيرة للسيارات، إبان التوتر بيننا وبين الاتحاد السوفيتي فى أواخر عصر السادات.

جاء صديقى فاستهملته ..

وجاءنا رجل يطلب منا الانصراف فرفضنا. نظر إلينا فى دهشة.

ولفت جدلنا معه انتباه حليم. أومأ للرجل، فصعد إليه وكلمه ..

نظر إلينا حليم مشفعاً نظراته بابتسامته الممزوجة بالدهشة دائماً،ووضع سبابته على فمه، يطلب منا الصمت، ومشيراً فى الوقت نفسه إلى موافقته على بقائنا.

وتابعنا التجربة ..

ولمست مدي حرص الجميع على توافق كل نغمة. وسعيهم إلى الإجادة، وهم يعيدون مقطعاً تلو آخر عدة مرات، أو يكررون لازمة ..

استدعاء ..

فى صباح الخامس عشر من ديسمبر عام ١٩٦٣، كنت أسير طليقا فى شوارع المنصورة. وفى الخامسة بعد الظهر ذهبت إلى مكتب التجنيد بقسم أول الشرطة، تلبية لاستدعائى للتجنيد، وبعد نصف ساعة وضعني الضابط المناوب فى الحجز، لأنني ناديته " يا ريس " أسأله عن موعد

الترحيل. وزعم أن هذه الكلمة تقال لعمال الفاعل أو للحوذية ومن على شاكلتهم .. وفجأة سألني عن مهنتي. ولما قلت له: كاتب. كاد أن يشخر، وأفصح اشمئناط وجهه عن سخريته.

وبعد قليل هدأ، وتبسط معي فى القول.

وفى السادسة كنت أسير برفقة حارس، ليسلمني إلى قسم الترحيلات. فأنا متخلف خمس سنوات. وبعد قليل قاد رقيب دفعة المجندين لنلحق بقطار الشرق فى السادسة والنصف.

غادرت الدفعة محطة التل الكبير، وسرنا فى طريق للعربات، أمامنا عدة كيلو مترات، حتى نصل إلى معسكر الاستقبال. انتصف الليل، وعوت الريح. أقدامنا تتعثر فى الظلام والبرد. الصمت تام بين كل إنسان وآخر، والصخب يضطرم داخلنا. مررنا من بوابة، وسط سور من الأسلاك الشائكة، ونحن شبه مخدرين.

أمرنا جندي من الاستقبال:

– اقعد يا ولد.

انتهت اجراءات الاستلام، ونحن نجلس القرفصاء. وتمر الساعات بطيئة. قطعها مزاح الجندي القائم علينا، مع أحد خفر الليل. وتبادلا شتائم بذيئة. وعيناه لا تغفلان عنا، فلا يستطيع أحدنا أن يركز بمقعدته على الأرض ، أو ينهض ليدفع الدم فى جسده.

طال صبر المجندين، واتبعوا حكمة الصمت والتسليم، وهم لايعلمون ما ينتظرهم.

حملق بعضهم مستنجداً فى الجندي، وقد أنهى مزاحه، واستند بظهره إلى قائم خشبى يعلوه مصباح، يقرأ فى رواية من سلسلة " روايات عالمية " وهي روايات مبسطة ومختصرة، أشبه بروايات الجيب. وعيناه تمسحان الجلوس بين حين وآخر.

الجندي منصرف عن نظرات المستنجدين، وقد تدثر بمعطف صوفى سميك، وأحاط رأسه وأذنيه بفوطة صفراء.

- الذى يتلفع بتلفيعة فى الخلف .. شلها يا شاطر .. أنت فى العسكرية، تعلم الرجولة.

انقطع نور المعسكر عدة مرات، وحين يعود، تبرز أكشاك خشبية متناثرة فوق الرمال وسط شبورة، تسبح ذراتها البيضاء فى الشعاعات المتسربة من مصابيح فى جنبات المعسكر ووسطه.

نادي صوت من بعيد:

- حان وقت النوم.

ما إن نهضنا، حتى صاح الجندي:

- كما كنت .. هل صدر أمر بالقيام. دعكم من فوضى المدنية.

وبعد قليل، ساقنا إلى عنبر خشبى دامس، أرضه خرسانية. وعلمت فيما بعد أن البريطانيين أنشأوه أيام كانوا فى التل الكبير.

وقبل إغلاق الباب، حذرنا الجندي:

- إذا سمعت صوتاً، ستقفون فى الخارج حتى الصباح.

تشجع أحدنا بالظلام، وطلب أن يفك ماءه. جاءه الرد:

- نم يا تحفة يا ابن التحفة.

وبعث الكلام فى نفوسنا بعض الجرأة، فقال آخر:

- لا توجد بطاطين.

علت ضحكة الجندي ساخرة. وتسلل صوته المتباعد يحادث زميلاً له: البهائم يريدون أن أصحي رقيب المخزن ليعطيهم بطاطين.

أحسسنا بحريتنا تعود إلينا فور إغلاق باب العنبر وانطلقنا نضحك. وبالرغم من عدم تعارفنا، تبادلنا تعليقات مازحة.

- الولد الفلاح أبو شال، لا تقف فى أول الصف وإلا ستجلب لنا الكافية.

وجاء الرد:

- الأفنديه المايصة لن توصلنا لبر.

ولم يتح برد ديسمبر، الذى اخترق عظامنا فرصة للاستمرار. تلاصقت الأجساد، وغرق كل منا فى متاهته. فتحت عيني فى الظلام،

فخلت أشباحاً تتحرك. استلقيت على ظهرى فتحول عصعوصى الذى يؤلمني أحياناً إلى مسمار. تقلبت على أحد جنبى، فعانيت من نقح فى قمة ذراعىَّ.

حاولت تعشيق رأسى بين فردتي الجزمة، التى وضعتها تحت رأسى فوق الطاولة الخشبية التى أنام عليها. كلما حاولت صكتني صلابة الكعبين.

كثيرا ما قرأت أن التجربة والألم تصنعان أديباً عظيماً. أفٍ لها من تجربة، ولا شك أن قائل هذا الكلام لم ينم ليلةً فى التل الكبير.

حاولت النوم، لأستعيد قواي، استعداداً لما ينتظرني فى الغد، ولا أعلمه. ولكن كيف .. وعقلى لا يهمد.

جالت فى فكرى زيارة أخي فاروق لى فى سجن القناطر. أخبرني أنه تمكن من السفر بعد الاتفاق مع قبطان مركب فى بورسعيد، أخذه إلى سوريا، ومنها انطلق إلى ألمانيا ولسان حاله يقول لى: ما قلت لك .. دع الأمر لى. وكرر علىَّ أن ذلك فى استطاعته لو نويت بعد خروجي من هذه الحبسة.

ولم أكن أشك فى مقدرته. فهو بائع كلام رائع، يستطيع أن يقنع من يشاء بأى شئ. ويستطيع أن يفعل أي شئ مهما كان مفلساً. وفى ألمانيا باع لهم أن عائلته من ضحايا نظام العسكر الذين استولوا على السلطة فى عام ١٩٥٢، وأن أرضنا الزراعية صودرت. واستطاع أن يتزوج ألمانية بنت صاحب مصنع عمل به، وخلف منها شوية عيال.واستطاع أن يكون مندوباً لهذا المصنع فى ترويج بضاعته فى الدول العربية. وكون كثيرا من الصداقات مع الملحقين التجاريين فى سفاراتنا فى الخارج. وكثيرا ما قابلت أصدقاءً .. هذا يقول لى قابلت أخاك فى ليبيا، وآخر يقول لقيته فى اسطنبول.

ترف الابتسامة على شفتي، إعجاباً بفهلوته التى أفتقدها ..

ولا أدري .. كيف سرقني النوم.

صباح اليوم التالى

أيقظونا فى الخامسة صباحاً .. وهددونا بالجرى حول المعسكر أو الوقوف انتباهاً طوال الليلة القادمة، إذا لم نسرع. وألقى علينا أحدهم محاضرة فى النظافة. جمعنا الورق الملقى على الرمال ومتخلفاً عن علب سجائر وعبوات بسكويت، وقشر اليوسفى والبرتقال، وأية نفايات. وإذا بأصبعي تتجمد كأصابع الطباشير. وحانت مني نظرة إلى سور الأسلاك الشائكة. بعضهم عملها جنبه، وآخرون تسللوا عبره، محتمين ببقايا الظلام، وبقع شبورة، عجز نور المعسكر الكليل عن تبديدها. وفى ساحة المركز صبحونا:

– اقعد يا ولد

– اخرس يا ابن الحمار.

وفى هزء قال الجندي المكلف بنا فى ساحة مركز التجنيد:

– اقعد يا شاطر .. رجلاك تعبتا من القعدة .. دلع المدنيه لا داعي له هنا.

وأردف وهو يتفحص وجوه الجالسين:

– فاهم أنت وهو

وأشار إلى أحدنا ليقف

– أنا .. ؟!

– نعم أنت .. قف .. ما اسمك ؟

– ...

الذى يضحك هنا نقول عليه (...) فاهم. الذى يبص جنبه جناية.. الذى يحرك يده جناية .. فاهمون يا بهائم.

وماذا كان سيفعل لو على كتفه شريط .. ؟!

أحسست بالهوان، لا أدري كيف أسلك، وزاد من هواني كبر سني .. أنا فى السادسة والعشرين، وأغلب مجندي الدفعة لايتعدي سنهم واحداً وعشرين عاماً.

وصلني أول استدعاء للتجنيد فى التاسعة عشرة. وحين وصل الاستدعاءان الثاني والثالث الذى أسلم نفسى بعده إلى منطقة التجنيد، كنت فى الواحات الخارجة.

وبعد الإفراج عني كنت مراقباً فى بيتي، أدخله من المغرب، ويوقع مخبر فى دفترٍ معد لهذا الغرض فى أول الليل. وكان نظام عسكرى الدورية سائداً فى الأحياء. ويمر ضابط برفقته عسكريان على ظهور الأحصنة للتفتيش على الدورية، وللتأكد من وجود المراقبين فى نطاقها.

لحظي نسكن فى الدور الأرضي.وضعت كنبة تحت نافذة مطلة على الشارع، أنام عليها.

وعادة يمر الضابط فى منتصف الليل، أو قبيل الفجر، والحوافر تقعقع على أسفلت الشارع، فتوقظ أهله. وأقوم بين اليقظة والمنام، ليرى الضابط وجهي فى الشباك، ويوقع فى الدفتر. وبعد أن يعتادني يقنع بيدي الممدودة بالدفتر، ولايظهر وجهي ثانية، إلا مع حلول ضابط جديد.

ولما كان الحكم الذى صدر بحقى جناية، فقد أعقبه الفصل من وظيفتي الحكومية.

وتعذر العمل فى القطاع الخاص، حيث يمتد العمل إلى ما بعد المغرب. وحتى .. إذا ما وفقت فى العمل فى مؤسسة ينتهي العمل فيها بعد الظهر، فيلزم الحصول على شهادة معاملة، كإحدي مسوغات التعيين.

أرسلت طلباً للحصول عليها بالبريد المسجل إلى مكتب تجنيد التل الكبير.

استدعوني .. فأفلت من أنياب مباحث أمن الدولة، بعد عام ونصف من المراقبة. لكنهم لم يدعوا الأمر يمر مرور الكرام. اتهموني بكسر الرقابة، وأُحلت إلى المحاكمة. قدمت للقاضى ورقة استدعائى للتجنيد، فحكم بالبراءة، لخروج الأمر عن إرادتي.

* *

جري الكشف الطبى فى حجرات خشبية.

رأي جراح أو طبيب عظام، لا أعرف، اعوجاجاً فى مفصلَ ذراعيَّ. حولني مع آخرين إلى رئيس القومسيون الطبى. لم يرفع الرجل نظره إلينا. قلب فى أوراقنا وهو قابع خلف مكتبه. فجأة حضر طبيب وزعق:

– افتح رجليك سبعة ومد ذراعيك قدامك.

شملتنا عيناه الضيقتان بنظرة خاطفة، وأشار إلى الباب:

– عد إلى مكانك أنت وهو ..

دخلننا إلى حجرة الطبيب الباطني، وكانت متسعة، وكناما يقرب من عشرين شاباً.

صاح بنا:

– جنب الحائط ووجهك عندي.

ثم بلهجة آمرة:

– لباسك تحت.

غلبنا التردد. لكن عبوس الرجل جعلنا نمتثل للأمر، وباشمئزاز، ألقى علينا نظرة، وتناول بطاقة خضراء فى يد كل منا ووقع فيها.

وبدأت مرحلة أخرى من الكشف ..

اقترب منا الطبيب وضغط بيمناه أسفل بطوننا. حاول أحدنا أن يتكلم عن مرضه، فدوي قلم على قفاه.

إذا لم أتكلم الآن، عن إصابتي المزمنة بالدوسنتاريا، والتهاب القولون، فلا فائدة ترجي بعد ذلك. احمر وجهي، محاولاً الخروج من عباءة خجلى، مقنعاً نفسى أن الطبيب الضابط ليس وحشاً ولن يأكلني .. الطبيب يقترب مني وازوراره عمن يود التحدث يثبط همتي. ضغط أسفل بطني فعجزت عن النطق. عداني.. والغريب أني شعرت براحة.. وأرسلت زفيراً من الأعماق.

وحدثت نفسي باستهانة .. هي سنة ونصف، أقضيها بالطول أو بالعرض، وسبق أن قضيت ضعفهما في السجن، وفي حالة مرضية أسوأ. وكان الله في عون العادة (الذين لم يحصلوا على شهادات دراسية، متوسطة أو جامعية) يقضون ثلاث سنوات ويستبقون عدة شهور بعدها.

قال واحد من العادة:

- يابك عندى سكر.

- أنت فاكرها فوضى .. لا تخف .. سنحل لك كل مشكل ماضر لو تكلمت .. لم يفت الأوان بعد ..

وتكلم آخر:

- يا بك عندي دوسنتاريا مزمنة

- إن شاء الله سنحضر لك بسبوسة.

- يا بك .. عندى دائماً دوخة ..

صك قلم قفا هذا الفلاح، وأخرج من بيننا، وكتب الطبيب على بطاقته بالخط العريض : لائق طبياً.

لم يبق إلا النظر ..

ونظري حاد .. وأُعفي كثير من الخدمة نظرهم أحد من الصقر. فالرجل له تسعيرة، وله جلسات مزاج، وهو الوحيد الذى لا يعيد رئيس القومسيون الكشف وراءه.

وانتهت الكشوف حوالى الرابعة بعد الظهر.

وتذكرت أني لم أذهب إلى دورة المياه.

فى أساس تدريب الإشارة

منحونا تصاريح بإجازة لمدة خمسة أيام.

ولا تسل عن فرحتنا ونحن ذاهبون، وعن تعاستنا ونحن عائدون. تكررت التصاريح عدة مرات.

وذات عودة بقينا. وفى اليوم التالى رحلت مع مجموعة من المجندين إلى أساس تدريب سلاح الإشارة فى منشية البكرى، خلف بيت الرئيس جمال عبد الناصر.

وفى هذا الأساس سمعت لأول مرة هذه العبارة: الذى اخترع الميرى، لم يتحمله، فطق مات.

وفى الحقيقه الميرى يمكن تحمله، فالإنسان شيئاً فشيئاً يعتاد الطوابير .. شمال يمين والاستيقاظ مبكراً .. وطاعة الأوامر. ولكن ما لايمكن تحمله هو التفرقة فى المعاملة. من لهم وساطات، أو أقرباء لكبار الضباط، يأتون من تصريح بالإجازة ليحصلوا على آخر. وهكذا .. عرض مستمر .. حتى تنتهي فترة تجنيدهم .. أضف إلى ذلك ما يعانيه باقى المجندين، من عقد تظهر على كثير من ضباط الصف. كانوا فى المدنية يمتهنون مهناً دنيا .. فران .. عامل فى مطعم فول وطعمية .. ماسح أحذية .. بائع جوال .. وذاقوا الذل ليحصلوا على لقمة عيشهم .. وهنا مسلحون بقانون عسكري يحتم الطاعة والضبط والربط، فيعوضون ما عاشوا فيه من مهانة وإحساس بالدونية .. بالتعسف والتسلط على زملائهم .. خاصة أصحاب المؤهلات.

– على يمين الكلب اجمع ..!

ويرتبك كلب ضال فى الحوش، عندما يندفع المجندون تجاهه، ويسارع فى الهروب.

– الجيش قال تصرف ..

وحين نعجز عن التصرف، والجمع على يمين كلب هارب، تلاحقنا الأوامر: صفا .. انتباه .. اجرى .. اجمع. حتى تكل أجسادنا.

ويأتي المساء ..

يدخل العريف خيمته. وكما فعل فى البكور وصاح: أدحرج الصباح، وجاوبته أصوات أخرى،زحلق المساء، وجاوبته أصوات زملائه من ضباط الصف من خيم أخرى.

وما بين دحرجة وزحلقة، تدحرجت نفوس المجندين نحــو هاويــة كئيبة، وزحفت أجسادهم تحت البطاطين، وتحت جنوبهم مراتب خفيفــة، لا تحميهم من برودة الجو، التى تنفذ إلى عظامهم.

وبعد أسبوعين اقتصرت الفترة الصباحية على طوابير شمال يمين. وفى الضحي طوابير تعليم على السلاح. فك أجزاء البندقية وتركيبهــا، وكيفية التعمير وإطلاق النار.

وبعد ذلك توزعنا إلى فرق، تدرس أجهزة الإشارة المختلفة .. من أجهزة لاسلكي وتليفونات. وكانت فرقتي " برق كاتب " جهاز يشبه الآلة الكاتبة، يعمل بالكهرباء، ولا يوجد إلا فــى القيــادات، ينقــل ويتلقــى الرسائل، سواء داخل مصر أو خارجها.

يوم الجمعة

هذا اليوم هنا ليس كسائر أيام الجمع .. لا يحوي ساعات ودقــائق، وليس له شروق وغروب .. إنه هوة كئيبة معلقة فى وسط مترب، تحف به رياح خماسينية، بطيئة مملة، تثير الزهق.

ويعترى الجسد همود، من ثقل مــرور الــدقائق، الموغلــة فــى الاغتراب عن النفس وعن الناس وعن النهار.

ويتبلد الإحساس ..

فقد استطاع زملاء، بالوساطة، أو برشوة المكلف بعمل تصــاريح الإجازات، أن يقضوا أيام جمع ممتعة، سواء فى النوم أو الاسترخاء، أو فى الاغتسال فى شمس الحدائق الهينة، أو فى الجلوس أمام التليفزيــون فى كنف العائلة، أو فى ارتياد مقهي بصحبة أصدقاء.

وبالرغم من ضيقى من قضاء هذا اليوم هنا، فقد كان الهم يركبنــي إذا حصلت على تصريح بإجازة يومين أو ثلاثة. كيف ســأتدبر أجــرة سفرى فى الذهاب والعودة، وراتبى من الجيش لا يزيد عن جنيهــين ..

ولا أستطيع سؤال أمي ومعاشها من أبى بضعة جنيهات .. وشقيقتى الكبرى زينب أقدر ظروفها بعد وفاة أبى وأنا فى الواحات، تصرف راتبها كمدرسة على البيت وأخوتي البنات، ثلاث، فى المدارس، يساعدها أخي الأكبر عادل الذى يعمل فى كوم أمبو بمبلغ شهرياً، وأخي فاروق الذى يصغرني هاجر إلى ألمانيا الغربية، وانقطعت أخباره.

وكان الخجل يعتريني عند العودة من الإجازة، دون أن أحمل زيارة، مثل باقى الزملاء من الطعام والفطائر والمعلبات والفاكهة. أتقى نظراتهم، ونظرات أمي من قبلهم،وهى تشيعني بسؤال مضمر. لماذا جئت ؟!

* *

ويبدأ الانحدار إلى هوة الجمعة من ضحي الخميس، حين يمر مندوب من المكاتب لأخذ الأسماء التى سيصرح لها بالإجازة، تتواثب قلوب بعض المجندين وهو يرجون المندوب أن يكتب أسماءهم بينما يحجم كثيرون، خاصة من أهل الصعيد لارتفاع أجرة سفرهم. ويستجيب المندوب لقلة، فأغلب أصحاب التصاريح قد تحددت أسماؤهم من قبل.

وهؤلاء لا ينطبق عليهم أن الأساس محبوس، كما فعلها مساعد (صول) التعليم فى الأسبوع الماضى. لأن صفا وانتباه لم تعجباه، مع أنهما صفا وانتباه مثل كل يوم.

وإذا لم تأت من المساعد، أتت من حضرة الرائد. يزعم أننا مازلنا فى حاجة إلى تمرين، وربما لحركة خاطفة من أحدنا فى الصف، هش فيها ذبابة عن وجهه. فيعلق سيادته: الضبط والربط قد انعدما فى هذا الاساس. ومن الضروري حبسهم الخميس والجمعة ليعتادوا الانضباط. وإن كان يعلم ويعلمون، أن حبسهم لن يعلمهم شيئاً، فلن يعتبروا أرض الطوابير لأن يوم الجمعة إجازة. وكأن الرائد يقرأ ما يجول فى عقولهم، فيصدر أمره لضباط الصف المناوبين أن تتم الطوابير فى جوار الخيام. وحتى هذا لا ينفذ إلا شكلياً، فأغلبهم يميل إلى الكسل والتزويغ نهار الجمعة.

ومَنَ تجاهلهم المندوب، تظل خيوط الأمل تتجاذبهم، حتى الثالثة بعد ظهر الخميس، موعد توزيع التصاريح. ويرجون من حصل على تصريح أن يمر على مكتب التصاريح ويبحث عن اسمه .. يمكن ..!!

ويلحظ ضباط الصف ضجر بعض الجنود المستبقين فى الأساس، فيهدئونهم بالقول: هل سنخلى الأساس من الأفراد؟!.

ويتناسى هؤلاء السادة أن أصحاب الوساطة لا يستبقون أبداً، حتى لو قيدت أسماؤهم فى كشوف الخدمة (حراسة الأساس ليلاً).

وبعد مناداة اسم صاحب آخر تصريح، ننسحب .. بعضنا إلى أماكن النوم .. وبعضنا إلى المقصف. وإذا ما نجحت فى اقتناص مجلة من أحد المحظوظين أوصيه بإحضار أخرى عند عودته، وأذهب خلف عنبرى. أسند ظهرى على جداره الخشبى، وأمدد رجلىَ، وأتصفح فى لا مبالاة، حتى يشدني موضوع ما.

ويمر الليل .. لا أدري كيف ..

والغريب أننا كنا فى حالات حبس الأساس، نعزي القلة التى ألغيت تصاريحها:

- نحن محبوسون محبوسون .. لكن ما ذنبكم أنتم ؟!

ثم تتصاعد قهقهاتنا، ونردف:

- نحسناكم معنا ..

* *

وبعد هزيمة ١٩٦٧ ووصول خبراء سوفييت للمساعدة فى التدريب، أخبرني صديق عمل معهم مترجماً أنه سأل أحدهم: هل فى الإمكان النصر مستقبلاً، فقال له: عندما تتوقف تصاريخ الإجازات.

* *

نحاول بالمرح التخفيف عن سقوطنا معا فى متاهة الجمعة. ونلعن الاستيقاظ مبكراً الذى تعودناه، وودنا لو أخلف فى هذا اليوم، ولا تجدي محاولة التناوم. ونحن فى كل ثانية نتوقع نداء رقيب نوبتجي النظافة.

وكان بعضنا فور سماع ندائه، يسرع إلى المسجد فى جانب من الأساس، حيث الهدوء، وشقشقة العصافير، قرب فتحة لنور الشمس والهواء وسط سقفه، دون أن يعبأ بعبارة منقوشة على بابه: المسجد للصلاة وليس للنوم.

وكان أكثر ما يدفعنا للهرب، الخوف من نظافة المراحيض، التى يطلقون عليها "الأدبخانة " فهي دائما قذرة، وطافحة كل عدة أيام. وكأنها أقيمت لقرف ومضايقة الجنود، سواء عند استعمالها، أو عند تنظيفها، وليس لقضاء الحاجة.

ولا يكاد الفالتون يهنأون، حتى يلاحقهم نداء:

– " طلبة " للمطبخ.

يولون وجوهم خلف الحملة (مكان إيواء سيارات الوحدة)، وهم يضحكون على من وقع فى أيدي رقيب المطبخ. لن يسلم من تقشير البصل، وغسل قزانات ضخمة، الواحد يسع خمسة منا. مليطة بالدهون، بعد سكب المتبقى من فاصوليا، لايتناول أغلبها المجندون، وتلقى يوميا فى جوار السور، فتزيد من حجم القمامة والذباب، وكثيراً ما تساءلت .. لماذا يشترونها ونفوس المجندين تعافها .. ؟!

– الحق رقيب الجراية (الخبز) يزعق على " طلبة "

يسارعون إلى المراحيض وقد تم تنظيفها. ولا يخرجون قبل أن تتحول العربة التى تقل الـ " طلبة " إلى وحدة قريبة منا بها فرن.

ويقترح واحد من الناجين الذهاب إلى العنابر وليحدث مايحدث.

ولا يلبث أن يسرع إليهم مجند مذعور ويقول:

– ضابط نوبتجي يمر ..

– بيه ..

نظل جالسين فى انتظار تفقده للعنابر،، بعد أن يفتش على نظافة الحوش والمراحيض .. والعمل فى المطبخ ..

لم يحضر .. خلعنا الأحذية وتخففنا من بعض الملابس .. وإذا بمن يصيح:

– اجمع .. اجمع
وأطل الصائح برأسه من باب العنبر ضاحكاً:
– لا تخافوا .. الجراية ..
ولا تكاد أجسادنا تسترخي قليلا، إذا بالصائح الملعون:
– اجمع .. اجمع ..
– ماذا ثانية ..
– التعيين ..
ونحن نغالب الكسل ..
– ماذا عندك ..
– وهل يوجد غيرها .. الفاصوليا أم ريالة.

وكأنما القدر لنا بالمرصاد، فيوم الجمعة خالٍ من اللحم فى الغداء. وكنا فى أول الشهر نترفع عن الفاصوليا، ونستعيض عنها بالبطاطس المحمرة أو الباذنجان المقلى أو المحشى بالثوم والشطة، من عش من الخيش فى جانب من السور، أقامه صعيدى. وابتداء من اليوم العاشر فى الشهر، يشجع بعضنا الفاصوليا. وفى اليوم الخامس عشر، ونطلق عليه اليوم الخمسين من الشهر، ننضم جميعاً إلى صفوف المنادين بأهمية الفاصوليا ونعدد فوائدها الجمة لصحة الجسم.

ويشارك القائمون على المقصف بنصيبهم فى يوم الجمعة .. فلا يبيعوننا فيه إلا طعمية بائتة. ونسألهم برجاء أن نفلت من الفاصوليا:
– لماذا لا تبيعوننا حلاوة طحينية وسلمون وبيلوبيف .. ؟!
– يا أسيادنا اليوم الجمعة، وأغلب العاملين غائبون ..احمدوا الله أننا فتحنا من أجل خاطركم ..

بعد الغداء، يهدأ الأساس .. عدة ساعات حتى يحين موعد صرف تعيين العشاء.

أتأبط ذراع صديق، ونسير وبرفقتنا بعض الزملاء، إلى قاعة التليفزيون. وكان يبث فى هذه الساعة من النهار أغنية طويلة. " تراهنني

" لعبد الوهاب، وتغنيها فايزه أحمد. عيناى تتابعان خفة دمها،وصوتها الحلو يعشش فى نفسى.

وسرحت .. فيما أخبرني به زميل من المنصورة. عندما جاءه استدعاء للتجنيد، قدم طلباً لإعفائه ذكر فيه أنه شيوعي وسبق اعتقاله. وأن المخابرات بحثته وتم إعفاؤه. وأخذ يحثني أن أقتدي به، ذاكراً زميلا آخر من الاسكندرية فعل مثله وتحقق له ذلك.

استهجنت الأمر .. كيف نتكلم نحن الشيوعيين عن الوطن والوطنية .. ثم نطلب الإعفاءمن التجنيد .. ؟!

* *

والآن عندما أتذكر وضعي، أعجب له .. فأنا الوحيد من أسرتي الذى جُند .. أبي لم يجند لأنه دفع " البدلية " وقيمتها واحد وعشرون جنيهاً. وأخي الأكبر عادل من مواليد ١٩٣٢، ومواليد هذا العام لم يصبهم الدور .. وشقيقى الأصغر فاروق هاجر إلى الخارج صغيراً .. وولداي رفعت وإيهاب جُندا .. وأولاد أخي وأخواتي لم يجندوا .. إما وحيد .. وإما وحده مع بنت.

* *

بعد انتهاء الأغنية ذهبت إلى الحلاق. واجهتني فى المرآة عبارة منعكسة عليها: " ممنوع إعطاء نقود ". مددت يدي ببضعة قروش، حتى لا أخرج بنقرة فى شعرى، أو جرح فى خدي .. وهذه الإكرامية على أي حال أوفر، فيما لو حلقت فى المدنية.

فى طريقى إلى الطابور لاستلام تعيين العشاء، مررت بخيمة ضباط الصف ..وقد استلقى بعضهم على سريره السفرى. ورفت على شفتي ابتسامة شامتة. فاليوم لم يجلب لهم أصدقاؤهم من المطبخ الأوعية المستطيلة من الألمونيوم ممتلئة بالأرز أو المكرونة، عامرة بقطع لحم حمراء منتقاة، وانبثق فى خاطري قول جندي:

الجنود عملوا باقى الخيام، وربنا هو الذى عمل خيمة ضابط الصف. وكان هذا الجندي قد لقح كلاماً على التعيين الذى يصلهم. فأوقفه

ضابط صف أمام طابور شمال يمين فى الضحي وأمرنا عندما نسمع رنة القلم على قفاه أن نعمل "صفا" وعندما نسمع الرنة ثانية أن نعمل " انتباه " .. وهكذا.

والعصاري تلم ضوءها، اختليت بنفسى على فرشتي. أتصفح مجلة. طالعتني صور نجمات السينما. اعتراني شوق للجنس. وكاد الضحك يغلبني لادعاء جندي من العادة، أنه يحمل فى جيبه كثيراً من فروج النساء، وأنه يستعملها عند الحاجه.

ليت الأمر متاح بهذا اليسر .. ؟!

وأثار فكرى استخدام الكلمة الدالة على فرج المرأة فى العامية، كفعل (يكسس) يوصم به الجندي الذى ينافق، أو الذى يخطب ود ضابط .. أو ضابط صف، بطريقة غير لائقة.

سرحت ببصرى خلال نافذة مفتوحة أمامي ..

أغصان كافور مورقة .. تمرح فوقها عصافير قبل أن تأوي إلى أعشاشها، خلفها وجه سماء لبنية رائقة ..

هذا الجمال .. هذا الصفاء الموشى بنغمشة عصافير، ماثل فى كل يوم .. كيف لم أنعم به من قبل ... ؟!

أنت عمرى

أفاضت الجرائد والمجلات فى الحديث عن الحفل المرتقب لأغنية " أنت عمرى ". وكانت الأغنية أول لقاء يجمع بين عملاقى الطرب والغناء أم كلثوم وعبد الوهاب. وصفته جريدة " أخبار اليوم " بلقاء السحاب. وقال بعضهم أن الست ستكلثم عبد الوهاب، أي ستفرض رصانة تختها الشرقى على موسيقاه، وقال آخرون أن عبد الوهاب سيستعين بالأوكسترا وما به من آلات غربية، وأن اللحن سينشع بالزخرفة المولع بها عبد الوهاب .. الأمر الذى سيؤثر على طريقة آداء الست.

وفى بيتانسهر يوم حفلها الشهرى. ويأتي الأصدقاء، وبراد الشاى لا ينقطع عن الدوران. ويدور سمر بين الصحاب، كنت لا أستسيغه عندما يستمر أثناء الغناء .. إذ كيف يستعذبون اللحن، ويطربون من الصوت وهم يتكلمون .. ؟!.

اتفقت مع صديق بلدياتي يقيم فى حي عابدين بالقاهرة أن أسمع الأغنية عنده. ويومها لم أستطع الحصول على تصريح بالغياب. قفزت من فوق سور أساس الإشارة، قبل وقوف الخدمة الليلية.

استضاف صديقى ثلة من أصدقائه وجهز طعاماً خفيفاً، وزجاجات من البيرة.

وفى جانب من الحجرة التى تحلقنا فيها، راكية تشع جمراتها .. وسرعان ما دارت الجوزة معمرة بالحشيش.

ومع المقدمة التى أطال فيها عبد الوهاب، مستعرضاً نغماته الرقيقة، دخنت. ودارت أكواب البيرة .. ويا حبيبى تعال .. تتوقف عند اللام بخفة .. وأحيانا متأنية .. ثم موصولة بما بعدها وخدني لحنانك خدني .. وإذا بى كالطيف خفيفاً .. طائراً .. أقل لمسة تجعلني أنتفض .. وأقل قفشة تطلق ضحكاتي .. وتفننت والحضور فى إطلاق النكات والضحك على أي شئ ومن أي شئ. وحين مددت يدي للطعام .. وازدردته فكأن أحداً لطش عقلى .. ومرت برأسى دوخة منملة .. وهات يا ضحك .. ولا نكاد تنتهي وصلة .. حتى أبادر للتبول.

وهات عينيك تسرح فى دنيتهم عينيه .. وهات ايديك ترتاح للمستهم إيديه .. بينما يحوم الدخان الأبيض فوق رؤوسنا ..

انصرفت قبيل الفجر .. أقف وحدي فى أول شارع الجيش من ناحية العتبة .. لا أدري كيف أصل إلى الأساس .. لا تمر بى أية وسيلة مواصلات .. وبينا أدير وجهي مستطلعاً إذا بعربة تهل .. عندما اقتربت تبينت على جنبها شعار " أخبار اليوم ". لا أدري ما الذى ألهمني فأشرت للسائق، ولدهشتى توقف وأشار إلى الخلف. جلست فوق رزمة من

الجرائد .. وعند كل فرشة بائع جرائد فى طريقنا يلقى برزمة. ونزلت بالقرب من بوابة الأساس.

وكان مستحيلاً الدخول من البوابة .. وأنا لا أعرف كلمة سر الليل .. وقد أبيت فى سجن الوحدة عدة أيام إذا اكتشف تزويغي.

درت حول السور، حتى عثرت على أفراد الخدمة، وتكلمت مع أحدهم، فناولني بطانية تكلفت فيها فى جوار زميليه حتى أشرقت الشمس .. قفزت إلى الداخل، وتسللت إلى عنبرى، وغيرت ملابسى المدنية، وحضرت طابور الصباح.

وقضيت اليوم ومازالت رأسى متأثرة بأنفاس الحشيش .. وكنت قد دخنته من قبل عدة مرات من باب الفضول.

وبعد هذه المرة دخنته حسب الظروف، وكعادتي مجاناً، مجاراةً لقعدة، أو فى مناسبة ما. وكذا أفعل مع تدخين الشيشة، وإن كنت أحياناً أسعي إليها، تنفيساً عن ضغط عصبى،أو حزن ألم بى، ولكنها لم تستبد بى كعادة.

وفى اليوم التالى وما زلت منتشياً بلحن عبد الوهاب وغناء الست، وقد تهيأ لى أن عبد الوهاب بلغ بموسيقاه المستوي السيمفوني.حصلت فى المساء على تصريح بـ ٨ ساعات فسحة. أسرعت إلى دار أخبار اليوم، والتقيت صلاح حافظ المشرف على تحرير مجلة " آخر ساعة " وقتها، وسألته عن رأيه فى الأغنية. نظر إليَّ وقال إن ما فعله عبد الوهاب هو قمة التطريب. وفهمت ضمناً أن الأمر لا علاقة له بالسيمفونيات. وعرفت فيما بعد أن التأليف السيمفوني نسق خاص من التكوين الموسيقى، له قواعد رياضية، وطرق علمية متعارف عليها. وقد أفدت من أحاديث الدكتور حسين فوزي من إذاعة البرنامج الثاني، عن الحركات السيمفونية وكيفية تأليفها وعما تعبر. ومما ذكره من تاريخ الموسيقيين العظام، ومن شرحة للموسيقى الشعبية فى البلاد الأوربية، وكيف أفاد منها المؤلفون. وكان يتبع ذلك بإذاعة مقطع موسيقى يدلل به على ما قال، ويساعد المستمع على تذوقه.

ولقد استمعت لهذه الموسيقى دون ملل، خلافاً لـبعض الأصـدقاء الذين أخبروني أنهم لا يصبرون على سماعها. وكنت أعرف أنه لسماع وتذوق هذه الموسيقى، لابد من تعودها، وفهمها.

وساءلت نفسى عن سر تذوقى لها وعدم مللى. فاكتشفت أن السـر كامن فى سماعى لها صغيراً من الأفلام الأجنبية التى شـاهدتها فـى ترسو سينما ركس بالمنصورة. وكان كثير مـن هـذه الأفـلام يحفـل برقصات لفريد أستيروجين كيلى بمصاحبة الموسيقى، وعروض للسبَّاحة استرويليامز، وغناء لدوريس داي وغيرها. وهذه الموسيقى مؤلفة طبقـا لقواعد التأليف على النسق الغربى الحديث.

ولكثرة ترددي على السينما تغلغل الإحساس بهذه الموسـيقى فـى ثنايا اللاشعور، ولم أجد صعوبة فـى الكبـر فـى تـذوق الموسـيقى الكلاسيكية.

وعندما بدأ البث التليفزيوني، كنت مشوقاً لرؤية أم كلثوم تشدو بـ " أنت عمرى ". وحين رأيتها، خففت متعتـي. عنـد الإذاعـة بأخـذك الصوت – المتاح الوحيد – إلى التركيز عليه، أمـا عنـد التليفزيـون، فتقاسمه الصورة.

وحسب تعليمات الست، تظهر الكاميرا ثلاثة أربع جسـدها كحـد أدني ولا تقترب من وجهها. وحرمت المشاهد من تلمس انفعالاتها عـن قرب، ومن الرؤية بوضوح لضحكاتها وابتساماتها، وكيفية تعبيرها وهي تشدو، وكيف تتفاعل مع جمهورها.

خانها ذكاؤها، خشية أن يرى الناس أثر السن على وجهها. ونسيت أن لكل سن جماله، ونسيت أن الاندماج مع الانفعال نوع مـن الجمـال أيضاً. يجعل المتلقى يستمتع بشدوها أكثر، ويتفاعل معها أصدق.

وارتكب عبد الوهاب الخطأ نفسه ولكن من زاويـة أخـرى، فـى بعض أغانيه، وفى حديثه عن تاريخ حياته لسـعد الـدين وهبـة. داري صلعته، ولذكائه، بـ " باروكة " صلعاء لكن بها شعر خفيف فى الوسط

وعلى الجنبين. فأصبحنا نشاهد عبد الوهاب من زمن مضى، وليس الذى يحكي أو يغنى لنا.

فبالرغم من صدقه فى الحكي، إلا أنه أضعف من حميمية التلقــي لانتفاء صدق الرؤية.

وثمة فضل آخر للترسو، أفادني فيما بعد، غيــر فضــل التــذوق الموسيقى.

كانت قيمة التذكرة اثنين وعشرين مليماً، نعطي البائع ثلاثة قروش أو قرشين ونصفاً، فإذا لم تتوفر مليمات فكة يعطينا بها كتيبات مــن ١٠ – ١٢ صفحة من ورق الجرائد بها أغاني الأفلام العربية، لحسين السيد وفتحي قورة ومرسى جميل عزيز وغيرهم من الشعراء.

وكنا نستعذب قراءة هذه الأغنيات على الورق حيــث كنــا نســمع أحيانا بعض كلماتها مضغومة أثناء الغناء، ونود معرفتها، كما كنا نحب استعادة أغنيات ليلى مراد وعبد الوهاب.

كما كانت تباع على الرصيف قبالة شباك التذاكر، كتيبات مماثلــة، بخمسة مليمات أو عشرة للكتيب، يحوي كل منها قصة مثــل: الحمــال والسبع بنات، أو السندباد البحري أو معروف الإسكافى، عرفت فيما بعد أنها من ألف ليلة وليلة، كما قرأت فى هذه الكتيبــات قصصــاً مثــل " خضرة الشريفة " و" فاطمة بنت برى ".

وحين أثير فى مجلس الشعب ما فى مجلدات ألف ليلة وليلــة مــن ألفاظ خارجة، تعجبت .. لقد قرأناها صغاراً ولم يلفت نظرنا شئ. ولــم ينهنا أباؤنا ومدرسونا عن قراءتها .. فماذا جري ..؟

وبعد ضجة مجلس الشعب أصدرت دار التحرير طبعة "مؤدبة" من ألف ليلة .. واقتنيتها لأري ما فيها من أدب .. ووجدتي مدفوعاً لأحصل على المجلدات الكاملة " قليلة الأدب".

ذهبت إلى " الحسين " ووجدت مكتبة أولاد صبيح مغلقــة، ودلنــي أولاد الحلال على مخزن به بقاياها. أشار لى رجل هناك إلى أكوام مــن

الكتب ملقاة فى إهمال لأنتقى ما أشاء. وأفهمني أن أحداً لم يعد يهتم بهذا التراث، وكثير من المكتبات التى كانت تهتم به أفلست.

كان هذا يحدث فى الوقت الذى دار فيه اللغط عن ضرورة الاهتمام بالتراث، واخترعت ثنائية الأصالة والمعاصرة أيام تولى الوزير يوسف السباعي وزارة الثقافة. واشتريت ألف ليلة وليلة فى مجلـدات أربعـة، وبعض سير شعبية غير مشهورة، مثل " قصة سير الإمام على بن أبـى طالب ومحاربته الملك الهضام " و " قصة فتوح اليمن الكبرى وما جري للإمام على مع رأس الغول " وبعض السير المعروفة مثل " قصة الزير سالم " و " قصة الأمير حمزة البهلوان " فى أربعة مجلدات، وطبعـات متعددة لـ " تغريبة بني هلال " وكتب أخرى مثـل " هـز القحـوف " وقصة " فتوح البهنسا " و " إعلان الناس بما وقع للبرامكة مـع بنـي العباس " كل هذا لقاء جنيهات قليلة ..

ولقد فوجئت فى معرض للكتاب بالدار اللبنانية تبيع ألف ليلة وليلة بعشرين جنيها، وقد صوروا من طبعة أولاد صبيح وطبعوها على ورق أبيض.

لماذا لم تقم هيئة الكتاب بطبع هذه الكتب وتيسيرها بأسعار زهيـدة للراغبين.

وإذا كنا جادين بتعريف أولادنا بتـراثهم، فلمـاذا لا تطبـع وزارة التربية والتعليم كتيبات تحوي قصصاً من الف ليلة، كمـا كـان يفعـل الترسو ورصيفه، وتوزعها على التلاميذ فى المرحلة الإعدادية .. ؟!

ولماذا لا تطبع الأعمال ذات الحجم المتوسط مثل " الزير سالم" و " الإمام على ومحاربته الملك الهضام " وتوزعها على تلاميـذ المـدارس الثانوية، خاصة وأسلوب كتابتها قريب من أسـاليبنا الحديثـة. وغنيـة بالعناصر الروائية.

ولقد قمت بقراءة روائية لبعض هذه السير تحدثت فيها عما حفلـت به من رسم للشخصيات وتقديم لحدث رئيس والعناية بالصراع والحوار، مثل:

قصة " الزير سالم " ونشرتها فى مجلة " النهار " بالمنصورة فى ديسمبر ١٩٨٢ ومجلة الثقافة الجديدة فى يناير ١٩٩٧ و "سيرة على الزيبق " ونشرتها فى مجلة " النهار " بالمنصورة فبراير ١٩٨٤ ومجلة الثقافة الجديدة فى أغسطس ١٩٩٧. و"قصة سيرالإمام على بن أبى طالب ومحاربته الملك الهضام " ونشرتها فى مجلة المنصورة الثقافية فى يناير ١٩٩٣ ومجلة الثقافة الجديدة فى أكتوبر ١٩٩٦ و" سيرة الملك سيف بن ذى يزن " ونشرتها فى مجلة المنصورة الثقافية فى يناير ١٩٩٣ ومجلة الثقافة الجديدة أكتوبر ١٩٩٦ و " سيرة الملك سيف بن ذى يزن " ونشرتها فى مجلة المنصورة الثقافية مايو ١٩٩٣ ومجلة الثقافة الجديدة فى مايو ١٩٩٧.

فى القيادة العربية الموحدة

بعد ثلاثة أشهر من التدريب، التحقت بالقيادة العربية الموحدة، وهي قيادة أنشأتها جامعة الدول العربية، وبها ضباط من الدول العربية، تحت قيادة الفريق على عامر، ورئاسة أركان اللواء عبد المنعم رياض.

وعدّنى زملائى محظوظاً، فالجامعة تعطي علاوة جنيهين لكل مجند، أي ما يوازي راتبى من الجيش. وأراحنى العمل فى القيادة، عما كنت عليه فى الأساس، خاصة فى الأيام الأخيرة، حيث زادت حدة التوتر على الحدود المصرية مع فلسطين المحتلة. ولا يمر يوم إلا وتعلن حالة الطوارئ فى الجيش. نظل بملابسنا العسكرية كاملة، وسلاحنا جاهز , وفى أوقات الراحة نستلقى بأحذيتنا الثقيلة وبنادقنا فى جوارنا، انتظاراً لأية إشارة.

كما استرحت من لعنة الـ " طُلب ". حقاً لم تكن تصيب المؤهلات كثيراً، وكانت دائماً من نصيب العادة، لكن الخوف والمطارده يلاحقانك. مرة ذهبت فى " طُلبة " لغسيل قزانات المطبخ. القزان فى طول الإنسان،

وكنا فى البكور، والهواء بارد، وكادت أصابعي تتجمد وأنا أدعك داخل القزان بقش وطين لأزيل ما علق به من دهون، وأشطفه بماء فى برودة الثلج. وهنا الطعام والجراية تأتينا من وحدة أخرى، وكثير منا يصرف بدلاً نقدياً سبعة جنيهات شهرياً.

واسترحت من الطوابير، حيث عملت فى مكتب رئيس فرع الإشارة. أذهب إليه فى الثامنة صباحاً وأنصرف فى الثانية بعد الظهر، كأي موظف.

وقد احتلت القيادة عدة عمارات فى مدينة نصر. وخصصت لنا عدة شقق للمبيت، وأستطيع بعد الظهر أن أذهب أينما أشاء، باستثناء يوم فى الأسبوع خدمة ليلية. وفى هذه الفترة رُقيت إلى وكيل عريف، فأصبحت حكمدار الخدمة، أمر عدة مرات على أفرادها أثناء الليل، ثم أبيت فى شقتى.

ورأسني فى المكتب رقيب متطوع يذهب إلى بيته فى المنوفية بعد الظهر ويأتي فى الصباح، وكذا باقى المتطوعين، وكان أغلبهم يرتدي ملابس مدنية، يخلعها عند كواءقريب من القيادة، ويرتدي ملابسه العسكرية.

وأتاح لى الفراغ بعد الظهر الوقت الكافى للكتابة والنشر، فكنت أذهب إلى مجلة " آخر ساعة " حيث نشرت مجموعة قصصية، جمعتها فى كتاب بعد ذلك باسم " كراكيب ". كما قمت ببعض التحقيقات الصحفية.

وفى هذه الفترة، كان لى صديق من المنصورة يقيم فى حي السيدة زينب، وكثيراً ما قضيت الليل عنده، وأستقل عربة الجيش التى كانت تصل إلى ميدان باب الخلق فى الصباح، كمكان تجمع لنقل الجنود الحاصلين على تصاريح بالمبيت فى الخارج. وهذا الصديق موهوب فى الإيقاع بالنساء. وشقته لا تخلو منهن، هذه داخله، وهذه خارجة.

وكثيراً ما تمشينا معاً. وكان من مجرد نظرة إلى فتاة أو امرأة يقول لى هذه " شغلانة " أي مومس.

وكثيرا ما يكون مظهر الفتاة بريئاً، ولا أصدق أنها يمكن أن ترافقنا.يراهنني، ويسبقني عدة خطوات، يتحدث معها، وأفاجأ بها فى صحبته.

وغالباً لم يكن محترفات. فالفتيات تلميذات، أردن شراء بلوزة، أو توفير مصروف فى أيديهن. وبعض النسوة متزوجات، يزدن دخلهن. وكن بعد أن يحصلن على المال يحظين ونحظي بشئ من المتعة، خلافاً للمحترفات، لا تهمهن أية متعة لهن أو لنا، ويمارسن بآلية.

وفى الليل .. وآه من القاهرة بعد منتصف الليل .. وقد بخ الأسفلت النار الشاوية التى امتصها نهاراً، وتخلصت الشوارع من زحمة البشر والعربات وعادمها .. وصفا الجو .. وقد هبت النسمات .. من النيل فى الأسفل ومن المقطم فى الأعلى.

أخرج إلى هذا الليل بعد ارتيادي سينمات الدرجة الأولى .. مثل مترو وريفولى وأوديون التى كانت تهتم بعرض أفلام الكتلة الشرقية، خاصة من الاتحاد السوفيتي.

أو بعد ارتيادي للمسارح المختلفة، خاصة المسرح القومي بالعتبة، ودار الأوبرا، التى كانت دائماً تستضيف فرقاً أجنبية من أوربا وأمريكا واليابان والصين، حيث كانت تقدم استعراضات راقصة فى تشكيلات جمالية تأخذ بالألباب، يصاحبها عزف بالأضواء والألوان وأنغام هادئة. وكان ارتيادي مجانياً، فأحد بلدياتي يعمل فى إدارة المسرح، ويمونني دائماً بالدعوات، أو ينتظرني فى مسرح الجمهورية أو فى المسرح القومي، ليدخلني.

وأتاح لى العمل فى القيادة رؤية كثير من الرؤساء العرب، الذين يزورون اللواء عبد المنعم رياض وكنت أعجب من السهولة التى أراهم بها، وأتساءل .. أين احتياطات الأمن .. ؟!

مرة كنت فى العمارة التى بها مكتب رئيس الأركان. لاستلام البريد بعد العرض، وإذا بـ " انتباه " طويلة، فتسمرت فى مكاني على

بسطة فى منتصف السلم، وإذا بالملك حسين يمر من أمامي. استرعاني قصره، ورأسه المستطيل، ووجهه الأحمر، ولم أكن ألحظ هذا فى صوره فى الجرائد أو التليفزيون.

هل هذه السهولة نابعة من بساطة اللواء رياض .. ؟!

أول مرة أحضرت فيها بريد فرع الإشارة، دخلت به إلى سكرتيره العسكرى، وهو برتبة نقيب، فإذا به يشير أن أدخل إلى سيادة اللواء.

ترددت برهة غير مستوعب الأمر، فأكد لى بنظراته أن أذهب.

طرقت الباب. دخلت وعظمت. تقدمت من مكتبه، ووضعت الملف وانتظرت قليلاً .. ولما لم يقل شيئاً .. عظمت وانصرفت.

وكان عملنا فى فرع الإشارة تلقى البرقيات الواردة باللاسلكي أو عن طريق جهاز البرق الكاتب، أو مع مخصوص. من مصر والدول العربية، خاصة الأردن التى لها حدود طويلة مع اسرائيل. وكذا تركيب تليفونات فورية فى بيوت الضباط الوافدين إلى القيادة .. بالإضافة إلى الأمور المعتادة .. كمتابعة ما ينتج من أحدث أجهزة الإشارة، وعمل فرق للتدريب عليها. وكنت بطبيعة الحال، أعرض البريد أولاً على العقيد رئيس فرع الإشارة .. وغالباً ما كان فى ضيافته بعض الضباط العرب، يرفع بصره إلىَّ ويسأل: الحرب قامت .. ؟! وعندما أقول: لا. يشير بيده لأرجئ العرض.

أعود إلى مكتبى حتي تقترب الساعة من الثانية بعد الظهر، اسأل المناوب على جهاز البرق الكاتب عن وصول برقيات، وفى طريقى للخروج أذهب إلى مساعد الشئون الإدارية لأرى مَن مِن زملائى فى كشوف الخدمة.

وكان هذا المساعد متوتراً دائماً، ويزداد توتره كلما التقى أحداً من الضباط .. تهتز يداه فى عصبية، ولا يهدأ إلا بعد انصرافه، ومع أن هذا ملمح خاص بهذا المساعد، الذى كنت أشفق عليه من توتره، فقد كان الاضطراب، وإن بدرجة أقل، يعم أغلب المساعدين فى حضرة الضباط.

وهم فى الغالب جنود متطوعون، وُرقوا حتى وصلوا إلى هذه الرتبة، وبعضهم يصل إلى ملازم ورائد، ويمنح رتبة مقدم شرفية عند تركه الخدمة.

وكان ضابط عظيم اليوم، أي الضابط المناوب طوال الليل فى القيادة، ويشرف على كافة الخدمات فى أفرعها، غالباً من هؤلاء الضباط الذين كنا نطلق عليهم "ضباط مخلة ". أي أنه بدأ جنديا وحمل مهماته فى مخلاة كأي مجند. ومع أنهم يقومون بالعبء الأكبر، ومعهم ضباط الصف المتطوعون، إلا أن النظرة إليهم متدنية، سواء من الضباط خريجي الكلية الحربية أو من المجندين، نعدهم عاجزين عن الحصول على طعامهم، ولم يجدوا وسيلة للعيش إلا الميرى وقرفه، فأي أناس هؤلاء، ونحن نتمني أن تنقضى مدة التجنيد فى أسرع وقت. سنة للمؤهلات العليا، وسنة ونصف للمؤهلات المتوسطة، وثلاث سنوات للعادة، عادة ما يضاف إليها ستة أشهر، حتى يحين موعد خروج الدفعة.

وكانت معاملتهم لنا تتسم بالبساطة، فهم أقرب إلى أوساطنا الشعبية.

وفى أساس الإشارة عندما كان يتولى أحدهم ضابط عظيم، فبالرغم من الضبط والربط، ليظهر أنه ليس أقل كفاءة من غيره، كنا نحس بإنسانيتهم المستترة، وإذا أخطأ أحدنا ترفقوا به، فلا يتسرعون بأوامر الحبس، أو الإحالة إلى رتبة أعلى لتوقيع جزاء، ويكتفون بكلمة توبيخ، أو نصيحة.

ومن القلائل من خريجي الكلية الحربية، الذى كنا ننعم فى ظلهم بالحرية، يوم يكون " ضابط عظيم "، سمير زاهر، ابن دمياط ورئيس اتحاد كرة القدم الآن. كان أيامها يلعب فى النادي الأهلى. وفى العصاري يعمل تقسيمة من بعض الجنود الذين يهوون لعب الكرة. وعند التمام يرتدي بدلته العسكرية، ولا يستغرق طابور التمام وقتاً طويلاً، وسرعان ما نحيى العلم، وينصرف جنود الخدمة إلى مواقعهم.

وتوالت الأيام فى القيادة الموحدة ..

موظف فى الجيش صباحاً .. وآخر النهار أتردد على مجلة "آخر ساعة ". حيث كنت أتقاضى عن القصة ثلاثة جنيهات، ولم أشأ أن أحادث صلاح حافظ لزيادة المكافأة، وأنا أعلم حرصه ألا يتهم بمحاباة كاتب من طرفة.

وقد جمعت هذه القصص فيما بعد فى كتاب بعنوان "كراكيب". وأخرج من " آخر ساعة " لأتسكع فى وسط البلد .. وفى المساء ألتقى فتاة علقتها من الباص تعمل فى مؤسسة السينما بالتوفيقية، ونتمشى على كوبرى قصر النيل فى غدو ورواح، تدغدغ وجهينا نسمات من الليل .. وتسحرنا أضواء ملونة، منبعثة من فنادق شاطئ " جاردن سيتي " .. ومن شاطئ الجيزة ..ومن الإعلانات أعلى العمارات فى ميدان التحرير .. وتنساب الأضواء على صفحة الليل فى العمق، عازفة نغمات عذبة .. كما تتراشق على صفحة الماء عند اتساعها مابين " جاردن سيتي " والجيزة.

ولقد زرت بعد ذلك عدة عواصم عربية، ولم يطالعني فى أية منها هذا المنظر الساحر، الذى كان يرقق من عواطفنا، ويزيد من تعاطفنا.

العودة ..

أحلت للاحتياط فى ١٩٦٥/٨/١

وخطبت فى أبريل ١٩٦٦ فى يوم شم النسيم.

وتزوجت فى أبريل ١٩٦٧ فى اليوم التالى لشم النسيم.

وبعد شهر كنت فى الأسر الإسرائيلى.

بعد إحالتي للاحتياط، صدر قرار جمهوري بالعفو عن السجناء السياسيين وعدت إلى العمل كموظف جديد. واحتاج الأمر تقديم طلبات كثيرة لأسترد أقدميتي .. وعندما سويت حالتي، لم ألحق بزملائى المعينين معي .. فلم يكن ممكناً إعادة ترتيب أقدميتهم ومن جاء بعدهم

من أجل خاطرى .. وتطلب الحال معجزة .. وقد حدثت فى عهد السادات، عندما صدر قانون الرسوب الوظيفى، الذى حتم إعادة ترتيب الأقدميات من بدء التعيين. وفى مطلع الثمانينات من القرن الماضى رُقيت إلى الدرجة الأولى، وكنت فرحاً بها جداً، ثم مضت الأيام، واتضح لى أنها لا تساوي شيئاً. وظللت فيها محلك سر حتى أُحلت إلى المعاش.

بعد عودتي للعمل بعدة شهور، التقيت زوجتي .. وقلت لها: يابنت الحلال قضيت في السجن عدة سنوات قبل تجنيدي .. ومرتبى لا يتجاوز اثني عشر جنيهاً .. والحالة الآن هادئة .. لكني لا أضمن ما قد يحدث .. فمثلى معرض للاعتقال فى أية لحظة .. ووافقت بنت الحلال .. أما الذى لم أحذرها منه ولم يكن على بالى، فقد .. طُلبت لخدمة الاحتياط عدة مرات .. وفى المرة الأخيرة، بعد زواجي بشهر، ذهبت ولم أعد.

وأخذت زوجتي تلف على مقار الاتحاد الاشتراكي، تنظيم الحكومة السياسى والوحيد، أيامها، تبحث فى كشوف الشهداء والمفقودين فى حرب يونيو ٦٧، وبعد ذلك عاودت البحث فى كشوف الأسرى التى وردت من الصليب الأحمر بعد أربعة أشهر من الأسر.

ووصلني أول خطاب منها يفيد أنها حامل .. وأنها تقيم فى شقتنا وحدها، ورفضت الإقامة عند أمها أو أمي .. تعاني من ملاحقة ديون الزواج. كنا مازلنا نسدد أقساط العفش، ومرتبى الآن موقوف سواء من الوظيفة أو من الجيش، وانهالت عليها النصائح أن تتخلص من جنينها، فلا أحد يعرف هل أبوه حى أم ميت .. كان هذا قبل ورود اسمي فى كشوف الأسرى، وبعدها لا أحد يعرف إذا كان سيعود أم لا .. وهل هو سليم أم مشوه .. ولست أدري ما علاقة ذلك بالتخلص من الجنين، إلا إذا كانت دعوه ضمنية للانفصال، وقد طالت مدة الأسر ..

ولم تصغ زوجتي لهذه النصائح .. حتى فوجئت بى أدخل عليها ذات مساء، أسير على قدمي، فقط شظية فى كتفى مازالت تلازمني،

لعلها لم تنتبه لها وقتها .. وفوجئت ببطنها العالى .. وأنها علـــى وشـــك الوضع.

المطاردة

ظننت، وقد نجوت من الموت فى سيناء وفى إســـرائيل أن يحــل عني. لكن الموت كان يطاردني. كنت فى كتيبة مشاة، كلها مـــن جنـــود الاحتياط، استدعينا على عجل فى شهر مايو، وصـــدرت لنـــا الأوامـــر بالتحرك من موقع " الأبطال " على حافة العريش، إلـــى رفـــح، وفـــى منتصف الطريق قابلتنا الدبابات الإســـرائيلية، فتبعثرنـــا علـــى جـــانبى الطريق. وعلى الفور استلمتنا الطائرات الإسرائيلية. وقد تعود نجاتي فى سيناء إلى تنفيذى لما تلقيته من تعليمات أثناء تجنيدي.

فعندما يطلق العدو قنبلة، أنبطح أرضاً، لأن الشظايا تنتشـــر بميـــل إلى أعلى. وأن أحيط رأسى بذراعيَّ لحمايته. ولكن لأني كنت قريباً من القنبلة التى أسقطتها طائرة من طراز مستير، فقد أصابتني فـــى ظهيـــرة الخامس من يونيو شظية نفذت من تحت إبطي إلى كتفى الأيمن. ولو لم أحط رأسى بذراعي، فربما أصابتها مباشرة. وزحفت تحت جرار دبابات عاطل على الطريق. وفى المساء، لجأت مع بعض الزملاء إلى حجـــرة فى محطة القطار بجرادة، دون أن أتخلى عن خوذتي، طبقا للتعليمات.

وفى الصباح وصلت القوات الإسرائيلية إلى الموقع، ودخل جنـــدي إلى الحجرة التى احتمينا بها لتطهيرها. وكان تل رملى خلفها من ناحيـــة البحر، وقد حمانا من قذائف الدبابات التى انهالت علينا طوال الليل.

دفع الجندي الباب بقدمه، وأرسل دفعة من رشاشه قصير المدي من طراز عوزي. كنا حوالى ثلاثة عشر جندياً، أغلبنا جرحـــي، بعضـــهم بطونهم مفتوحة، وأعضاؤها الداخلية يلمونها بأيديهم، وآخرون مصابون بطلقات نارية فى أجسادهم. وقد فقدوا بنادقهم النصف آلية المسلحين بها

كجنود فى كتيبة مشاة،ورشاشاتهم قصيرة المدي من طراز"بورسعيد"، تسليح السائقين وجنود المطبخ،وجنود الإشارة وكنت أحدهم.

اندفع من بهم رمق يستنجدون بالداخل ألا يطلق النار، لكن الطلقات عاجلتهم، فسقطوا صرعي، ولم يتمكن جندي متربص بحذاء الحائط فى جنب الباب من إطلاق بندقيته. وخر جسد أحدهم فوقى، حيث كنت راقدا على ظهرى بسبب إصابتي، وقد نزفت كثيراً من الدم. وتلقى الجسد عني الرصاص المنهمر.

خرج هذا الجندي ودخل آخر. أطلق دفعة من الرصاص ليتأكد – فيما يبدو – من موت الجميع. أصابت طلقة انحناءة خوذتي، فعملت " سكترم " وذهبت بعيداً، ورصاصة أخرى مست ذراعي الأيسر، فأحدثت خدشا سطحياً.

أخذ الجندي يقلب فى الجثث، ويلتقط الساعات والخواتم، ويأخذ البطاقات الشخصية والعائلية، وقد علمت فيما بعد أن استخباراتهم تفيد منها فى الحصول على معلومات، وفى استخدام جواسيسهم لها.

فتشني الجندي، بينما أتظاهر بالموت، فأحس أني حي. ساعتها لم أملك نفسى فابتسمت، وفتحت عينى.

أشار لى بالنهوض. غرز فوهة مدفعه فى ظهري، ودفعني إلى خارج المحطة. وانفجرت قهقهات الجنود الواقفين خارج دباباتهم، غير مصدقين أن يخرج إنسان حى من وسط هذا الركام، بعد قصف مدفعي طوال الليل، وإطلاق نار فى الصباح.

وبدأت رحلتي إلى الأسر حتى يناير عام ١٩٦٨. وفور عودتي شرعت فى كتابة روايتي " الأسرى يقيمون المتاريس".

يقطع كتابتي زوار من الأهل والأصدقاء، مهنئين بسلامة العودة ، وكثير منهم يود أن يسمع ما جري لى فى الحرب.

وأثقلني أن أضطر للحكي، مرة تلو أخرى.

وفى هذه الأثناء، دخلت مرة لأستحم. ولم تكن سخانات الماء التى تعمل بالبوتاجاز أو الكهرباء، منتشرة كما هي الآن. وضعت موقداً يعمل

بالكيروسين فى الحمام، وفوقه صفيحة كبيرة مملوءة بالمـــاء، وأغلقــت الباب حتى يسخن الماء، ويدفأ الحمام ومن عادتي أن أترك الماء يســخن جداً، وأنجزه بالماء البارد قليلاً قليلاً حتى يصل الماء لدرجــة حــرارة يتحملها جسمي، وبينما أفعل ذلك، وجدتني أفقد وعيى. وأنا على وشــك الفقدان التام، إذا بى أفتح ترباس الباب.

ارتطمت بالبلاط، وسمعت زوجتي الارتطام. أسرعت وجرتني إلى السرير.

وإذا بخدر لذيذ يمسك بمؤخرة دماغي، ويجذبني تنميل مريح إلـــى نوم عميق. أقاوم السقوط فى بحر الخدر اللذيذ الــذى يشــدني، ويكــاد التنميل أن يغرقني فى عسله، ونزوع غريب للراحة يشــملني، وبــزوغ يطفو بى، وأتشبث، لاأريد النوم.

وبعد جهد جهيد، طفوت، وتسلل الخدر، وانقشع التنميل. ولحظتهــا صرت أبكي وأضحك فى آن، وفى هستيريا، وزوجتي تنظر فى عجب.

وبعد معاودة البكاء والضحك عدة مرات، أدركت أنني اســتردت وعيى. وعندها استسلمت للنوم، وقد أحسست بتعب وإرهاق شديدين.

لزمت الفراش مريضاً أسبوعاً، لا أستطيع الخروج.

ماذا حدث بالضبط .. ؟!

هل انطفأ الموقد دون أن أنتبه وتسرب الغاز وملأ الحمـــام، أم أن اشتعاله فى حمام مغلق استنفد الأوكسجين داخله.

وما زالت حتى الآن أتساءل .. كيف وأنــا أفقــد الــوعي فتحــت الترباس .. ؟!

ولماذا لم أستسلم للخدر اللذيذ .. ؟!

حادثت طبيباً صديقاً عما جرى، فقال لي:

– لو استسلمت للخدر، لذهبت فى غيبوبة أبدية .

استمرار المطاردة

بعد أن أنجزت عدة فصول من " الأسـرى يقيمـون المتـاريس "، ذهبت إلى القاهرة حيث اتفقت مع صلاح حافظ على نشرها فـي مجلـة "روزاليوسف" التى كان يرأس تحريرها، مسلسلة.

وعند عودتي فى عربة أجرة، على الطريق الزراعي، وقبل ميـت غمر .. لمحت صف العربات أمامنا يبطئ. خمنـت أن تكـون خنقـة مرورية عند تقاطع، أو إغلاق الطريق عند مزلقـان قطـار أو وقـوع حادث.

استمرت عربتنا على سرعتها، نظرت إلى السائق فى جواري ولم أتكلم. دائما أخشى أن أبدي ملاحظات للسائق حتى لاأربكه، ومن جهـة أخرى هو سائق محترف ويعرف ماذا يفعل.

العربات تبطئ، وتكاد تقف، وعربتنا بسرعتها العالية. نظرت إليـه دهشاً، ونحن على وشك الاصطدام بعربة أمامنا، صحت فيه، فـإذا بـه ينتبه ويميل بالعربة يساراً، فارتبكت العربات خلفنـا، وحـذت حـذونا، يصلنا سبابهم من نوافذها.

ولحظنا، كانت الجهة التى انحرفنا إليها خالية من عربات مقابلة.

* *

أكملت باقى فصول روايتي وأرسلتها للمجلة، وبعد عـدة أسـابيع اتصل بى صلاح حافظ. وأخبرني أن المجلـة أرسـلت الروايـة إلـى المخابرات الحربية لمراجعتها، لأنها تتكلم عن أشياء عسكرية، وطلـب مني أن أذهب إليهم فى مبناهم بمنشية البكري، وفهمت منه أن الأسـتاذ أحمد حمروش وكان يشاركه فى رئاسة التحرير، كلم صديقاً له هنـاك. وأن الأمر لن يتعدي حذف جملة أو كلمة. وذهبت، فإذا بهم يعترضـون على نشرها كلها.

عدت محبطاً إلى موقف أحمد حلمي، والتقيت صديقاً من المنصورة، وركبنا معاً إحدي العربات. استأذن راكبان فى المقعد الأمامي عدة دقائق لشراء سجائر وشطائر. استغيبهما السائق، فأخذ راكبين آخرين. وعند إقلاعنا حضر الراكبان الأولان. تشاجرا مع السائق وعطلا تحرك العربة. حاولنا تهدئتهما دون جدوي. ورفض الراكبان الجديدان أن يستقلا عربة أخري. والسائق محرج من الجميع ومن فعلته.

وتشاورت مع صديقى – إذا لم يكن فى عجلة من أمره، ان نستقل عربة أخري، فوافقني. وبعد مدينة كفر شكر بقليل، إذا بالعربات تتباطأ، ثم تتوقف.

نزلت برفقة صديقى نلين أرجلنا ..

كانت العربة الشيفروليه الحمراء، التى نزلنا منها فى الموقف مغروزة فى الترعة العريضة المحاذية للطريق، وركابها غرقى ..

المطارده تلاحق أسرتي

ذات يوم، وقد بلغ طفلى، ستة أشهر، ارتفعت درجة حرارته.

أشارت زوجتي بعرضه على طبيب. اعترضت، فليس كل من ترتفع درجة حرارته، لأي سبب، كالإصابة بالبرد، أو اضطراب فى المعدة، يذهب إلى طبيب.

وفجر اليوم التالى، نزلت فجراً إلى ميدان المحطة، حيث صيدلية " خدمة ليلية " واشتريت منها حبوب سلفا ديازين لعلها تساعد على تخفيض الحرارة. وعندما انتصف النهار ألحت زوجتى أن تذهب إلى طبيب، فاستمهلتها حتى نرى أثر العلاج، وفى اليوم الثالث، وأنا فى الشغل، تغيبت عن عملها، وذهبت إلى طبيب. فأخبرها أننا تأخرنا، وكتب لها تذكرة طبية حافلة بالأدوية لعل وعسى. ذهبت كالمحموم إلى

صيدلية، وابتعت الدواء، عدا علبة بها غذاء ضد القئ، حيث لم يكن شئ يبقى فى معدته سوى لحظات. وطفت على كثير من الصيدليات، وأشار علىَّ صيدلي ببديل عُدت به، مكث الطعام فى معدته قليلا، ثم عاد التقيؤ، ودرجة الحرارة لا تنخفض. استعضنا بتغذيته محلول جلوكوز. علقت زجاجة أعلى السرير تدلى منها خرطوم طويل ينتهي بـإبره ذات فتحة كبيرة مدببة غرزتها، فتقلصت ملامحه من ألم كاد يزهق روحي. لحظت أن جلد ذراعه لا يمتص، حاولت أسفل فخذيه دون جدوي، فأدركت أنه يموت. ومع ذلك أغرز الإبرة، وتتقلص ملامح وجهه الصغير ألماً، وعاجز عن النطق. وأحاول غير مبالٍ لكن القطرات ترتد فوق جلده.

ولم يكن فى المنصورة، فى هـذا الوقت مستشفى متخصص للأطفال، وحرت إلى أين أذهب .. وفى كل دقيقة، تذوى الحياة ..

إلى أن أعلنتني زوجتي بما لم أستطع تحمله، فرميت الأدوية فى عصبية على الأرض وانخرطت فى بكاء مرير.

وتمثل أمامي خطئى الفظيع. لأني لم أطاوعها فى الذهاب إلى طبيب من أول يوم. وفيما يلى من أيام، كم وبخت نفسى، وكم اتهمت نفسى أننى تسببت فى موته.

وسألت طبيباً عن كنه هذه الحرارة التى لم تنخفض، فأخبرني أنها ربما كانت ناتجة عن حمي مخية شوكية أصيب بها. وحز فى نفسى أن أكتشف أن المناوب فى الصيدلية أعطاني بدلاً من السلفا ديازين، سلفا جواندين التى تعالج الدوسنتاريا الباسيلية. كيف لم أنتبه وهذه الأقراص منقوش عليها اسمها بحروف إنجليزية. تضاعفت محنتي، ولست أدري لماذا استقر فى وعيي، أنني لن أنجب بعده. ليلتها استلقيت على فراشى كمداً، وملامح وجهه المنبئة بألمه ومعاناته لا تفارقنى.

وأنا أكاد أختنق اقتربت مني زوجتي.نظرت إليها دهشاً. فقالت أن جارتنا فى الدور الذى يعلونا أشارت عليها بذلك.

ملأني الغيظ .. كيف وهي المتعلمة، وتعمل، تأخذ بنصيحة امـرأة غير متعملة، وقاعدة فى البيت ؟! وكيف وحزنها لا يقل عن حزني ..؟!

ومع توالى الأيام، والغيظ مازال يتملكني من هذه النصيحة الغريبة، أخذت أتساءل .. هل للثقافة الشعبية دخل فى ذلك. تلك التـى تحـض الزوجة على الإنجاب لربط الزوج بها. وفى حالتنا، وقـد مـات ابننـا الوحيد، سقط ما يربطنا، وقد أعيد النظر فى أمر هـذا الـزواج، ولـذا يتوجب الإسراع لتعويض مافقدناه.

لكن .. فى الليلة نفسها .. هذا ما لم أستطع أن أفهمه.

أم أن الممارسة هنا، تعني شيئاً آخر، هو الـتخلص سـريعا مـن الحزن، حتى لا نصبح أسرى له.

أحياناً، أعزى نفسى، وألوك فى خاطري،أن الولد ولد ميتاً.

وقد أثبت العلم أن الجنين يتأثر فى بطن أمه بكل ما يحـدث لهـا، فهل تأثرجهاز المناعة عنده، عندما تلقت أمه صدمه زوجها " المفقود " فى الحرب،وانعكست عليه معاناتها وهي تبحث هنا وهناك، كلمـا ورد كشف من الصليب الأحمر، حتى عثرت على اسمى " أسـيراً ". وكـذا دوختها فى تدبر أمور معيشتها، وحيدة لا تدري، هل سيعود زوجهـا أم لا.

ملكني البراح

كنت فى طريقى إلى مجلة " روزاليوسف " لأعطيهم قصة، وفـى ميدان التحرير التقيت فؤاد حداد قادماً منها. سألته عـن أحوالـه. قـال والأسى يطل من عينيه، أنه يشرف على باب البريد فى مجلة " صـباح الخير ".

اندهشت. فؤاد حداد شاعر العامية المصرية الكبير، ومترجم عيون إلساعن الفرنسية لأراجون، لم يجد له حسـن فـؤاد، زميـل المعتقـل،

والمسئول الكبير فى دار " روزاليوسف " من عمل سوى الإشراف على البريد ..!!

سألته عن قدرى شعراوي أخبرني بمرارة، أنه يحرر حكاية" صباح الخير "، وهي كتيب ابتكره حسن فؤاد، ينشر فيه حكايات من التـــراث، ويوزع مع المجلة مجاناً.

وكنت ومازلت أري أن القيام بعمل عضلى أكثــر منـــه فكريـــاً، كتحرير بعض المواد أو إعادة كتابة تحقيق صحفى (رى ريتـــر) يقتـــل الموهبة، أو على الأقل يستنفد الطاقة ولا يُبقى منها شيئا للإبداع.

توقف الكتيب ولم أعد أسمع عن قدري، وكانت الحكايـــات التـــى حررها غفلاً من توقيعه.

وكان فؤاد حداد، قد أفرج عنه بعد اعتقاله عدة سنوات، واضـــطر للقيام بهذا العمل، ليجد نفقة للصرف على عائلته.

غادرته يومها، وأنا لا أصدق أن يعامل شاعر فى مثل قامته، بهذه المهانة. وتمثلته شامخاً فى وقفته فى إحدي زنزانات معتقـــل الواحـــات الخارجة، يلقى ملحمته الشهيرة.

كان يشترط على الحضور قبل الإلقاء، أن يغادر مـــن لايســـتطيع المكوث أربع أو خمسٍ ساعات دون حركة، حتى لا يشتت انتباهه.

كنا نجلس أرضاً، ويقف هو ناظراً إلى نقطة فى الأفق عبر النافذة، ويستدعي من داخله أبياتاً من الشعر، تربو على ألف بيت. تروي عـــن مصر والمناضلين، وعما جري لبعض زعماء الشيوعيين، مـــن تنكيـــل وتعذيب وقتل، فى سجون عبد الناصر، من معتقل العزب فى الفيوم إلى سجن أبى زعبل. وفيض عـــن تـــاريخ هـــؤلاء القـــادة، ويخبـــر عـــن شخصياتهم.

كان يأخذ بمجامعنا، ولا نستطيع أن نحيد بنظراتنا عنه، وبعضـــنا تنفلت دموعه تأثراً.

استمعت لهذه الملحمة عدة مرات، دون ملل، وعشش فـــى رأســـى مقطع لا أنساه أبداً، ودائماً أردده فى خاطرى:

ملكني .. ملكني البراح

حقا السجن مفتوح طوال النهار، والصحراء تترامي حولنا .. والسماء فوقها لها عمق أخاذ .. لكننا لا نملك الحرية فى هذا البراح.

وفى الخارج من يملكني البراح، والمحظورات والتقاليد البالية سدود تحد من رحابة الفكر، ومن اتساع الأفق الإنساني، ومن الانطلاق فى غواية الخيال، ومن جموح الطموح.

وبعد كل هذا التطور، والتقدم، الذى بلغته البشرية، مازال إنساننا مكبلاً فمتي يملك البراح ..

وفى الواحات، كثيراً ما عرضت ما كتبته من قصص على فؤاد حداد، فكان – بعد أن يقرأها – يقول وشقاوة تطل من عينيه:ليس لى فى القصص. ألح عليه، فيبدي استحسانه حيناً، ويجود بملاحظاته حيناً آخر. وكان يجتح إذا ما وجد كلمة عامية بين قوسين: لا .. العامية محترمة .. لا تعاملها هكذا .. وكأن وضع الكلمة بين قوسين فى سياق سرد الفصحي يقلل من شأنها.

وكانت مباريات فؤاد حداد وزملائه من الشعراء ضحي بعض أيام الواحات تنثر ابتساماتنا وتؤلف قلوبنا، ونحن نتابع فؤاد يدلى ببيت، ويعقبه شاعر ثان وثالث، وهكذا ارتجالاً، على الوزن نفسه. وفى مرة أخرى ينظمون أبياتاً عن الزملاء الحاضرين، من وحي الساعة، لا تخلو من سخرية ضاحكة. أو يحددون موضوعاً، يلقون عنه أشعارهم.

وكان فؤاد لا تخونه سليقته أبداً، كأن مسامه تنضو شعراً. وكان متمكناً من العامية ومن تراث الفصحي، ومن اللغة الفرنسية.

وحين نلحظ بيتاً مكسوراً له، تشع نظرته المفعمة بالشقاوة.

ويردف: لا يأتي إلا هكذا .. ويكون على حق لضرورة فنية.

وفى الخارج، باعدت بيننا الأيام. وكنت ألتقيه صدفةً فى مصيف جمصة، حيث كان يقضى عدة أيام كل عام، فى صحبة عائلة محمد عباس فهمي، زعيم " التيار الثورى ".

وذاعت شهرة فؤاد، بعد أن تصوُف وكتب قصائد " المسحراتي " وأذيعت فى الإذاعة. ومع أن ظروفه المادية تحسنت، وانتشرت أشعاره المكتوبة والمذاعة، إلا أنني كلما قابلته، كنت ألمح حزناً دفيناً يطل من عينيه، وقد اختفت النظرة المفعمة بالشقاوة، فأتساءل فى نفسى: متى يملك البراح ..؟!

الخضوع

قبل ذهابى للحرب فى عام ١٩٦٧، كنت أعمل فى الوحدة المجمعة بقرية كفر الحاج شربيني، على مرمي حجر من البحر المتوسط. ولا توجد مواصلة مباشرة من المنصورة إليها. أركب إلى مدينة شربين، ثم انتظر وقتاً مضجراً، قد يمتد إلى ساعة أو ساعتين، حتى يصل باص دائرى بين القرية وشربين.

ولم يسند لى رئيس المجلس المحلي أي عمل. وَكَل إليَّ تخليص أوراقهم فى إدارات المحافظة وقضاء ما يلزمهم فى المنصورة. وسمح لى بالذهاب إلى الوحدة يوماً فى الأسبوع.

ولقد أحببت هذه القرية، فجوها مفتوح. بيوتها ليست متكأكئة على بعضها بعضاً. ويشقها شارع عريض، فى مقدمته أشجار كافور باسقة، وجوها منعش، تمتزج فيه نسمات البحر مع نسمات مزروعاتها.

وكان حرياً أن أظل بها. لكني أردت العودة إلى مجلس مدينة المنصورة تحسباً للمستقبل، فإذا كان الرئيس الحالى قد أراحنى، فمن يضمن لى أن يحذو حذوه من يخلفه، خاصة وهو يسعي للعودة إلى مدينته الإسكندرية.

قدمت طلباً لسكرتير عام المحافظة، وكان ضابطاً فى الجيش، ومن قرية سندوب التى أصبحت حياً فى المنصورة. وصرحت له وأنا أبدى رغبتي فى النقل، أنني عائد من الأسر الإسرائيلي، فإذا به يحدجني بنظرة جامده ويقول:

- وماذا يعني .. ؟!

نظرت إليه فى غيظ، لا أعرف كيف أرد عليه.

قرصني مدير العاملين وكان يرافقني، فى ذراعي، وأومأ لى بعينيه ألا أهتم.

ولم تمض أيام حتى صدر قرار نقلي.

وزال عجبى حين علمت أن موظفاً آخر كان السكرتير العام يريد التخلص منه، فوجدها مدير العاملين فرصة لإرساله مكاني.

وكان هذا السكرتير حاكماً بأمره، يرشح لعضوية مجلس الشعب أناساً لا علاقة لهم بالسياسة أو بغيرها .. وبعضهم موظفون تحت إمرته يدفع بهم.

وذات يوم أبلغ حاشيته، أنه رأي رؤيا، وبشرهم أن غمة الاحتلال الإسرائيلى لسيناء ستزول قريباً.

هكذا .. دون إحم ولادستور، ولا استعداد، ولا قتال ..!

وبعد عدة أسابيع، كان سيادته مركوناً فى ديوان عام وزارة الحكم المحلى بالقاهرة، دون عمل .. كعادتهم مع غير المرضى عنهم، ومع من تجاوزوا حدودهم.

وفى مجلس مدينة المنصورة لم تقبلني أية إدارة. كانت سمعتى كشيوعي تسبقني، ويخشى أي مدير إدارة أن يقبلني عنده.

ولم أكن ألومهم، فمنذ عام ١٩٥٨، عندما استولى عبد الكريم قاسم ذو التوجه الشيوعي على السلطة فى العراق، وعبد الناصر يشن حملة محمومة ضد الشيوعيين المصريين، بلغت أوجها فى عام ١٩٥٩، عام القبض على جميع الشيوعيين فى مصر. وكان عبد الناصر يخطب فى أوقات متقاربة، واصفاً الشيوعيين بالملحدين والعملاء والكفرة.

وتكرار هذا فى وسائل الإعلام المختلفة، أشاع جواً من الخوف، زاد منه سماع الناس عن المعتقلين من كل ألوان الطيف .. من تقدميين

وليبراليين ومدافعين عن الديمقراطية وإخوان مسلمين، بل ومن المخالفين فى الرأي من أعضاء الاتحاد الاشتراكي، تنظيم السلطة.

* *

وقبل بى مدير إدارة الإيرادات ..

أعطاني كومة هائلة من الأوراق. كانت مهملة فى أحد الدواليب، تخلفت عن لجنة فحصت الضرائب والرسوم المستحقة على المحال التجارية والحرفية فى المدينة، وحصرت المتأخرات. كانت مستحقات ميتة، أهمل تحصيلها سنوات.

وشرعت فى العمل.

بداية .. لابد من تفريغها فى سجلات، حتى يصبح الأمر رسمياً، وليس فى أوراق يمكن دشت بعضها، إهمالاً، أو استجابة لرشوة، أو مجاملة لأحد التجار من موظف ذى نفوذ.

صرفت السجلات المطلوبة من مخزن التوريدات، وطلبت تعيين محصلين لدىَّ، وأعطيت كلاً منهم كشفاً ببعض الأسماء، لتسليم إخطار بالمطلوب لأصحابها.

وبدأت المناورات من التجار ..

تكرم بزيارتنا .. فقط فنجان من القهوة لنتعارف .. ومعرفة الناس كنوز.

ولم يسفر ذلك، إلا عن موافقتي على تقسيط المستحق، فقد عددت هذا حقهم بعد الانقطاع عن مطالبتهم مدة كبيرة.

وبدأ الانتظام فى التسديد ..

وبينما تنمو علاقات الزمالة الجيدة بيني وبين العاملين فى مجلس المدينة، حدث ما ضايقني وضايقهم، وجعلهم متحفظين فى التعامل معي ثانية.

تشريف أحد المخبرين لى كل فترة. يجلس دون دعوة، وعندما يمر عامل البوفيه يطلب شاياً. أرمقه فى غيظ مكتوم، وألاحظ نفور زملائى من وجوده.

وذات مرة طلب مني أن أدفع قيمة استهلاك الكهرباء للبك الضابط. ضايقني الطلب جداً، لكننى سيطرت على أعصابى، وطلبت من أحد السعاة أن يأخذ منه النقود ويقوم بذلك.

وبعدها التقيت هذا الضابط صدفةً (غالباً مدبرة من جهته) ووجدته غاضباً مني جداً.

– لماذا يا سيدي .. ؟!

– أطلب منك خدمة فتكلف بها آخر.

لم أفهم سبباً لهذه الغضبة الهصور. ولماذا أدفع بنفسى. أفهم أنه يريد سداد ما عليه، سواء قام به فلان أو علان. وقفز إلى ذهني ما حدث فى أمن الدولة عند وصولى من الواحات.

فبالرغم من تأكدهم أن عناوين أقربائى التى دونتها غير صحيحة، فلم يعلقوا، وتنبهت أنهم يريدون الامتثال لأمرهم.

فالتسديد ليس ما يسعي إليه ضابط أمن الدولة،ولكن ما يسعي إليه أن أخدمه بنفسى. والاعتياد قد يجرفك – دون أن تتنبه – لأية خدمة غير بريئة، فترد تلقائياً إذا استفسر عن معلومة .. وقد تنساق فى حديث للوشاية بزميل.

وتأكدت ظنوني فيما بعد، فعندما كان مفرجاً عني من سجن الاستئناف حيث سجنت أربعة شهور إبان تظاهرات الطلبة ضد الرئيس السادات فى ديسمبر ١٩٧٢، وذهبت مع بعض الطلبة إلى مبني لاظوغلى، كنت أعرف ما ينبغي عمله بشأن كتابة أسماء وعناوين أقاربى ومعارفى، لكن زميلا معنا، دماغه وألف سيف، ألا يكتب شيئاً. تعطل الإفراج عدة ساعات، وحطت ملاءة المساء، وقد نبيت فى حجزهم المقرف. قلت لهذا الطالب:

- افعل مثلى واكتب أى شئ.

ظل الطالب على عناده، حتى حضر الضابط المكلف بأخذ البيانات. أشار ناحيتي وقال:

- ألم يقل لك أكتب أي شئ.

عندها تأكد لى أنه تعمد تركنا وحدنا لنتحدث، حيث أجهزة تنصت، وأنه ليس المهم ماذا تكتب لكن المهم أن تخضع لما يطلبه.

ونويت بعدها، أنه لو ألقى علىَّ أحدهم السلام، فلا ينبغي أن أخضع وأرد: وعليكم السلام.

* *

انتهزت غضبة الضابط الهصور، وغضبت أيضاً، طالباً منع زيارة المخبر.

وبعدها .. لم أر خلقته ثانية.

فى شرطة المرافق

كانت بلدية المنصورة فى السابق تقوم بالأعمال الخاصة بهذا الشأن فى طلخا أيضاً. وعندما أنشئت مجالس المدن بعد يوليو ١٩٥٢ ظل الوضع كما هو عليه. ولكن عندما أنشئ مجلس مدينة طلخا فى بداية السبعينات، طالبوا بالفصل عن المنصورة.

انتدب سبعة موظفين، كنت أحدهم للعمل بالمجلس الجديد، أوكلوا إلىَّ الإدارة المالية، المسئولة عن المشتريات والتوريدات، وكنا بصدد تجهيز مكاتب للموظفين من الألف إلى الياء. وباشرنا فتح سجلات لمشتركي المياه والإنارة، وأنشأنا قسماً للتحصيل، وكونا لجنة مشتركة من المجلسين لتحديد ما يخصنا من مخازن المنصورة. عربات نظافة وأخرى لكسح مياه الصرف، وأدوات من ورشة إصلاح السيارات، وأدوات كتابية.

وانتظم العمل ..

وفجأة أُلغي انتدابى، وتقرر عودتي إلى مجلسي الأصلى المنصورة.

وكالعادة لم يرحب بى أي مدير إدارة.

ولم يجدوا سوى شرطة المرافق، فألحقوني بها. وهي شبه مستقلة عن المجلس ويرأسها ضابط برتبة مقدم وأحياناً عقيد،ومعه ما يقرب من خمسة عشر عسكرياً. وأسندوا إليَّ "النقل البطئ ".

عندما أنشئت مجالس المدن تقرر إسناد كل ما يخص المحليات إليها، لكن ذلك استغرق سنوات وحين صدر قانون المررو رقم ٦٦ لسنة ٧٣، وفيه باب خاص بالنقل البطئ، أي المركبات التى لا تسير بالوقود مثل عربات الكارو والحنطور والدراجات والترسكلات، كانت أقسام الشرطة هي التى تتولى إصدار تراخيصها، ولكن عندما بدأ تطبيق القانون فى عام ١٩٧٦، تقرر أن تتولى مجالس المدن ذلك. وفى المنصورة وجدوا أن أصلح مكان للقيام بهذا العمل هو شرطة المرافق. وحين ألحقت بها، كان يتولى هذا العمل " بلوك أمين " يأخذ طلبات الترخيص، ويقذف بالدمغة فى درجه، ويبيعها للمترددين على إدارات المجلس.

طلبت عدة موظفين،وصرفت سجلات من المخزن، لقيد هذه الطلبات، وتسجيل الرسوم والضرائب المحصلة. ولصق الطالب طابع الدمغة على ورقته،وشطبت عليها بالقلم،ونظرات البلوك أمين تسوطني.

واسترحت من هذه النظرات، حين أصدرت وزارة المالية نماذج التراخيص المختلفة مدموغة، فكنت أرسل مندوباً لشرائها من القاهرة.

ووافق رئيس مجلس المدينة على إصدار قرار بإنشاء وحدة للنقل البطئ برئاستى. وبذلك توسعت فى العمل. وأرسلت حملات مشتركة من الشرطة والموظفين للتفتيش على العربات المخالفة فى الشوارع. وانتظم أصحاب المركبات ومحال الدراجات فى عمل تراخيص. وزادت الإيرادات، وأرسلت المحافظة عدة رسائل شكر وتقدير.

وحدث خلاف مع رئاسة المجلس. طلبت توقيع أفراد وحدتي في دفتر حضور وانصراف خاص بنا، بدلاً من التوقيع فى مبني المجلس القريب منا. استجابوا فترة، ثم تراجعوا.

ولم تعجبني طريقة تعامل الشرطة مع الحوذيين. كان بعض أفرادها يغافلون الموظفين في الحملات، أو يتفقون مع بعضهم، ويتعاطون الرشوة، نظير إطلاق العربة غير المرخصة، مع أن الترخيص أرخص، لكن يبدو أن الحوذى لا يريد أن يضيع وقته في الحضور إلى المكتب، خشية ضياع يوميته إذا كان أجيراً، أو خوفاً على بضاعته.

وفى هذا الخضم وجدتني منقولاً، وليس منتدباً، إلى مجلس مدينة طلخا .. !!

والمجلس الذى افتتحناه بسبعة موظفين وخمسة عمال، وأضافوا إلينا بعد قليل خمسة ومثلهم من العمال، وكان العمل يسير على ما يرام، أصبح يضم أكثر من ثلاثمئة موظف وعامل، والبلاغات لاتنقطع .. عن انفجار ماسورة مياه .. أو انقطاع التيار الكهربى .. وعن تكدس القمامة فى السوق وبعض الشوارع الجانبية .. وعن طفح المجارى .. وتم الاعتداء على شط النيل .. فبعد أن كان هناك نادٍ للتجديف فقط، أقيمت نوادٍ للقضاه والمعلمين والجيش والمسنين .. والتجّاريين والمحامين.

ومبني المجلس نفسه، الذى يعد جريمة، لأنه بني على جزء من الحديقة. الوحيدة فى طلخا، شرعوا فى بناء جناح آخر وقضوا على الحديقة. تماماً .. كما حدث فى المنصورة لحدائقها. حديقة شجرة الدر،مرتع الصبا وملتقى العائلات فى العطلات والأعياد، والتى بها كشك تعزف فيه فرقة موسيقى المطافئ يومي الجمعة والأحد، أقاموا مكانها مستشفى لكلية الطب. النادي الرياضى الملكي الذى يجاورها أصبح كلية لطب الأسنان، ووداعاً لأشجاره ومسطحاته الخضراء.

وحديقة توريل حولوها لحديقة حيوان ضمت حيوانــات هزيلــة .. وحديقة فريال أقاموا مكانها قصر الثقافة. تلك التى كنا نمرح فيها طوال شهر رمضان. حيث كان ينصب سرادق تصدح فيه تلاوة القرآن الكريم .. وتوزع القرفة والحلبة والشاى على الرواد مجاناً .. ونهــيص نحــن الصبية .. جرياً ولعباً خلف السرادق ..

وفى الأيام العادية كانت مخصصة للنساء حتى الخامســة مســاءً، وكم انتظرنا حذاء سورها الشجرى .. نتطلع إلى الفتيات .. فى انتظــار أن يحين الموعد المختلط حتى الثامنة مساءً صيفاً موعد إغلاقها ..

وكان شاطئ النيل من شرق المنصورة إلى غربها حافلاً بمشــاتل الورد البلدي والفل والياسمين وشتلات الجازورينا والأكاسيا لمن يريــد، والرصيف الموازي يستظل السائر عليــه بأغصــان أشــجار الكــافور والجازورينا وأم الشعور .. كما حفل الشاطئ بحدائق خاصــة .. أذكــر منها حديقة عم رزق فى أقصى الغرب .. حافلــة بأصــص الأزهــار، يشتريها من يريد .. أو يطلب" صحبة ورد " يزين بها بيته، وكذا علــى حافة توريل حديقة عم العزب ..

كان هذا أيام البلدية .. وكان يُنتخب أعضاؤها، ونجاح رئيسها فــى الانتخابات يعد مؤشراً على شعبيته .. فيتقدم من يريد للترشح للمجلــس النيابى.

وكانت بلدية المنصورة من أغني البلديات فــى مصــر .. تغســل بعض شوارعها بالماء والصابون .. وتقترض منها بلدية الإسكندرية.

وبتولي العسكر رئاسة المدن .. اختفت الحــدائق كمــا رأينــا .. والأشجار قطعوها وباعوها لحسابهم .. واختفت المشاتل .. وبــدلا مــن الأشجار تسور شاطئ النيل، والتمشية فى جواره فســحة النــاس فــى العصاري، حلت محلها أسوار مــن الأســمنت والحديــد .. واختصــر الرصيف واقتطع شريط بحذاء النهر سفلتوه لتمر عليه العربات.

وتم ردم البحر الصغير الذى أحاط المنصورة من شرقها فى جانب حي كفر البدماص .. والذى كان الهويس عليه يوصل بحي توريل ويضفى عليها جواً من الهدوء .. وكذا ردمت ترعة فى شارع الجلاء .. وتحولت الأراضى الزراعية المتاخمة لها إلى أراضى بناء. وإذا كان عصر اسماعيل قد تميز بمد آلاف الكليومترات من الترع فقد تميز عصر عبد الناصر وخلفائه بردم مئات الكليومترات من الترع وضياع أكثر من مليوني فدان من أخصب الأراضى الزراعية فى العالم. حقا تم استصلاح أراضٍ جديدة، لكن الحدية الإنتاجية لها لن تصل إلى ١٠ % من نتاج مثيلتها القديمة، كما أن المطلوب الإضافة لمواجهة الزيادة السكانية المطردة وليس بدل فاقد.

مع العلم أن التوسع السكنى كان من الممكن أن يتم فى البراري على بعد ١٣ كيلو متراً، سواء من ناحية طلخا بعد مدينة بلقاس، أو من ناحية الشرق باتجاه الزقازيق، وإيجاد وسيلة مواصلات لا تستغرق عشرين دقيقة إلى المنصورة .. وكان الضغط قد خف على مرافقها من ماء وإنارة ومجارٍ والتى أنشئت لخدمة سبعين ألف مواطن تعدادها وقتها .. فكيف تخدم أكثر من سبعمئة ألف مواطن الآن .. غير ما يؤمونها يوميًا من الريف والمدن الصغيرة لقضاء مصالحهم ؟!

* *

وخيروني ..

يبدو أن الخوف من الشيوعية قد تقادم، وبطل مفعوله.

اخترت إدارة أنشأوها حديثاً باسم " خدمة المواطنين " نتلقى شكوي المواطن، ونرسلها للجهة المشكو فى حقها، ونبلغ الشاكي بالرد. ولم يحدث مرة أن جاء رد بالقضاء على سبب الشكوى .. وكل ما علينا أن نكتب رقم الوارد، ورقم الصادر، ونعرض البريد على رئيس المجلس، الذى يؤشر بإرساله للجهة المعنية، ثم بالحفظ. وظللت فى هذه الإدارة، دون أن تخدم أو أخدم أحداً، حتى أحلت إلى المعاش.

فى المصيف

ولم يسلم عملى فى طلخا من المنغصات.

ضباط أمن الدولة لا يكفون عن سؤال الموظفين، من وراء ظهرى. من يزوره .. ومتي تغيب. ويرسلون المخبرين للسؤال والتقصى.

وأذكر مرة جاء أحد الضباط إلى رئيس المدينة وقال له:

– فلان شيوعي.

– وما شأني .. ؟!

– نود إبلاغنا بكل شئ عنه .. إجازاته وتحركاته ..

– آسف .. هو موظف عندي ولا أطلب منه سوي العمل، وما دام يؤديه جيداً فلا شأن لى به.

– ولكنه شيوعي ..!!

– إذا فعل شيئاً اقبضوا عليه.

وانصرف الضابط غاضباً.

أبلغني بهذا مدير مكتب رئيس المجلس. ولكن ليس كل الرؤساء والمديرين مثله. بعضهم يستجيب خوفاً، أو طمعاً فى خدمة.

وبعضهم كان يقرفني إذا طلبت شهراً إجازتي السنوية الاعتيادية، ويصرون علي تجزئتها .. هل بتعليمات من إخواننا البعده .. لاأدري .. وحجتهم دائماً ظروف العمل لا تسمح .. أي عمل أيها السادة وأنا وموظفو إدارتي نقوم من على هذا الكرسى لنجلس على هذا الكرسى ولا ندرى كيف نقطع الوقت .. وأكثر الزملاء يزوغون لرعاية أعمالهم .. هذا بقال .. وآخر عنده عربة أجرة .. أزوغ مثلهم .. نعم .. لكن العين علىّ .. تكتب فى حقى المذكرات وأحال إلى التحقيق .. وأعاقب بإنذار أو خصم يومين من راتبى.

مرة حصلت على عشرة أيام بالعافية .. وذهبت مع أسرتي إلى مصيف جمصة. حجزت شقة فى فيلا، وكانت وقتها فى المتناول .. قيمة

الإيجار لا تتعدي سبعين أو ثمانين جنيهاً فى الأسبوع. وكان قد فاتني الحجز عن طريق نقابة العاملين فى الحكم المحلى حيث لم أجد مكاناً خالياً إلا فى شهر رمضان.

وهم المشرف بالحجز كأن الأمر مفروغ منه. أحسست بالضيق لإدراكي ما يجول فى خاطرة عن الشيوعيين، دون أن يفطن إلى أنني مثل غيرى من مواطني مصر، مولع بليالى رمضان وسهراته وبالسمر والضحك، والكنافة والقطايف، والجلوس على المقاهي وتدخين الشيشة مع الأصدقاء.

وبينما أتمشى على الشاطئ، لمحت ضابط أمن دولة اسمه شوكت، يجلس مع أسرته تحت شمسية. وكان لحيماً، أبيض. وجهه أحمر. وعندما رآني انخطف لونه لا أدري لماذا.

وفى المساء زارني مالك الشقة وقال:

– شوكت بك سألني لماذا تسكن شيوعياً عندك.

استمعت إليه بدهشة، لا تقل عن دهشته وهو يخبرني بهذا السؤال.

– وبماذا أجبت ..؟

هز كتفيه وانصرف.

ولم أستطع أن أفهم سبب تصرف هذا الضابط.

هل ظن أنني سأدعو للشيوعية بين مصطافين لا أعرفهم. أم أنني سأعقد اجتماعات فى شقتي بعيداً عن عيونهم. أم أنه استكثرعلى مثلى الحضور إلى مصيف ورؤية جنابه بلباس البحر برفقة أسرته. هل عد ذلك جرأة مني .. أم أن الأمرلا يعدو مضايقتي والسلام.

وبعد عدة سنوات، كنت ذاهباً للقاء صديق فى مدخل الاستقبال بفندق كليوباتره بالمنصورة وعلى الدرجات المؤدية للشارع لقيت الضابط شوكت وقد أصبح مفتشاً يرأس مكتب المباحث. حياني وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة واسعة، عجبت لها.

خطوت إلى المدخل. فلحظت خلوه من المترددين، الذين عادة ما يعج بهم، يحتسون المشروبات المختلفة ويثرثرون.

استفسرت من موظف الاستقبال، فأشار إلى ثلة من الناس تجلس فى ركن وقال:

– سياح إسرائيليون.

– أعوذ بالله.

وانصرفت حانقاً على صاحب الفندق لاستضافته لهم بالرغم من مقاطعة الجميع للإسرائيليين بعد معاهدة " كامب ديفيد " المشئومة.

وخففت من حنقى .. لعلهم – أمن الدولة – ضغطوا عليه.

دون شموع

كنا نحتفل بعيد ميلاد ابني الأكبر رفعت، وكان فى المدرسة الابتدائية وقتها، نضع الجاتوه والبيتي فور والفاكهة فى الأطباق. وتصب زوجتي الشاى. ومررت عود ثقاب أسفل سبع شمعات ملونة وغرستها فى طبق وأشعلتها، وأطفأت النور فشاع جو رومانسى دافئ. وفجأة سألني ابني الثاني إيهاب:

– هل ستعمل لى مثله .. ؟!

أدهشنى السؤال، وأخذتني لمعة تألقت فى عينيه، عندما أكدت له ذلك وكان عيد ميلاده بعد أسبوعين.

وفى عيد ميلاده، وقد رآنا نحتفل به مثل أخيه، أحسست أن ثقةً بنفسه قد تعززت، وقد زال شكه أننا قد نهمله، وانتابني شعور لا أستطيع وصفه.

وبعد عدة سنوات، كنت فى زيارة لأصغر شقيقاتي روكسان فى الإسكندرية، بعد أن تزوجت وأنجبت، وقد تصادف أن كانت تحتفل بعيد ميلادها، فإذا بها تقول لى:

- على فكرة .. أنت أول من عمل لى عيد ميلاد.

تساءلت وقد نسيت:

- صحيح .. ؟!

هزت رأسها بالإيجاب، وقد شملتني بنظرة وشت بالامتنان والاعتزاز.

وعادة الاحتفال بعيد الميلاد، التى واظبت عليها لأختي عندما كنا نسكن معاً قبل زواجي، ولولدىَّ، وكنت أحدث أصحابى بضرورة الاحتفال بأولادهم وذويهم، اكتسبتها فى سجن الواحات الخارجة.

فأنا قادم من أسرة، لا يكاد المرء يذكر فيها يوم مولده. وعندما رأيت أعياد الميلاد فى السينما ‘ عددتها ترفاً لا يقدر عليه أمثالنا، فمن أين لنا إحضار هدايا، وشراء كعكة كبيرة وحلويات وفاكهة ودعوة الأهل والأصدقاء.

فى السجن أقام الزملاء أعياد الميلاد بأبسط الأشياء. بسكويت من المقصف، ونصنع الشاى. وهدايا مما تخلف عن الزيارات .. علبة مربى .. باكو شيكولاته .. ونتحلق حول المحتفى به، دون شموع. ويلقى أحدنا كلمة تعريف به .. وآخرون يشيدون بمناقب قد يكون غافلاً عنها، أو ينبهه لمثالب ليست فى حسبانه .. ثم ننشد بعض الأغاني .. نستهلها (بعيد ميلاد سعيد وهنوا أبو الفصاد) .. وتنطلق النكات والقفشات.

ويشكر المحتفى به الجميع، وقد تأثرت نفسه لاهتمام آخرين به، ونفوسنا أيضاً لأننا استطعنا تقديم شئ له. وتشملنا جميعا حميمية تجاه بعضنا بعضاً. وكنت أعد يوم عيد ميلادي محطة، أستعرض فيها ما فات وأفكر فيما هو آت.

ولم تخل هذه الاحتفالات من قناصي الهدايا.

أخبرنا ذات مرة كمال القلش أن عيد ميلاده حل، فشرعنا فى تجهيز ما يلزم. وفجأة تذكر أحدنا:

- ألم نحتفل به من شهور قليلة.

قلبنا الأمر فى أذهاننا، وتذكرنا .. وأغرقنا فى ضحك، تباعدت شطآنه لقول أحدنا:

– كمال يحل عيد ميلاده عدة مرات فى العام.

ولم يتراجع القلش، عن ضرورة الاحتفال به هذه المرة، مؤكداً أنها عيد ميلاده الحقيقى.

وكنت أعرف أن كل ما يهمه من الاحتفال، هو ما نقدمه له من سجائر، حيث أنه حريقة تدخين، ونصيبه اليومي منها لا يؤجج نارها.

وكنت متأكداً، أنه بعد عدة شهور، سيدعي أن عيد ميلاده الحقيقى قد حل وليس ما فات.

" الماستر" والرقابة

عندما أصدر رئيس الوزراء ممدوح سالم قراراً برفع الرقابة عن المطبوعات ونشر فى جريدة " الأهرام " فى ١٢ / ١٢ / ١٩٧٦، لم يكن ممكناً وضعها موضع التنفيذ، دون ظهور تقنية طباعة " الماستر ".

فمكاتب أمن الدولة فى المحافظات، حلت محل الرقيب (هيئة الاستعلامات بالقاهرة) ولم تعترف بهذا الإلغاء.

وإذا ما جرؤ صاحب مطبعة بالحديث عن الإلغاء، فلن يسلم من زيارة ضباط مباحث الأموال العامة، للتحقق من رخصة المطبعة، ومن موظفى التأمينات، للتأكد من تأمينه على عماله، ولن يسلم من تحرير مخالفات لإحداثه قلقاً لسكان شارعه، لأن آلات مطبعته دارت بعد السادسة مساءً. ولن يجرؤ أحد على تذكيرهم أن محال اللحام بالأكسوجين، وأن سمكرية السيارات يستخدمون " الصاروخ " الذى يقلق الموتي فى قبورهم، حتى الواحدة بعد منتصف الليل. وسينط المخبرون كل دقيقة فى المطبعة، ومطالعة كل ورقة على مكنة الطباعة، وأخذ نسخة من كل كتاب تم طبعه، والتنبيه بعدم تسليمه لصاحبه حتي يخطرونه بذلك.

ومت يا حمار .. حتى يأتيك العليق.

ولمعرفة أهمية " الماستر " .. أذكر أنه فى عام ١٩٦٨، حين شرعت فى طباعة روايتي " شارع الخلا " ظللت ما يقرب من سبعة شهور، أتردد على مطبعة أحمد السيد فى المنصورة، أحمس العمال للانتهاء من الطبع، حيث كانت الطباعة تتم بحروف الرصاص التى تجمع حرفاً حرفا. ولا يستطيع أسرع عامل أن يجمع أكثر من عدة صفحات فى اليوم.

وفى كل مرة أذهب إلى المطبعة، أتملى وجوه العمال، فإذا لم ألمح شيئاً يغذى قلقى، حمدت الله على نعمائه، وتمنيت أن يتم طبع الكتاب على خير.

وعند الانتهاء، كنت كمن يتاجر فى بضاعة محرمة. سارعت إلى تهريب بعض النسخ، وأعطيت كل صديق عشرة نسخ لتوزيعها، وأخفيت رصة هنا ورصة هناك، حتى إذا ما أرادوا جمعها استحال عليهم ذلك.

وذهبت مطمئناً إلى ضابط أمن الدولة وعرضت عليه نسختين.

فوجئ الرجل. زغردت فى سرى " بس شاطرين تراقبوا فى الرايحة والجاية .. كنتوا نايمين فين يا أساتذه ".

استرد الضابط نفسه وقال:

– أرجوك لا توزع منها إلا لما نقول لك.

كاد الضحك يفلت مني، وقلت:

– حاضر ..

فى اليوم التالى ذهبت إلى المطبعة لاستلام باقى النسخ، فوجدت الموقف ملبداً. أرسلوا أحد رجالهم إلى صاحب المطبعة، ووبخه لأنه طبع دون إذن مسبق منهم.

وكنت قبل الطبع قد مررت على عدة مطابع، فاشترط أصحابها موافقة الرقابة.

الرقابة ألغيت. هات تصريحاً من أمن الدولة. ولما كان لى ماض سياسى وأتوقع معاكستي، واتخاذ الأمر ذريعة – كعادتهم – لكي يجعلوك

تتردد عليهم للدردشة حسبما يقولون. ولما كنت أكـره هـذه الدردشـة، وأشعر بإرهاق نفسى كلما التقيت أحدهم، فلم أرد الذهاب. وظللت أبحث عن مطبعة، تعفيني من الرقابة مسبقاً، وترسل لهم من النسخ مـا تشـاء بعد الطبع، حتى عثرت على أحمد السيد، الذى قال لى فى تيه:

– ما دام أنا أقرأ الكتاب وأوافق عليه خلاص.

وعندما ذهبت إليه بعد تأنيبه، خففت عنـه، مـدعياً أن الضـابط المسئول عن النشر صديقى، ولعل المخبر الذى جاءه فهم خطأً.

وسارعت إلى التليفون أطلب الضابط، ومن عـاداتهم أن يحسـنوا القول فى عبارات مجاملة لا تعني شيئاً. أسـمعت صـاحب المطبعـة عبارات المجاملة، لأوحي له بصداقتي للضابط، والرجل لا يعرف شـيئاً عن خلفيتي السياسية، وعن معاملة ضباط أمن الدولة لأمثالنا بمعسـول القول، وإظهار الود الأجوف.

وطلبت من الضابط ألا يتعرضوا لصاحب المطبعة مستقبلاً، وأنـا حريص ألا يسمع الرد الذى يقال لى.

وضعت السماعة وطمأنت الرجل، وإذا تعرض لأية مشـاكل فأنـا تحت أمره.

ثم نفذت بجلدي بباقى النسخ، مبقياً فى المطبعة مئتي نسـخة، مـن ألف، حتى إذا ما اعترضوا على الرواية، أوهمناهم أننا لم نطبع سواها.

وافق الرجل بعد أن تبدت له صداقتي للضابط، ولكي يقبض بقيـة حسابه.

ولم يمر وقت طويل حتى أبلغني الضابط، أنني أسـتطيع توزيـع الكتاب.

وتشاء الظروف أن ألتقى الضابط نفسه بعد عدة سـنوات، عنـدما ذهبت إلى وزارة الزراعة بالجيزة لاسترداد مخطوطة روايتـي " نافـذة على بحر طناح " بعد أن اعتذروا عن نشرها فى مشروع كتاب " اخترنا للفلاح ". وحمدت لهم حفظها، فهي الوحيدة التى أمتلكها. وقد سلمت من

أيدي رجال أمن الدولة أثناء تفتيش بيتي، لاتهامي فى قضية قصر الثقافة ببورسعيد، حيث حدثت جمهرة للمطالبة بخفض الأسعار، والسماح ببعض الحريات الديمقراطية. وهم مغرمون بأخذ مخطوطاتي بحجة الاطلاع عليها وإعادتها، ثم لا تعاد أبداً. وهذه الرواية سبق مصادرة نسخة خطية منها فى قضية مظاهرات الطلبة فى ديسمبر عام ١٩٧٢، عندما فتشوا بيتى وقتها، وقلت لأصدقائى: حسنا فهي محفوظة للتاريخ، لعل أحد المؤرخين ينقب فى أوراق القضية، ويجدها وينصفني.

لم أكد أهنأ بالنسخة الخطية .. وبينما أنزل سلم الوزارة، حتى فوجئت بالضابط إياه أمامي. سلمت عليه، وكان برفقتي الشاعر / إبراهيم رضوان. عزمنا لنشرب القهوة، وأبلغنا – كالعادة – أنه تحت أمرنا، وألح كثيراً لكي نطلب منه أية خدمة.

بالطبع كان يود أن يعرف سبب وجودي فى الوزارة، خاصة وقد علمت منه أنه يعمل الآن فى مكتب مباحث الجيزة. وكنت أستطيع أن أخبره ولكنني أحسست بسعادة بالغة وأنا أتجاهل رغبته.

لم نكد نودعه على سلم الوزارة، حتى لامني إبراهيم رضوان:

– لماذا سلمت عليه .. ؟!

– عيناه فى عينىَّ .. لم أستطع تجاهله.

وانطلقت ضحكاتنا .. ستعييه الحيل ليعرف سبب وجودنا فى وزارة الزراعة.

ما أن أفلتنا من الوزارة، حتى شعرت بإنقاذ المخطوطة. كنت قد يئست من موافقة الرقابة فقررت طباعتها بأي شكل للحفاظ عليها، وقبل أن أُفقدها مرة أخرى. طبعت مئتي نسخة بالاستنسل. ولم تكن النسخ مما تسر له العين. وكلما بعت نسخة لأحد، أو أهديت نسخة لكاتب، أبدي عجبه لطباعتها بهذه الطريقة، وتحضرني كلمات صديقى الكاتب والمخرج المسرحي السيد حافظ:

– ما دمت طبعتها بهذا الشكل لازم وراءك سر ..!

ولم يسألني ما هو، ولم أكن أستطيع وقتها أن أخبره.

وإذا كنت هرباً من الرقابة، قد ارتكبت جناية الطباعة السيئة، فغيرى كان يتحايل بطريقة أخرى .. فعلى سبيل المثال، كان الشاعر إبراهيم رضوان يكتب الكلمة التى يعرف أنهم سيعترضون عليها، خطأً، أو غير مقروءة، ويصححها بعد عودة الديوان من الرقابة.

والحقيقة أن تأثير الرقيب النفسى، أقوى من مجرد حذف كلمة، أو عبارة. كان المشكل الحقيقى أثناء التأليف. فالمؤلف يسأل نفسه: هل يكتب فى هذا الموضوع، وبهذه الطريقة، أم أن الرقابة ستعترض. وهل من المجدي أن يتعب نفسه، دون أن يرى عمله النور. ويظل المؤلف يفكر فى طرائق الكتابة، وفى العبارات، أو الصفحات التى يمكن أن تحذف، حتى يشعر بالضنى ولا يستطيع التفكير بحرية، وعندئذ – فى بعض الأحيان – كنت أتوقف عن الكتابة. وهذا فيما أرى الجزء الخطر فى وجود رقابة على الكتب ..

أما وقد زالت، فنرجوا ألا تعود أبداً.

وقبل أن أوضح كيف جعلت طباعة " الماستر " إلغاء الرقابة حقيقة واقعة .. أشير إلى بعض الدعوات المضحكة فى الثمانينات والتى زعمت أن " الماستر " انتهي دوره.

أي دور أيها السادة .. ؟!

" الماستر " تقنية حديثة تستخدمه المطابع الكبرى، الآن فى طبع الكميات المحدودة، أقل من خمس آلاف نسخة للكتاب، توفر لها نصف التكلفة – على الأقل – فيما لو استخدمت ألواح الزنك.

وكانت ضرورية لكي يرى بعض نتاج الأدباء النور.

دفعت يوما بمسرحية لى من فصل واحد، اسمها " فيش وتشبيه " لنشرها فى مجلة " إبداع " وأشر عليها رئيس التحرير وقتها الدكتور عبد القادر القط بعدم النشر، لأنها مكتوبة بالعامية.

وفى الشهر التالى نشرت " إبداع " مسرحية بالعامية لألفريد فرج وقابلت الدكتور القط فى هيئة الكتاب، بحضور أحد سكرتيرى تحرير المجلة، وعاتبته على نشره بالعامية لألفريد، بينما رفض النشر لى. فقال:

– بالطبع توجد بعض الاستثناءات، وهي لأمثال ألفريد فرج.

قلت:

– لا أوافق على هذا الاستثناء، وعلى أية حال، لقد أضررت بألفريد .. فهي مسرحية سيئة تدور حول مثلث مستهلك. الزوج والزوجة والعشيق .. ولا تقدم جديداً لا فى الفكر، ولا في المعالجة، وكان الأولى أن تنصحه بعدم نشرها. نظر إليَّ الدكتور دهشاً، فقلت له:

– على أية حال، لقد نشرت مسرحيتي المرفوضة فى مجلة "الحقيقة "، وكانت معي عدة نسخ، ناولته إحداها. ولما كانت المجلة مطبوعة بالماستر، فقد أثرت الموضوع معه، لأنه سبق وهاجم مطبوعات الماستر.

قال الدكتور:

– أنا لا أهاجم الماستر من حيث هو ماستر، ولكن لأن طبعته محدودة. مئتا نسخة على الأكثر من كل طبعة.

قلت:

– مجلة " الحقيقة " التى بين يديك، تطبع ألفى نسخة توزع جميعها.

وقلت فى سرى وأنا أغادره: " إبداع " لا توزع أكثر من ثلاثمئة نسخة، وأراها مكدسة عند باعة الجرائد.

فإلى هؤلاء السادة الذين ظنوا أن دور الماستر قد انتهي، أقول: أين كنت أنشر مسرحيتى المرفوضة، وأرجو ألا يعتقد أحد أنها رفضت لعاميتها، لكنها رفضت لمضمونها، فالمسرحية تهاجم انتخابات مجلس الشعب بالشكل الذى تتم به، وتهاجم نوعية من الأشخاص، يُفرضون علينا نواباً.

هذا ما لم يستطع الدكتور أن يصرح به.

وهذا هو مربط الفرس، الذى يحتم ضرورة الطبع بطريقة الماستر، فهي أداة لتعميق الديمقراطية، وجعل حرية النشر والتعبيـر حقيقـة، لا مجرد شعار. فالكتاب الذى كان يطبع فى عدة شهور يطبع فى يوم واحد قبل أن يلحق بك مخبر أورقيب.

ومن الحجج السخيفة التى يسوقها منتقـدو مطبوعـات الماسـتر: الطباعة رديئة .. ما ينشر فيها لا يرقى إلى مستوي أدبى وفنـي جيـد. ويتجاهلون الإبداع الراقى والمسـتوي الطبـاعي الجيـد لمطبوعـات "مصرية" التى يشرف عليها المحقق التاريخي عبد العزيز جمال الـدين. ومجلة " الحقيقة " التى يشرف عليها طاهر البدري ويحرر فيها دكتـور عبد المنعم تليمة والمرحوم الدكتور سليمان عبد الباقى الأسـتاذ بكليـة زراعة الزقازيق والمرحوم بدر عقل المحاسـب وغيـرهم مـن كبـار المثقفين والمهتمين بالشأن السياسى، ومجلة " الرافعي " بطنطا ويشـرف عليها عضو مجلس الشعب الشاعر فاروق خلف وكوكبـة مـن نجـوم الأدب، فى طنطا والمحلة الكبرى والمنصورة، ومجلة " الكلمـة " فـى السويس ويشرف عليها الروائى محد الراوي .. و " رواد " فى دميـاط التى أخرجت جيلا من الكتاب المجيدين. وسلسـلة ومجلـة " أصـوات معاصرة" التى أشرف عليها المرحوم الدكتور حسين على محمد. ولماذا لا ينتقدون مطبوعات الجامعات والمؤتمرات المحلية والدولية وكلها بـ " الماستر ".

ولماذا ينزعج هؤلاء السادة من كثرة مطبوعات " الماستر " ولماذا لم ينزعجوا من الكم الهائل من المطبوعات التى تخرجها المطـابع كـل يوم وأغلبها غث وغير مؤثر، وملقى على أرصفة المدن.

أما كيف ساعدت هذه التقنية الجديدة فى الطباعة على جعل إلغـاء الرقابة حقيقة واقعة فالكتاب يكتب على الكمبيوتر فى ليلة أو ليلتين، ثـم يصورعلى فروخ الماستر (ورق حساس) فى ساعة واحدة، على مكنة التصوير الضوئى.

ثم يوضع الماستر فى مكنة الأوفست، فتطبع الكتاب فى عدة ساعات .. أين هذا من جمع الكتاب بحروف الليونتيب، او جمع حروف جاهزة من الرصاص، يدوياً والطريقة الأولى تستغرق أياماً والأخرى أسابيع .. ومثلها فى المراجعة وفى الطباعة، مما يتيح الفرصة لأي رقيب للذهاب إلى المطبعة ووقف الطبع.

وأليس من الغريب، أننا الكُتاب ننفذ القرار الذى أعلنه رئيس الوزراء ممدوح سالم برفع الرقابة، بينما جهات أمنية تخالفه، وتصر على رقابة المطبوعات، أي أننا فى بلد يستطيع فيها مخبر مخالفة رئيس الوزراء.

حقاً، أتاحت هذه الطريقة صدور مطبوعات كثيرة .. وبعضها غير جيد .. لكن من هذا الكم سوف يخرج الإبداع الجيد .. وكلما اتسعت الدائرة، كلما تعددت الفرص لانبثاق مبدع عظيم.

ولقد انتشر " الماستر " فى العالم كله.

فى فرنسا تطبع النوادي الأدبية للكتاب الجدد عدداً محدوداً من مؤلفاتهم بـ " الماستر"، وحين يلقى أحد الكتب اهتماماً من النقاد والقراء، يعيدون طبعه بأعداد كبيرة.

وفى إيران، لولا " الماستر " لحرم العالم من رواية " البومة العمياء " لصادق هدايت، كان المؤلف يائساً من أحوال إيران أيام الشاه محمد رضا بهلوي. واستطاع أصدقاؤه طبع روايته بـ " الماستر " طبعة محدودة، وهربوها خارج إيران.

وفى فرنسا، بعد موت المؤلف، وقعت الرواية فى أيدي بعض النقاد الذين أذهلتهم روعتها، فترجمت وطبعت فى عدة لغات منها العربية. وأصبحت من الروايات القليلة العظيمة فى أواخر القرن العشرين.

ولقد أفادني " الماستر " حين قررت طباعة كتابى " سجناء لكل العصور " حقاً سجنت بسببه، لكن نسخاً منه – وهيبـ "الماستر " قد أرسلت خارج مصر بالبريد. وتمكن صديقى السيد حافظ من نشره مسلسلاً فى مجلة " صوت الخليج ".

وحين فازت رواية شقيقى عادل حجازي " المخاض " بجائزة نادي القصة فى القاهرة، أودع نسخة منها فى هيئة الكتاب، وأخرى فـى دار الهلال، ولم يتكرم أحد بالنظر إليها، فطبعتها فى سلسلة " أدب الجماهير " بــ " الماستر " وأرسلت نسخاً منها ومن روايتــي " متهمــون تحــت الطلب، وهي مطبوعة بــ " الماستر " أيضاً، لصديقى الشاعر سمير عبد الباقى في سوريا، وتصادف أن طلب منه الأديب بنــدر عبــد الحميــد نصوصاً مصرية لتنشرها وزارة الثقافة فى سوريا فأعطاه نسخة من كل رواية، وتم نشرهما.

ترى .. لو لم أكن طبعتهما بــ " الماستر " ووزعتهما فى كل مكان .. فهل كانت تسنح هذه الفرصة للنشر دون وجــودي، ودون أن أتعمــد ذلك .. ؟!

وأذكر، أننى كنت فى مدينة مكة بعــد اغتيــال الســادات، وزرت رئيس تحرير جريدة " الندوة "، وتطــرق الحــديث لزيــارة الســادات المشئومة للقدس، وأبديت اعتراضى على الزيارة، وعلى أ ي حوار مــع العدو الإسرائيلى.

اضطجع محدثى فى كرسيه وقال:

– تعارض الآن .. بعد أن ذهب السادات .. ؟!

وكان معي فى حقيبتي نسخة من طبعــة " الماســتر " لروايتــي" متهمون تحت الطلب " أعطيته نسخة وقلت:

– هذه الرواية نشرت فى عصر السادات، وكانت علــى رصــيف مدبولى موزع الكتب الشهير فى قلب القاهرة.

اعتدل الرجل فى كرسيه، ونظر إلىَّ بإمعان.

وحين خرجت من مكتبه كنت مرفوع الرأس.

والرواية تدور حول فظائع كبار ملاك الأراضــي فــى المنوفيــة. وكانت قد انتشرت نغمة أيام السادات، كبار الملاك – يا عيني علــيهم – أُهينوا فى قضية كمشيش. وتناسى المتباكون أن الفلاحين أُهينــوا آلاف

السنين من قبل كبار الملاك، وتباكوا على ساعات محدودة تعرض فيها كبار الملاك للمساءلة.

* *

وعن الظروف التى نشأت فيها مطبوعات "الماستر" يقول الأستاذ / محمد السيد عيد فى بحث له بعنوان " مطبوعات الماستر – صوت صارخ فى البرية " المنشور فى كتاب "مداخلات نقدية " الصادر عن إقليم شرق الدلتا الثقافى فى مايو ١٩٩٩ وأعيد نشره –البحث – فى مجلة "الثقافة الجديدة" بالقاهرة فى ديسمبر من العام نفسه:

(كان النصف الثاني من السبعينات من أكثر الفترات تقلباً فى تاريخ مصر المعاصر، إذ توالت فيه التحولات الاقتصادية والسياسية وأهمها:

- التحول من النظام الاشتراكي إلى الانفتاح الذى هو نظام رأسمالى فى جوهره.
- الصلح مع إسرائيل بعد عداء دام أكثر من ثلاثين عاماً.
- التوجه نحو أمريكا بعد انقطاع طويل وعداء سافر بأنها تمتلك ٩٩,٩ % من أوراق اللعبة فى الشرق الأوسط.

ولم يكن ممكناً أن تستمر هذه التغيرات دون معارضة حقيقية، إلا أن الرأي الآخر لم يجد أية فرصة للتعبير عن نفسه، فقد انتهزت السلطة أحداث يناير ١٩٧٧ لتغلق صحف المعارضة وتلحق بها مجلة " الطليعة " وتحدث انقلاباً فى مجلة "الكاتب" وتضرب بقوة مجلة " الدعوة ". وتفرض رقابة صارمة على الصحف القومية بتعيين رؤساء تحرير من طراز خاص على قمتها، وصاحب هذا كله ضمور هائل فى حركة النشر مع إعطاء أولوية النشر للكُتاب المرضّي عنهم.

فى ضوء هذا كان لابد من حركة نشر تعبر عن رأي المثقفين الذين لا يتفقون فى الرأي مع السلطة، وتستوعب إبداعهم فى مواجهة ضمور حركة النشر. ومن هنا ظهرت حركة "الماستر" عام ١٩٧٧ بالذات، أي فى نفس العام الذى بطشت فيه الدولة بأية كلمة معارضة.

ومن هنا يمكن القول أن ظاهرة "الماستر" لم تكن موجودة كظاهرة طباعية بل كانت أصلاً ظاهرة سياسية، ولعل هذا يفسر الموقف العدائى ضد "الماستر" من جهات بعينها. وإلى جانب البعد السياسى المحوري فى هذه الظاهرة هناك بعد فني، أساسه التمرد على الإبداع المطروح فى الساحة الأدبية).

ويقول فى موضع آخر:

(وكانت البداية فى المنصورة عام ١٩٧٧، وكان الرائد هو فؤاد حجازي.

سُجن بعد أحداث ١٨، ١٩ يناير وعندما خرج من السجن كتب رواية قصيرة [مجموعة قصصية تنبثق مما حدث فى ١٨، ١٩ يناير عدها بعضهم رواية لأنها تدور حول موضوع واحد- المؤلف] عن الفترة القاسية التى قضاها وراء القضبان، أسماها " سجناء لكل العصور " وقرر أن ينشر روايته واختار طريقة الماستر لنشرها. ويقول فى موضع آخر:

(وقد دفع فؤاد حجازي ثمن هذا غالياً إذ قبض عليه ونشرت الصحف أنه تم القبض عليه لحيازته منشورات. لكن على أية حال سجل لنفسه أنه صاحب أول تجربة فى النشر بـ" الماستر"، والذى فتح الطريق للعديد من الكتاب بعده ليسيروا على نهجه) ويخلص إلى عدة ملاحظات نذكر منها:

(أن "الماستر" بدأ كمبادرة فردية من الأديب فؤاد حجازي ثم أصبح ظاهرة تتكرر فى أماكن عديدة ثم أصبح حركة مؤثرة يلتف حولها أدباء مصر فى الأقاليم وبعض أدباء العاصمة الذين لا يجدون فرصة للنشر، وبالتالى يمكن القول أن قضية "الماستر"لا تخص أدباء مصر فى الأقاليم فقط بل تخص أيضا كتاب العاصمة ومطبوعات " مصرية " و "أصوات" وغيرها شاهدة على ذلك).

وتقول الدكتورة / مارينا ستاغ فى كتابها " حدود حرية التعبير" دار شرقيات – القاهرة عام ١٩٩٥:

(مر فؤاد حجازي (من مواليد ١٩٣٨ بتجارب كثيرة مع أشكال مختلفة من الرقابة، ولكنه أيضاً واحد من أبرع الذين بذلوا جهوداً لتحديها، وهو الذى بدأ " حركة الأوفست " [تعني الطباعة بالماستر- المؤلف] فى عام ١٩٧٧ طبع روايته" سجناء لكل العصور " دون إذن من الرقابة فى وقت كان قد أعلن فيه منع الرقابة، ولكنها كانت تمارس بالفعل، وقد تسببت هذه الجريمة فى القبض عليه لعدة أيام ولكنها وضعت نهاية لتطبيق الرقابة على الكتب ..).

إلى أن تقول:

(فى ديسمبر ١٩٧٦، كان ممدوح سالم رئيس الوزراء ووزير الداخلية آنذاك – قد أعلن إلغاء الرقابة على الكتب، ولكن القانون لم يطبق، حيث كانت المباحث العامة مستمرة فى ممارستها كالسابق، وتضغط على أصحاب المطابع لكي لا يطبعوا أي شئ دون إذن منهم – كان قد مر عام قبل أن تتحرك المباحث العامة، ولكن فى مايو ١٩٧٨ صودرت الرواية وصدر أمر بالقبض على المؤلف لطباعة كتاب دون إذن).

إلى أن تقول:

(هذه القضية والاهتمام الذى أثارته وضعا نهاية للرقابة المسبقة على الكتب، وكانت تلك نقطة البداية لما يسمي بحركة "الأوفست"، حيث تبع كتاب آخرون مثال فؤاد حجازي وبدأوا فى طباعة كتبهم بنفس الطريقة، متخطين دور النشر الحكومية الكسولة).

وعن المستوي الجمالى فى هذه القصص يقول المرحوم الدكتور أنس داود فى مقال له بعنوان " السخرية فى سجناء لكل العصور " أذيع فى البرنامج الثاني بالإذاعة المصرية، حلقة مع النقاد فى ٤ / ٤/ ١٩٩٠ ونشر فى مجلة "المنصورة الثقافية " فى يناير ١٩٩٢:

(ومن الملامح التى تحملها قصص فؤاد حجازي، السخرية المرة، ولكن هذه السخرية ليست مغلقة أو حقودة، بل هي سخرية فنية،

ضاحكة، نجدها عند كبار الكتاب، فالكاتب الصغير، يتبدي في الحقد، أو فيما يكرهه، ويمقته. أما الفنان الكبير، يتناول هذه الأشياء، وكأنه يتعامل مع عالم الأطفال، الذين يؤذونه، وهو شيخ كبير، ناضج حكيم).

إلى أن يقول:

(وتأتي ذروة السخرية فى الفصل الذى أطلق عليه " التقرير" وهو فى الحقيقة قصة قصيرة، كل فصل قصة قصيرة، ورغم ذلك الحدث ينمو، ويقدم شريحة أخرى من داخل الزنزانة. فصل " التقرير " يفضح غباء السلطة تماماً. يضع الكاتب صورتين. ما حدث بين أحد السجناء وخطيبته. المفارقة هنا أن التى قابلته أو استلمت منه أوراقها هي خطيبته التى انفصل عنها " التقرير " يقول غير ذلك.

يقول أنها منظمة، وأنهم يوزعون منشورات، وأنه يعطيها المنشورات، ويوصيها أن توزعها. كل هذا تناقض غريب بين صورتين نجح فؤاد حجازي ألا يقول شيئاً، وأن يقول كل شئ لأنه وضع صورتين. ماحدث فى الواقع، وما حدث فى أوهام المخبرين الذين تعتمد عليهم السلطة، فيضللونها أسوأ تضليل، أولاً لسوء نواياهم، وثانيا لغبائهم).

ويقول فى موضع آخر:

(استخدم الكاتب مجموعة من التقنيات، التكثيف، والتقطيع، واستخدام تيار الشعور، واستخدام الذاكرة لأحداث ماضية، والاسترسال فى الماضى. والخلط بين الماضى والحاضر، ورؤية المستقبل. وهذه الوسائل مشهودة عند الروائى، ولقد استخدم الكاتب هذه التقنيات ليبعد روايته، أن تكون تسجيلية أو تقريرية أو مباشرة، وقد نجح فى ذلك، وأصبحت روايته رؤية فنية للواقع، وتخطي طريقة تقديم النموذج إلى طريقة تقديم مجموعة من الشخصيات.

وأخرج بعض المشاهد، لها خصوصية، ولها طعم جديد ..).

وينهي حديثه بالقول:

(وثمة سؤال يلح علىَّ بعد أن قرأت (ص٦٠) وما بعدها.

استعرضت وجوه المعاناة التى عرضها الكاتب بأمانة ودقة، أفزعتني كثيراً. حقيقة فزعت من هذه الرواية، وأحسست بخوف شديد. وسألت نفسى: هل هذا أدب تيئيس أم أدب تحريض .. ؟!

وأجبت بعد تفكير. هذا أدب يحمل رسالةً خطيرةً جداً. هو أدب تحريض بالدرجة الأولى. أدب لإيقاظ الجماهير. أدب لتوجيه هذا الجيل. ورفض لكل ما تطرحه السلطات الظالمة فى أي مكان فى العالم.

ومن هنا يأخذ أدب فؤاد حجازي طابعه الإنساني العظيم، وهناك من يقدرونه فى كل أنحاء العالم).

* *

ولعله قد آن الأوان لأسرد قصة طبع" سجناء لكل العصور " أول كتاب يُطبع بـــ "الماستر".

عندما ذهبت لطباعته فى عام ١٩٧٧، نظر الطابع فى الأوراق وتردد. قلت:

- الرقابة ألغيت .. لا تخش شيئاً.

- سأخطر مباحث أمن الدولة.

وعندما وجدت ألا فائدة ترجي من النقاش، أملت أن تساعدني حيلتي القديمة فى الاتصال بهم تليفونياً.

وطلبت المباحث .. وبالطبع الضباط هناك يعرفونني، خاصة الضابط المسئول عن الشيوعيين.

تحدثت إليه:

- لى كتاب فى المطبعة والرجل خائف أن يطبع.

- أريد أن أراه أولاً.

- الرقابة ألغيت. ولك بعد الطبع أن أحضر عدة نسخ .. لاتخش شيئاً.

وجعلت أتبسط فى الحديث معه، رافعاً الكلفة، كي يسمعني صاحب المطبعة، ليطمئن قلبه. وأخيراً وافق الضابط على الطبع، وكنت أعرف

أنه ربما يوافقني تخلصاً مني، وبعد مغادرتي المطبعة، يصدر أمره للطابع ألا يطبع الكتاب. قطعت عليه الطريق ضاحكاً:

- الرجل خائف .. كلمه أنت.

أحسست تردده .. وناولت " السماعة " لصاحب المطبعة، فلم يجد الضابط بداً من القول:

- اطبع ووافني بنسخ بعد الطبع.

ولما كنت أعلم أن الضابط سيرسل أحد مخبريه للاطلاع على الأصل فى المطبعة، أو موافاته بصورة منه فى وقت لاحق، فقد كهربت الرجل ليسرع فى العمل.

وأنجزنا الكتاب بسرعة خيالية، وبسرعة البرق وزعته على أصدقائى للمساعدة فى التوزيع، وأودعت نسخاً عند بعض أصحاب المكتبات.

وكلما قابلت أديباً قال لى:

- الرقابة لم تلغ .. كيف تصدق ذلك.

وكنت أقول:

- علينا وضع قراراتهم موضع التنفيذ.

وبالطبع وصل الكتاب إلى أمن الدولة. ولم يبد منهم أي رد فعل لمدة طويلة. بينما أضحك فى نفسي لما تم. وذات يوم قابلت صديقاً أديباً، كان فى مباحث أمن الدولة بلاظوغلى فى القاهرة. وأخبرني أنه سمعهم يتحدثون عن الكتاب، ويقولون أنني ضحكت عليهم فى المنصورة، وأن الكتاب سبب لهم فيما بينهم أزمة كبيرة.

وعلمت بعدها أن الضابط المسئول فى المنصورة قد نقل.

وفى زيارة إلى صديقي طاهر البدري فى شقته الصغيرة على سطح عمارة بشارع نوال بالدقى، قال لى:

- من فترة جاءني مخبر وخبط الباب، وعندما فتحت سأل: الأستاذ نبيل عبد الرؤوف. لو سمحت كلم البك (يقصد رئيس مباحث

أمن الدولة بالقاهرة) .. ثرت فى وجهه .. قل للبك أنني لا أكلم أحداً .. ولا أذهب إلى أحد .. ولا أريد أن أرى خلقة أحد منكم .. فغادرني المخبر منزعجاً .. وأخذت أتساءل .. لماذا ناداني نبيل عبد الرؤوف .. وأخيرا تذكرت، وأغرقت فى الضحك إنه الاسم الذى أسميتني به فى " سجناء لكل العصور".

ولم أملك نفسى من الاسترسال فى القهقهة ..

وظللت فى توجس، لا أدري كيف سيكون رد فعل الأمن تجاهي .. إلى أن كان يوم أعلن فيه الرئيس السادات عن أحد استفتاءاته الشهيرة، لتمرير أحد القوانين المعادية للحرية والديمقراطية .. ونشط الأمن فى اعتقال من يخشى معارضتهم .. وكان أن ذهبوا إلى مكتبة بها نسخ من " سجناء لكل العصور " صادروها، وأصدروا أمراً بالقبض على المؤلف لأنه طبع دون ترخيص !!

وقد فصلت ما دار فى تحقيق النيابة فى كتابى " أوراق أدبية " فليرجع له من يشاء. وبعد يومين من إجراء الاستفتاء، ذهبت إلى قاضى المعارضة، وأراه المحامي رقم الإيداع بدار الكتب، وأكد رفع الرقابة عن المطبوعات، وأن قانون المطبوعات (الذى وضعه الاستعمار البريطاني) ومازلنا نعامل به، لاينص على الحبس لمن يخالف الرقابة، بفرض وجودها ..

وأفرج عني القاضى بكفالة ثلاثين جنيهاً .. وحتي الآن لم أستردها .. ولا أعرف ماذا تم فى القضية .. لكن ما أعلمه، أنه منذ هذا التاريخ .. تشجع كثيرون، ولم يعودوا يعرضون أعمالهم على أية رقابة.

ولقد انتشر توزيع الكتاب، وكنت كلما أعطيت دفعة لمدبولى موزع الكتب الشهير، ومررت عليه بعد أيام، طلب دفعة أخرى. وهكذا ..

حتى جاء يوم قال لى

– أجِل شوية.

فعلمتَ أنهم وصلوا إليه.

وكانت وكالة الأنباء الفرنسية، قد طيرت خبر القبض علىَّ إلى جميع أنحاء العالم .. وأصبح الكتاب شهيراً، من حيث أرادوا التعتيم عليه.

انجذاب

كنت أجلس فى مكتبى بشرطة المرافق، عندما دخلت مفتشة من الجهاز المركزي للمحاسبات.أحسست بانجذاب طاغ نحوها.

وإذا بها مضطربة فى جلستها، تضع ساقاً فوق أخرى، ثم تُغير الوضع.

وأنا فى عجب من الأمر.

أي انجذاب متبادل بين الطرفين، فور النظرة الأولى .. ؟!

لا أعرف ماذا جذب كل منا للآخر. من جهتي – على الأقل- لا أذكر شيئا معيناً. فلم تنطبع فى ذهني ملامحها بالضبط، ولم أكد أعي تضاريس جسدها، ولم نتكلم إلا قليلاً،عرفتني بمهمتها، وناولتني بطاقتها الشخصية، التى لم أطالع فيها شيئاً.

لا شك، لو وفق اثنان، تنشأ بينهما مثل هذه الجاذبية المتبادلة، للزواج لكانا من أسعد الناس. فهل ينتظر المرء والمرأة حتي يحدث لهما ذلك .. ؟! وماذا لو تأخر الأمر ..وماذا لو جاء بعد الزواج والإنجاب .. فماذا يفعلان .. ؟!

* *

لم تنتظر المفتشة حتى تصل التحية التى طلبتها من البوفيه. تناولت بطاقتها وغادرت دون عودة.

ومرة أخرى، كنت فى معسكر تابع لمحافظة الدقهلية بمصيف جمصة، يضم عائلات الموظفين، وذات صباح ونحن نغادر البوابة إذا بى أمام امرأة ويتطلع كل منا نحو الآخر.

وقفتُ ووقفت مشدوهين. أتطلع إلى وجهها الأحمر ورأسها المستطيلة، تشدني جاذبية لا يمكن مقاومتها. استعدنا نفسينا للحظات، أخبرتي أنها زجة فلان، وأنها شقيقة زميل لى فى العمل بمجلس مدينة طلخا، حيث كنت أعمل وقتها.

وكانت هذه المرأة أكثر ثباتاً من الأولى. دعتنى لنتسوق معاً. سرت معها قليلاً ثم اعتذرت زاعماً أن لي وجهة أخرى.

وكنا فى المعسكر نقوم مبكراً، وننطلق من حجراتنا المبنية بالأكياب، ونذهب إلى مقصف فى وسط باحة رملية، تطل عليها الحجرات، نشترى الفول المدمس والطعمية الساخنة، وبعد تناول الفطور نتحلق حول الترابيزات لشرب الشاي والقهوة. تحاشيت المقصف، وظللت ما بقى لى من أيام فى المصيف أتحاشى لقاءها، إلا ما حدث مصادفة.

وعدلت عن حجز أسبوع ثان.

كان يكلفني حجزه جنيهان، وآخذ من أمين مخزن المعسكر ماأشاء من أسرة وبطاطين. وكان للمعسكر شاطئوه الخاص، الآمن من أي متطفل، حيث نقع فى آخر المصيف.

وكنت آمنا على ولديَّ الصغيرين فى المعسكر يمرحان كيفما شاءا.

وكانت الزاوية التى نقع عندها من البحر، يهب منها هواء كأنه نابع من الجنة. جاف مع أنه قادم من البحر، ينعش الجسد، وتخال الوجه محاطاً ببغاشة حمراء مسكرة. وجفاف هواء جمصة ميزة تنفرد بها، خلافاً للمصايف الأخرى، خاصة الإسكندرية فى شهرى يوليو وأغسطس ما أن تسير على شاطئ البحر، حتى تجعلك الرطوبة لزجاً، وإذا كنت تلبس نظارة مثلى تتغمش العدستان ولا تكاد ترى شيئاً وتستحم عدة مرات فى اليوم الواحد، دون أن تستطيع فكاكاً من خنقة الرطوبة والحر.

كما كانت جمصة، تتيح لي منذ ولوجها، ألا أرتدي بدلة، أو أنتعل حذاءً. طول إقامتي، أسير حافياً،أو منتعلاً صندلاً خفيفاً، وأذهب إلى أي مكان ببنطلون قصير وفانلة، أو قميص. كما كانت تتيح لى حياة طبيعية.

نذهب فى أحد الصباحات، إلى حلقة السمك. التجار يساومون الصيادين، وينتظر بالقرب منهما نفر من المصطافين .. تتقاذف من مقاطفهم المجدولة من سعف النخيل أسماك مختلفة الأحجام والأنواع. بلطي وبياض وسمك موسى الأحمر وثعابين .. وعندما يستصغر التجار شروة يقترحون تركها للأفندية. فيشترى أحدنا عدة كيلو جرامات بما لا يتجاوز، عشرين أو ثلاثين قرشاً .. وبعد ساعتين نجد التجار قد فرزوا كل نوع من السمك، على حدة، ويبيعونه خلف جدار الجمعية التعاونية وسط المصيف حيث السوق، الكيلو جرام بعدة جنيهات.

وعلى أحد جانبى الطريق المسفلت التى يشق المصيف أقامت بعض النسوة أفراناً للشواء، نسلم السمك لإحداهن، ونأخذه بعد الخروج من البحر ظهراً.

وفى جمصة البلد،أوالقرية التى بني المصيف فى جوارها أو على حسها، نشترى من الغيط مباشرة الطماطم والخيار والفلفل والجرجير والفجل، ونصنع السلاطة، ونجلس على الرمل يدغدغنا هواء البحر، ونتناول غداءنا فى رعاية الطبيعة.

وكم كان لهذا وقع السحر فى نفوسنا، كما كانت خلطة الشمس مع يود البحر، تدفع الحمية فى أجسادنا .. فيهفو المرء إلى ممارسة الجنس فى فطرة وعفوية وعذوبة.

لم يدم هذا. فقد تفتق ذهن أحدهم على إعطاء جزء من الأرض التى يقام عليها المعسكر كل عام لإحدي النقابات، فأقامت عليها عمارة، وتلتها نقابات أخرى، وأجَّرت شققها لأعضائها وأصبحت جمصة التى أنشأتها محافظة الدقهلية حراماً على موظفيها، حلالاً للمصطافين من كل مهنة.

وكنت ومازلت أعجب لهواة التصييف فى المباني الأسمنتية، كشقق العمارات، والفيلات، والشاليهات، التى تثقبها الشمس وتحيل داخلها إلى أفران من الضحي حتى بعد العصر بقليل عازفين عن حجراتنا البسيطة

المبنية بالأكياب ذات التكييف الطبيعي، فالكيب نسيج يشبه الحصير مجدول من نبات البردي، يسمح بنفاذ الهواء، فيلطف من الجو فى الحجرة.

تركت المصيف – وقتها – وغبطت نفسى على التحلى بالعقل. فهل كنت عاقلاً حقاً .. ؟!

التعويض

فى أوائل الشهر العاشر من عام ١٩٧٠، كنت أجلس فى مكتبى بمجلس مدينة طلخا، وإذا بقائل:

– اذهب إلى الأستاذ م سكرتير مجلس مدينة المنصورة، وسيسهل لك الأمر.

كان هذا الأستاذ مساعداً فى الجيش، وكانت له صلات بإدارات عسكرية فى جهات مختلفة، أتاحت له قضاء بعض المصالح، لقاء ما يجود به صاحب المصلحة.

أخبرني بالمطلوب. ورقة من وحدتي السابقة تفيد تاريخ دعوتي للاحتياط، وورقة أخرى من شعبة التنظيم والإدارة تفيد تاريخ عودتي من الأسر فى إسرائيل، وأن أقدم طلباً مرفقاً بهما إلى إدارة الحسابات بمنشية البكري، لأصرف تعويضاً عن الفترة التى مكثتها فى الأسر، وأن أدع الباقى على الله وعليه.

وعلمت أنه نصح كثيرين، كانوا معي فى الأسر، وقدموا أوراقهم فعلا.

وتندر زملائى فى العمل:

– ابسط يا عم .. مبلغ وقدره.

– لنا الحلاوة.

وأسررت فى نفسى أن تكون الحلاوة أولاً للمساعد الذى أرشدني، ثم لزوجتي التى لفت من مبني المحافظة فى المنصورة إلى الوحدة

المحلية بكفر الحاج شربيني، لتصرف راتبى من الوظيفة أثناء غيابى دون جدوي، عندما أبلغها أحدهم أنني حيٌّ. فقد سمعني من إذاعة إسرائيل.

جمعونا فى طوابير فى معسكر الأسرى، وأخبرونا أنهم سيسجلون لنا فى إذاعة إسرائيل باللغة العربية.

حرت ماذا أفعل .. كيف أتكلم فى إذاعة العدو. وماذا أقول ..؟!

وتذكرت برنامج " بعد التحية والسلام " فى إذاعة صوت العرب. يذيعون رسائل من المغتربين لطمأنة ذويهم فى مصر أو العكس. ودائماً تختم كل فقرة بـ نحن بخير اطمئنوا وطمئنونا عنكم،أو نحن بصحة جيدة اطمئنوا وطمئنونا عنكم.

هل أقول أنني بخير وبصحة جيدة، وأعمل دعاية للعدو.

فكرت فى الانسحاب من الطابور، ولكني تريثت .. فلم نكن قد أرسلنا أية رسائل عن طريق الصليب الأحمر، أو التقينا مندوبه، ولا أدري هل والدتي وأخوتي وزوجتي يعلمون أنني حيّ أرزق أم لا .. هذا إذا أسمينا تبلغنا بفتاتهم رزقاً.

المذيع يقترب مني ..

وسمعت زميلا يقول: أنا فلان الفلاني، سلامي للأهل والأصدقاء، وآخر يقول: أنا فلان سلامي لزوجتي وأبنائى.

وخرجت من حيرتي.

لا نريد سوي الإبلاغ أننا أحياء، وهذه الكلمات المقتضبة تفى بالغرض.

* *

ذهبت إلى مقر وحدتى السابقة، فقيل لى أنها نقلت إلى مكان آخر فى العباسية. سألت حتى اهتديت إليها، ولم أجد الضابط المسئول. عدت مرة أخرى وحرر لى ما أردت.

وفى طريق العودة إلى المنصورة تـفحصت الورقة وقلبـى يـدق خشية أن يكون قد أثبت تاريخاً آخر، فكثيرا ما استدعيت، ولائما نفسـى لأنني فى غمرة الحصول عليها لم أقرأها فى حينه.

وذات مرة أبديت دهشتي لصديق متطوع فى السكرتارية العسكرية بإحدي الوحدات، من كثرة استدعائى دوناً عن زملاء دفعتي، مرة أمكث أسبوعاً ومرة أكثـر. وبعـد أن نتسـلم الملابـس العسكرية،والسـلاح يصرفوننا.

والتوتر على الحدود مع إسرائيل ما إن يهدأ حتى يبدأ من جديد.

انفجر صديقى ضاحكاً، وتمادي فى الضـحك ازاء عجـزي عـن الفهم، وقال:

- الجندي المكلف باستدعاء الاحتياط يجلس فى حجرة تحـيط بـه رصات الملفات من الأرض حتى السقف، يضرب بالشلوت أية رصـة، والملفات التى تقع يطلب أصحابها، وبعد أن يفرغ يضعها أمامـه علـى المكتب وفى جواره، وفى كل مرة تكون فى متناوله، مالم يستدع الأمـر نقلها إلى مكان آخر، فيضرب رصة أخرى بالشلوت، حـين يسـتدعون جنوداً من الاحتياط.

ومع أنني تشككت فيما يقوله، غير متصور أن يتم الاستدعاء بهـذه الطريقة، إلا أنني لم أستبعدها فكثير من زملائى المسـتدعين يعجبـون مثلى من كثرة استدعائهم دون زملائهم فى دفعاتهم، ولا أجد ما أرد بـه عليهم سوي الاستغراق فى الضحك، متذكراً حكاية الضرب بالشلوت.

* *

وفى يوم آخر ذهبت إلى شعبة التنظيم والإدارة، وقدمت طلباً بمـا أريد، وأخبروني أن أرجع فى الثانية بعد الظهر، وظللـت أتسـكع فـى شوارع القاهرة، حتى حان الموعد ووجدتهم عنـد كلمـتهم. وسـافرت للمنصورة على أن أعود فى الغد فلم يكن ممكنـاً الـذهاب إلـى إدارة

الحسابات لأنهم ينصرفون فى الموعد نفسه. ولا تسل عن ابتهاجي وقد قبلوا الورق وسجلوا عنواني، على أن يرسلوا لى شيكاً بالمستحق.

وأخذت أضرب أخماساً فى أسداس. لا أدري كيف سيعاملونني افترضت أن أعامل كموظف فى مأمورية خارج الوطن، يتقاضى مصروف جيب،وقتها، خمسين دولاراً فى اليوم، وأنا مكثت حوالى ثمانية شهور فى الأسر، كذا يوم فى خمسين دولاراً بكذا، خلاف بدل السفر والإقامة.

ألم نكن فى مأمورية بالخارج. وأية مأمورية .. لقد سُجنا وتعرضنا للتعذيب وللتهديد بالقتل، وللمرض والجوع، وكثير منا مصابون بجروح وعاهات لا يمكن علاجها. لاشك أن تعويضنا سيكون على قدر ما تعرضنا له. وأضعف الإيمان لن يقل عن مصروف جيب الموظف بالخارج.

* *

وعدت إلى العمل ..

أنتظر يوماً بعد آخر.

والجميع يسألونني .. زوجتي من جهة، وزملائى فى العمل من جهة أخرى.

وعندما كدت أنسى وصلني الخطاب المرتقب.

وبه شيك بـ أحد عشر جنيها وخمسة وعشرين قرشاً.

وحتي الآن تعييني الحيل، لأعرف كيف حسبوها.

وهذه الجنيهات مقابل أي شئ بالضبط .. !!

المثقفون الليبراليون

فى منتصف السبعينات من القرن الماضى، أردنا مجموعة من المثقفين أن نلتقى الدكتور حسين فوزي، للنقاش معه والسماع منه. ولما كان الصديق طاهر البدري تلميذه فى كلية علوم الإسكندريه، وأصبح

صديقاً له، فقد تولى تدبير اللقاء. وكنت مشوقاً لمن قرأت مقالاته بملحق أهرام الجمعة منذ صباى، وأعجبني مزجه العامية بالفصحي فى كتاباته.

ذهبنا إلى بيته على نيل الجيزة، وأذكر ممن حضروا اللقاء، إضافة لطاهر، الدكتور عبد المنعم تليمة، وبدر عقل، والقاص محمد روميش.

وكان الدكتور فوزي ممن وقعوا مع توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وآخرين على بيان يدعو إلى الصلح مع إسرائيل، مادمنا عاجزين عن هزيمتها، وذلك عشية حرب أكتوبر. وبعد الحرب، وتوقيع معاهدة السلام مع العدو الإسرائيلى، زار الدكتور إسرائيل.

وبالرغم من خلافنا معه فى هذه القضية، كنا نقدره. وحملت له بعض مؤلفاتي الأدبية، وبعض كتب أصدرتها فى سلسلة "أدب الجماهير" آملاً أن أعرف رأيه.

ومع تعدد اللقاءات، لم يبد أية ملاحظة، ومنعني الحياء من سؤاله، ومنيت نفسى أن يكتب عن أي كتاب فيما بعد لكنه خلافاً لما تمنيت كتب عن مؤلفات الدكتور محمد عمارة الإسلامية، وكان طاهر البدري قد أعطاها له. وكان عمارة فى موقف لا يحسد عليه. لفظه الشيوعيون لتخليه عن ماركسيته، ولم يرحب به الشيوخ وأغلبهم أزهريون، فهم لم ينسوا ماركسيته، مع أنه أصبح دكتوراً عن طريقهم، وسلفياً مثلهم.

* *

وذات مرة كان هناك جدل حول موضوع فكرى، وأخبرنا الدكتور فوزي أنه ذهب إلى مركز لتعليم الألمانية لتجويد ألمانيته، ليقرأ بحثاً مكتوباً بها يتعلق بالجدل، قبل أن يرد.

وكان صلاح حافظ، رئيس تحرير " روزاليوسف " وقتها طرفاً فى الجدل، فكتب معلقاً على ما قاله الدكتور فوزي، ملمحاً إلى الشذوذ الجنسى لأندريه جيد، الذى استشهد الدكتور ببعض آرائه.

وفى أول لقاء بعدها، نظر لى الدكتور فوزي غاضباً وقال:

– هل قرأت ما كتبه صاحبك .. ؟!!

يستنكر إقحام سلوك جيد الشخصى، للنيل من آرائه.
وبطبيعة الحال نقلت ملاحظته لصلاح حافظ، فابتسم ولم يعلق.
ويذكرني هذا، بسقطة أخرى لصلاح حافظ.

حين حدثت أزمة مع السوفيت قبل حرب ٧٣ بسبب توريد السلاح، ثم سحب خبرائهم العسكريين بناءً على طلبنا، هاجم كتاب كثيرون الاتحاد السوفيتي، وكانت تحية كاريوكا قد لعبت بطولة مسرحية تنتقد السوفيت، وبدلا من أن يركز صلاح حافظ على تفنيد الآراء الواردة فى المسرحية، عاير كاريوكا أنها راقصة .. !

أعود إلى الدكتور فوزي، الذى يعد من أعمدة الليبرالية المصرية، والذى أفدنا من مقالاته التنويرية عن العلم والموسيقى والثورة الفرنسية، وكان مؤسفاً أن يؤيد قائمة "يوسف السباعي " مرشحى السلطة فى أول انتخاب لاتحاد كتاب مصر، وكذا عبد الرحمن الشرقاوي المحسوب على اليسار، وقد فصلت ذلك فى كتابى " أوراق أدبية ".

والشئ نفسه يسلكه الليبرالى توفيق الحكيم، فبالرغم من "روايته " بنك القلق وكتابه عودة الروح اللذين ينتقدان الحقبة الناصرية، لا يجد غضاضة فى المطالبة بالصلح مع إسرائيل.

وكذا نجيب محفوظ .. رواياته ممتلئة بالنقد الاجتماعي، وتكاد تدعو للاشتراكيه، وتعبر عن تطلعات الفقراء والمعوزين، ويحيي محفوظ – دون مواربة – مواقف حزب الوفد الوطنية أيام سعد زغلول، لكنه مثل زميليه فوزي والحكيم، فى الموقف من إسرائيل، ولم يعلن أحدهم موقفاً واحداً ضد الاعتقال أو من أجل حرية تكوين الأحزاب، ومن أجل المطالبة بالديمقراطية.

وعندما دُعى محفوظ لرئاسة مؤتمر الأدباء الشبان بالزقازيق عام ١٩٦٩، كانت فرصة له ولنا .. هو ليعلن تعضيدنا كأدباء شبان نطالب باتحاد أدباء (لم يكن قد تكون بعد) ونطالب بالحرية والديمقراطية، وطرد العدو الإسرائيلي من سيناء، ونحن الذى أردنا لقاءه وكنا معجبين

بكتاباته، لكنه خذل الجميع ولم يحضر، وتولى رئاسة المؤتمر الدكتور على الراعي المحسوب على اليسار.

وهكذا هم المثقفون الليبراليون، حين يحين وقت الجد واتخاذ المواقف، ينحازون إلى اليمين بجداره.

وكأنهم يحذون حذو لطفى السيد رائد الليبرالية فى مصر والوطن العربى، فلم يكن يحبذ مقاومة الاستعمار الانجليزي، ويرى أن نوجه جهدنا للتعليم أولاً حتى تنهض الأمة. وها هو يرأس تحرير صحيفة " الجريدة " التى يصدرها حزب الأمة الذى يمثل الأعيان وكبار الملاك. أما بلزاك العظيم الذى كشف بشاعة البرجوازية الوليدة فى فرنسا ومدي انحطاط أخلاقها واستغلالها للناس، فكان هواه مع النظام الملكي .. !!

* *

وأعود إلى جلساتنا الممتعة مع الدكتور فوزي.

دار نقاش مرة حول جذورنا، وهل نحن حقاً أحفاد المصريين القدماء. ولعل السؤال نابع من خيبتنا الحاضرة، المتناقضة مع عزهم الغابر.

قال الدكتور فوزي:

- إذا تأملنا الصور المنشورة فى صفحة الوفيات فى جريدة الأهرام من الأقباط والمسلمين، وتأملنا رؤوس الفلاحين فى بحري والصعيد، سوف نجد أن الصفات التشريحية لجماجم المصريين المعاصرين لا تختلف عن مثيلتها أيام مصر القديمة.

ولفت نظرنا إلى أربعة نماذج.

نموذج رأس رمسيس الثاني التى تشبه علامة استفهام، تميل دائرتها إلى الاستطالة. ونموذج رأس تحتمس الثالث ذات الوجه المسحوب إلى أسفل كمثلث مقلوب قاعدته فى الجبهة. ونموذج رأس شيخ البلد ذات الوجه المستدير، والنموذج الرابع خليط من تحتمس وشيخ البلد.

وبعدها صرت أتأمل رؤوس من أصادفهم، أينما ذهبت. فى الصعيد يغلب عليها نموذجا رمسيس الثاني وشيخ البلد، وفى ريف بحري يغلب عليها نموذج تحتمس، وفى المدن يغلب عليها نموذج تحتمس وشيخ البلد.

ولقد أثار ذلك عجبى، فبالرغم من ورود الغزاة .. من فرس ويونان ورومان وعرب وأتراك وفرنسيين وإنجليز، ولقد تزاوجوا بالتأكيد من مصريات، وأقام بعضهم حقباً طويلة، إلا أننا – كمصريين – مازلنا نحتفظ بصفاتنا التشريحية منذ القدم.

ومرة أخرى دار نقاش حول استجلابنا للخبراء فى كافة المجالات. فى الاقتصاد وإدارة الأعمال، وفى إنشاء المصانع ومحطات توليد الكهرباء .. وكان سؤالنا: ألا نساهم بشئ فى هذا المجال على المستوي العالمي.

اكتسى وجه الدكتور فوزي جدية، وقال بطريقته البسيطة الواثقه، وصوته الهادئ المقنع:

– نحن متفوقون فى أمرين .. الأول .. الرى .. مهندس الرى المصري هو أحسن مهندس رى فى العالم، وهم يستعينون به كخبير لايباري فى هذا المجال. وأقرب مثال .. كثير من مشروعات الري وإقامة السدود فى أفريقيا من عهد اسماعيل وحتى اليوم، أقيمت بخبرة مصرية.

والأمر الثاني .. الأدب .. فى القصة والرواية رأسنا برأسهم. ونتفوق عليهم فى كثير من الأحيان.

ولقد أسعدني هذا الرأي جداً.

فبالرغم من تغير أساليب الكتابة، وبزوغ حداثيات مختلفة، إلا أن الأدباء المصريين، قد أجادوا وامتلكوا التقنية، وابتكروا وأضافوا.

ولعل ما ينقصنا هو اعتراف العالم بنا، كان ذلك قبل نوبل محفوظ، وانتشار كثير من الترجمات من العربية إلى اللغات الأخرى. وليس هذا

كافياً .. لابد أن نأخذ على عاتقنا ترجمة أعمالنا، ولا نتركها للأجانب، الذين مهما درسوا لغتنا، لايستطيعون إتقانها، كما أن اختياراتهم للترجمة تلبى حاجة يريدونها .. كهدف تعليمي، أو لإظهار الشرقيين بصورة يروجون لها، كما أنهم لا ينشرون بشكل شعبى. وعلينا أن نضع خطتنا .. وأن نسعي للوصول إلى للقارئ العادي.

* *

ولعل أفضل ما سمعته من الدكتور فوزي أنه لا كلمة نهائية فى شئ. الشئ حقيقى الآن فى حدود ما نعرف، بعد قليل تجد اكتشافات جديدة، فتلبس الحقيقة ثوباً آخر. وبعدها يجد جديد، وتتغير أبعاد الحقيقة المعروفة .. وهكذا للأبد .. لا يوجد قول فصل فى أي شئ.

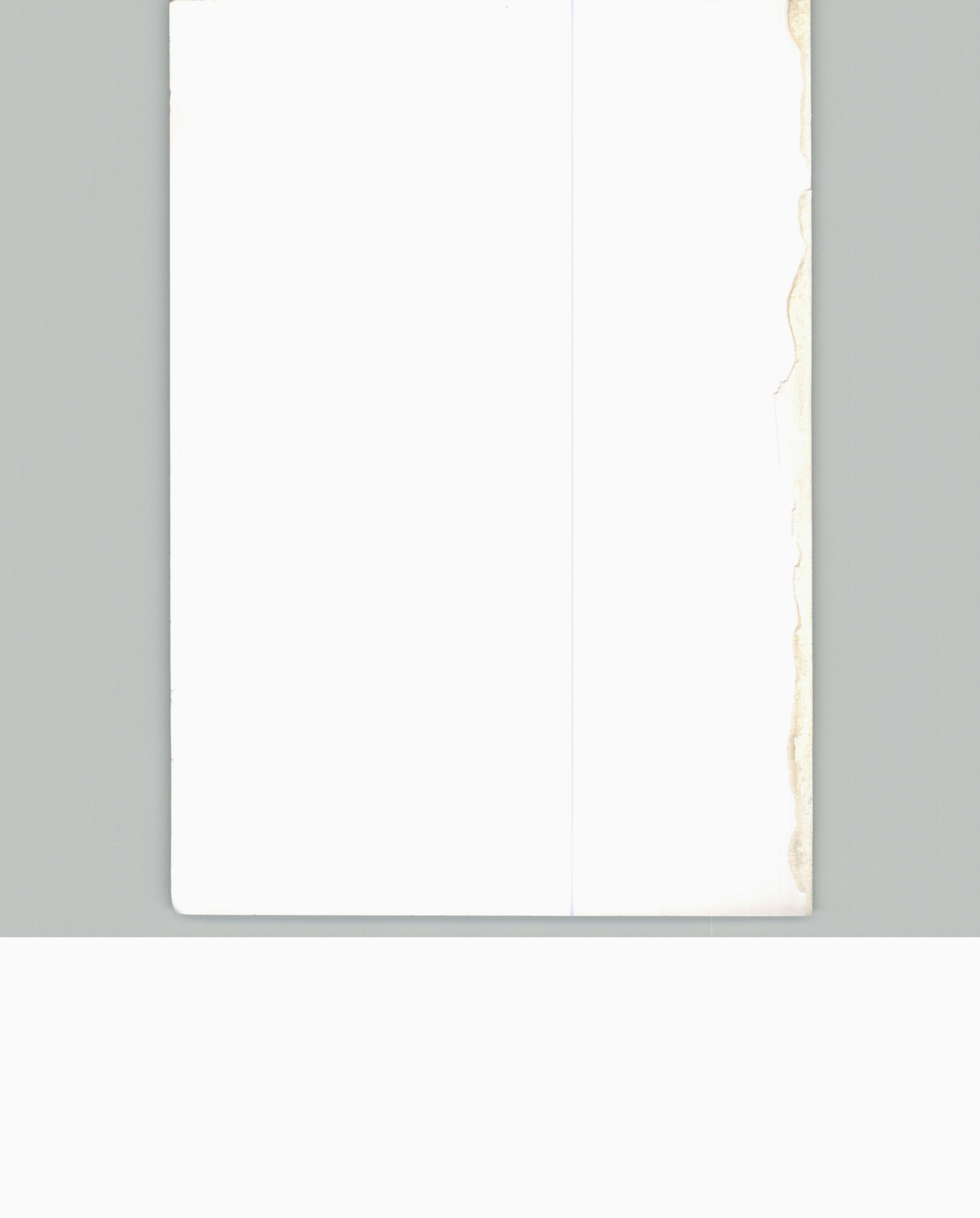
*

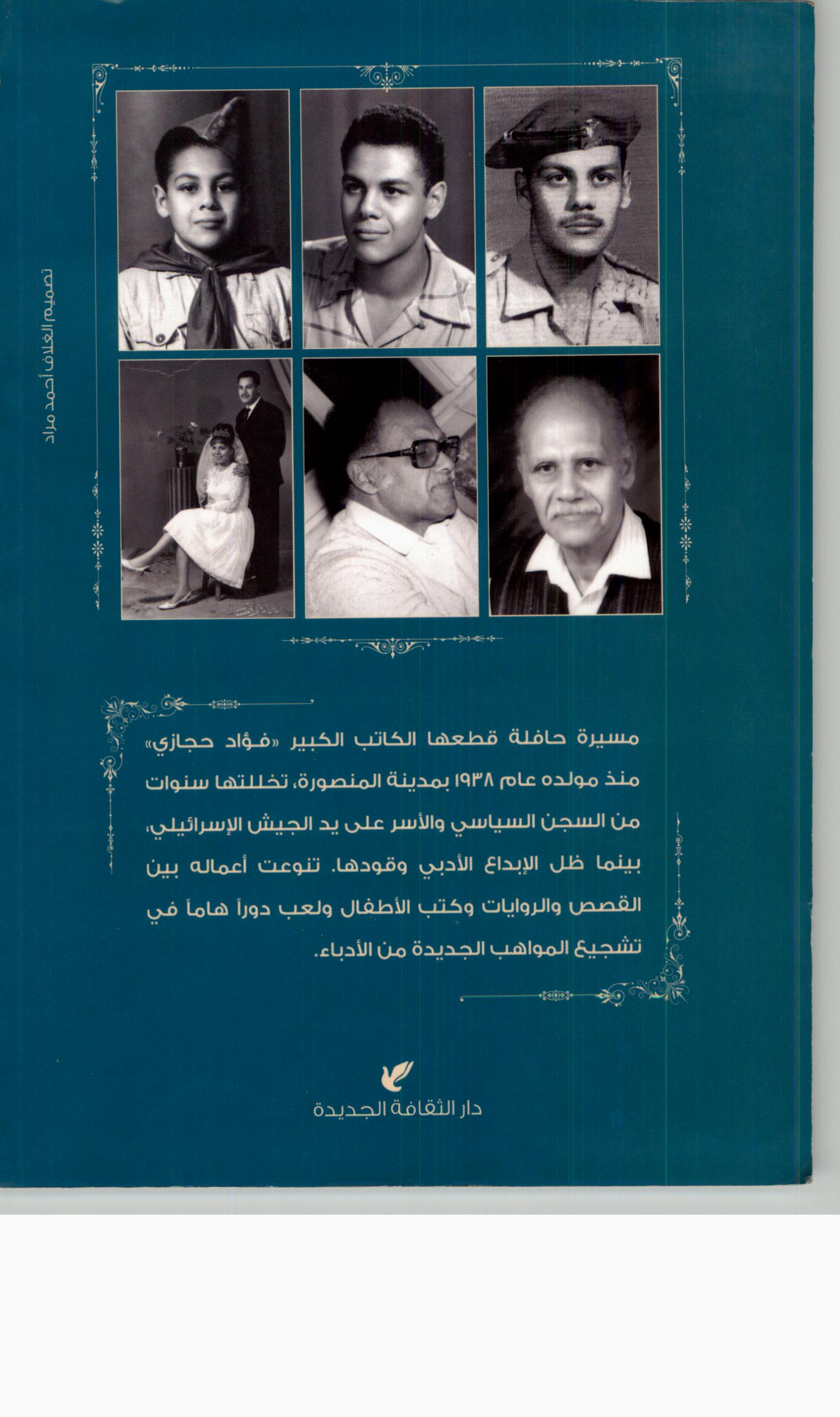
أحدث إصدارات
« دار الثقافة الجديدة »

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف / المترجم	الصنف	السعر
١	طعامك علاجك	تأليف: فكري اندراوس/ د. أليسون أور-اندراوس	سياسة	٢٥,٠٠
٢	عشرة أيام هزت العالم	تأليف: جون ريد	سياسة	٢٥,٠٠
٣	لينين الدولة والثورة	تأليف: لينين تدقيق وتقديم: سعد الطويل	سياسة	٢٠,٠٠
٤	ثورات المصريين حتى عصر المقريزي	عبد العزيز جمال الدين	تاريخ	٤٠,٠٠
٥	دليل الاشتراكية العلمية لشباب الثورة المصرية	بهيج نصار	سياسة	٥,٠٠
٦	رمال ناعمة	درية الكرداني	رواية	٢٥,٠٠
٧	ذات (الطبعة الخامسة)	صنع الله إبراهيم	رواية	٣٠,٠٠
٨	يوحنا النقيوسي **"أول من كتب عن دخول العرب مصر"** (تاريخ مصر والعالم القديم)	تحرير وتدقيق/ عبد العزيز جمال الدين	تاريخ	٤٠,٠٠
٩	رءوف مسعد يحاور نصر أبو زيد	رءوف مسعد / نصر حامد أبو زيد	إسلاميات	٢٥,٠٠
١٠	المسلمون والأقباط في التاريخ ط٣	فكري أندراوس تقديم المستشار/ محمود الخضيري	دراسة	٣٠,٠٠
١١	حرفوشيات (ديوان شعر)	د. فؤاد طيرة	شعر	١٥,٠٠
١٢	الجلـــــــيد	صنع الله إبراهيم	رواية	٣٠,٠٠
١٣	أحمد حسنين ودوره في السياسة المصرية ١٩٤٠-١٩٤٦	د. ماجدة محمد حمد	دراسة	٣٠,٠٠
١٤	وثائق الحركة الشيوعية المصرية من ١٩٥٣ - ١٩٥٤	تصدير وتحرير: د عاصم الدسوقي / م سعد الطويل حنان رمضان	وثائق	٤٥,٠٠
١٥	شـــــــرف	صنع الله إبراهيم	رواية	٣٠,٠٠

١٦	أيقونة الجسد	جورج البهجوري	رواية	٢٠,٠٠
١٧	الرئيس البديل	عبد الحليم قنديل	سياسة	٢٥,٠٠
١٨	لعبة الشيطان (كيف ساعدت الولايات المتحدة على إطلاق العنان للأصولية الإسلامية)	روبرت دريفوسترجمة: حمد مصطفى حسونة	سياسة	٣٥,٠٠
١٩	مهاجر غير شرعي	جمال عمر	رواية	٢٠,٠٠
٢٠	جمهوركية آل مبارك	محمد طعيمة	سياسة	٢٥,٠٠
٢١	حدتو ذاكرة المقاومة في بورسعيد ١٩٥٦	د أحمد القصير	سياسة	١٠,٠٠
٢٢	أفريقية عربية – مختارات العلوم الاجتماعية ١١	مجموعة من الكتاب	سياسة	١٥,٠٠
٢٣	حوار مع اطروحات حزب التجمع (والبحث عن برنامج يعالج قضايا واقع جديد)	بهيج نصار	سياسة	٤,٠٠
٢٤	جماعات الإسلام السياسي واليسار المصري	بهيج نصار	سياسة	٤,٠٠
٢٥	حركة التاريخ قضايا ومفاهيم	فوزي الإخناوي	تاريخ	١٥,٠٠
٢٦	بدائل التنمية العربية	مدحت أيوب	سياسة	٣٠,٠٠
٢٧	الثقافات المحلية والعولمة	د إيمان يوسف البسطويسي	سياسة	٢٥,٠٠
٢٨	كراكيب الصندرة	سمير عبد الباقي	أدبيات	٣٠,٠٠
٢٩	استراتيجية للثورة المصرية	بهيج نصار	سياسة	٢٠,٠٠
٣٠	أحوال الصين (دراسات نقدية)	مجموعة من العلماء الصينيين	سياسة	٢٠,٠٠
٣١	سياسية القوة البريطانية في مصر ١٩٢٤-١٩٤٢	د ماجدة محمد حمود	تاريخ	١٥,٠٠
٣٢	الثأر الرمزي (تماس الهوايات في واحات الجنوب التونسي)	محمد جويلي	اجتماع	٢٠,٠٠
٣٣	التفكير الناقد	د سهام الهويني	فلسفة	٢٠,٠٠
٣٤	حدتو ذاكرة وطن ط ٢	د أحمد القصير	سياسة	٢٥,٠٠
٣٥	أفريقية عربية – مختارات العلوم الاجتماعية ١٠	مجموعة من الكتاب	سياسة	١٥,٠٠
٣٦	الناس بين الكهنة والمؤسسات	حسني فرجاني سلامة	اجتماع	٢٠,٠٠

٣٧	التجربة الأنثوية (طبعة ثانية)	صنع الله إبراهيم	رواية	٢٥,٠٠
٣٨	المثقفون	حمزة قناوي	أدب	١٥,٠٠
٣٩	كارت أحمر للرئيس	عبد الحليم قنديل	سياسة	٢٥,٠٠
٤٠	أزمة مصر الحقيقية	عيداروس القصير	سياسة	١٠,٠٠
٤١	رمسيس لبيب – الأعمال الكاملة (المجلد الأول)	رمسيس لبيب	روايات	٤٠,٠٠
٤٢	رمسيس لبيب – الأعمال الكاملة (المجلد الثانى)	رمسيس لبيب	روايات	٤٠,٠٠
٤٣	سِفر الحياة (رؤي وتأملات)	فكري باسيلي	أدب	١٠,٠٠
٤٤	سِفر الحياة (وكان شتاءً دافئًا) شعر	فكري باسيلي	أدب	١٠,٠٠
٤٥	العراق بين صراعات في الداخل والخارج	حسين عبد الرازق	سياسة	٢٥,٠٠
٤٦	الأيام الأخيرة	عبد الحليم قنديل	سياسة	٢٥,٠٠
٤٧	ذكرى عاهراتي الحزانى	جابرييل جارثيا ماركيزترجمة د أحمد يونس	رواية	٢٠,٠٠
٤٨	اشتراكية القرن	سمير أمين	سياسة	٣٠,٠٠
٤٩	ماركسية القرن الحادي والعشرين	عادل غنيم	سياسة	٣٠,٠٠
٥٠	أوروبا العثمانية ١٣٥٤-١٨٠٤ (في أصول الصراع العرقي في الصرب والبوسنة)	بيتر شوجر ترجمة: د عاصم الدسوقي	تاريخ	٣٠,٠٠
٥١	استراحة الشيخ نبيل	عبد الستار حتيتة	رواية	٢٠,٠٠
٥٢	العمال وتحديات القرن الواحد والعشرين	إشراف: سمير أمين	سياسة	١٥,٠٠
٥٣	الطريق نحو عولمة بديلة	بهيج نصار	سياسة	٣,٠٠
٥٤	المرسى	نجوى شعبان	رواية	١٥,٠٠
٥٥	حوارات ساخنة بين اليسار العربي والأوروبي	سمير أمين وآخرون	سياسة	٢٠,٠٠





مسيرة حافلة قطعها الكاتب الكبير «فؤاد حجازي» منذ مولده عام ١٩٣٨ بمدينة المنصورة، تخللتها سنوات من السجن السياسي والأسر على يد الجيش الإسرائيلي، بينما ظل الإبداع الأدبي وقودها. تنوعت أعماله بين القصص والروايات وكتب الأطفال ولعب دوراً هاماً في تشجيع المواهب الجديدة من الأدباء.

تصميم الغلاف أحمد مراد

دار الثقافة الجديدة